ربّتهُ الغُربان. طاردَه الأشرار.

المُتوَحِّشُون

FERALS

رَفيقُ الغُربَان

THE CROW TALKER

الجزء الأول من
ثُلاثيّة «المُتوَحِّشُون»

جاكوب غراي

JACOB GREY

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

المتوحشون

رفيق الغربان

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Crow-Talker
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
HraperCollins Publishers
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 2014 by Jacob Grey
All rights reserved
Arabic Copyright © 2015 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1354-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **سامح خلف**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

شكر خاص لمايكل فورد

«... تـم العثـور على بعـض الضحايا مـع علامات أسـنان على جثثهـم فيما جرى إسـقاط ضحايـا آخرين مـن مرتفعات شـاهقة، أو ضخ السـموم في دمهم. لغايـة اليوم، لا يعـرف أحد مـا أو من الذي كان وراء السلسـلة الغريبة من الجرائم التي هزّت بلاكستون في ذلك الصيف المشؤوم».

لغز الصيف المشـؤوم بقلـم جوزفين والاس، مسـؤولة المكتبة في مكتبة بلاكستون المركزية.

الفصل الأول

الليل ملكه. لبس ظلاله، وتذوق روائحه. استمتع بأصواته وصمته. قفز كاو من سطح إلى آخر؛ ولد تشهد عليه فقط العين البيضاء للقمر والغربان الثلاثة التي تحلّق في السماء المظلمة فوقه.

انبسطت بلاكستون مثل تمدد جرثومي في كل الجهات. تأمل كاو الأضواء الوامضة في المدينة؛ ناطحات السحاب ارتفعت صوب الشرق، وإلى الغرب امتد المشهد اللامتناهي للسقوف المائلة للأحياء الفقيرة والمداخن العاملة في المنطقة الصناعية. في الشمال، لاحت المباني المهجورة. أمّا نهر «بلاك واتر» فموجود في مكان ما إلى الجنوب، وهو عبارة عن نهر موحل كدر يحمل الأوساخ بعيداً عن المدينة؛ ولكن من دون أن يجعلها أكثر نظافة على الإطلاق. استطاع كاو شمّ رائحته النتنة والكريهة.

انزلق على اللوح الزجاجي المتسخ لكوّة في سطح بيت، ووضع يديه بنعومة على الزجاج، وحدّق عبر بريقه الناعم. ثمة عامل تنظيف محدّب يمرر ممسحة ودلواً عبر الممر في الأسفل، تائهاً في عالمه الخاص. لم ينظر إلى الأعلى. إنهم لا يفعلون ذلك أبداً.

انطلق كاو مجدداً، مروِّعاً حمامة مكتنزة، وواثباً فوق لوحة إعلانات قديمة، وهو على يقين من لحاق غربانه به. اثنان من الغربان لا يمكن رؤيتهما بوضوح؛ إذ كانا مثل ظلين أسودين كالقطران. أما الثالث

فكان أبيض اللون، وجعله ريشه الشاحب يسطع مثل الشبح في العتمة.

أنا أتضوّر جوعاً. تمتم سكريتش، أصغر الغربان. كان صوته عالياً وحاداً.

أنت دائماً تتضوّر جوعاً. قال غلام، وهو يخفق بجناحيه ببطء وثبات. الصغار شرهون جداً.

ابتسم كاو. بالنسبة إلى أي شخص آخر، يعتبر نعيق الغربان مجرد صيحات طيور عادية. لكن كاو يسمع أكثر؛ أكثر بكثير.

ما زلت أنمو! قال سكريتش، وهو يخفق بجناحيه بسخط.

المؤسف أن دماغك لا ينمو! قال غلام ضاحكاً.

حلّق ميلكي، الغراب الأبيض العجوز الأعمى فوقهما. كالعادة، لم يقل أي شيء على الإطلاق.

أبطأ كاو سرعته ليلتقط أنفاسه؛ سامحاً للهواء البارد بملء رئتيه. أصغى إلى أصوات الليل؛ إلى حفيف إطارات سيارة على الزفت الناعم، وخفقان موسيقى بعيدة. وفي البعيد البعيد، ثمة صفارة ورجل يصرخ، لكن كلماته غير واضحة. لا يبالي كاو إذا ارتفع صوته بسبب الغضب أو السعادة. فهناك في الأسفل، يعيش السكان العاديون في بلاكستون. أما هنا في الأعلى، بين سحب الأفق، فالمكان له ولغربانه.

اجتاز دفق الهواء الساخن المنبعث من فتحة مكيّف هواء، ثم توقف وفتح منخريه جيداً.

طعام. شيء مالح.

قفز كاو إلى حافة سطح مبنى وحدّق من الأعلى. في الأسفل، وجد باباً يؤدي إلى ممرّ مليء بأكياس النفايات. إنها الجهة الخلفية لمطعم وجبات سريعة يفتح 24 ساعة يومياً. عرف كاو أنهم يرمون غالباً طعاماً جيداً تماماً؛ بقايا ربما، لكنه ليس صعب الإرضاء. جعل نظره

يركّز على كل زاوية معتمة. لم يرَ أي شيء يقلقه، لكن الأمر محفوف دوماً بالمخاطر على مستوى الأرض. إنه مكانهم، وليس مكانه.

حطّ غلام قرب كاو وحنى رأسه، فلمع منقاره القصير والعريض باللون الذهبي، عاكساً ضوء مصباح الشارع. سأل: هل تعتقد أن هذا آمن؟

إلا أن حركة مفاجئة لفتت انتباه كاو. إنه جرذ يفتش في أكياس النفايات في الأسفل. رفع رأسه ونظر إليه من دون خوف. قال كاو: «أعتقد ذلك. ابقَ يقظاً».

عرف أن غربانه لا تحتاج إلى إنذار، فقد أمضوا ثمانية أعوام معاً، ويستطيع الوثوق فيها أكثر مما يثق في نفسه.

أرجح كاو ساقاً فوق حافة السطح، وهبط بنعومة على أرضية منفذ الحريق. هبط سكريتش صوب الأسفل، وحطّ على جانب سلّة نفايات، فيما انزلق غلام على زاوية السطح، مشرفاً على الشارع الرئيس. هبط ميلكي على درابزون منفذ الحريق، وخربشت مخالبه على المعدن. الجميع في وضعية مراقبة.

زحف كاو لنزول الدرج. جلس القرفصاء هنيهة، مثبتاً عينيه على الباب الخلفي لمطعم الوجبات السريعة. رائحة الطعام جعلت معدته تقرقر بعنف. بيتزا، فكّر في سرّه. برغر أيضاً.

تسلل كاو إلى أقرب كومة نفايات، وعثر على علبة بوليستيرين صفراء لا تزال فاترة. فتحها، فرأى رقاقات بطاطا مقلية! وضع كمية كبيرة منها في فمه. كانت دهنية، ومالحة، ومحروقة قليلاً عند الحواف. إنها لذيذة. علق الخلّ الحمضي في حنجرته، لكنه لم يهتم؛ فهو لم يتناول الطعام منذ يومين. ابتلع من دون مضغ، وكاد أن يختنق. ثم وضع المزيد في فمه. وقعت رقاقة بطاطا من يده، فحضر سكريتش خلال ثانية، وانقضّ على الفتات بمنقاره.

صراخ أجشّ من غلام.

جفل كاو واختبأ خلف سلة النفايات، فيما فتّشت عيناه في العتمة. خفق قلبه بقوة فيما ظهر أربعة أشخاص في طرف الممر.

قال الأطول: «هاي! ابتعد عن مخبئنا!».

تراجع كاو إلى الخلف، ممسكاً بالعلبة قرب صدره. طار سكريتش، وخفق بجناحيه في الهواء.

اقترب الأشخاص أكثر فأكثر، ولمع قوس من ضوء الشارع على وجوههم. إنهم صبيان، أكبر منه ربما بسنتين. وهم مشرّدون؛ وفقاً لملابسهم الرثة.

قال كاو وهو يومئ صوب مكبّ النفايات: «هناك ما يكفي». شعر بالغرابة وهو يتحدث إلى أشخاص آخرين. فهذا يحصل نادراً جداً. كرّر: «هناك ما يكفي لنا جميعاً».

قال صبي يضع حلقتين في شفته العلوية: «لا، لا يكفي». وتقدم الآخرين، وبرم كتفيه بطريقة متباهية. «هناك ما يكفي لنا نحن فقط. كنت تسرق».

قال سكريتش: «هل ننقضّ عليهم؟».

هزّ كاو رأسه. لا جدوى من التعرض للأذى بسبب بضع رقاقات بطاطا مقلية.

قال الصبي الطويل: «لا تهزّ رأسك أمامي أيها السارق الصغير الحقير. أنت كاذب!».

قال صبي أصغر سنًّا بنبرة ساخرة: «إنّه فظّ، ورائحته نتنة أيضاً».

شعر كاو بسخونة كبيرة في وجهه، وتراجع خطوة إلى الخلف.

سأل الصبي الذي يضع الحلقتين في شفته: «إلى أين ستذهب برأيك؟ لماذا لا تبقى قليلاً؟». تقدّم صوب كاو وضربه بقوة على صدره.

الهجوم المفاجئ أذهل كاو فوقع أرضاً، مستلقياً على ظهره. طارت العلبة من يديه، وتناثرت رقاقات البطاطا المقلية على الأرض.

طوّقه الصبيان على الفور.

«ها هو الآن يرميها على الأرض!».

«سوف تجمعها؟».

وقف كاو بسرعة على قدميه. لقد أوقعوه في شركهم. «يمكنك الحصول عليها».

قال الزعيم: «لقد فات الأوان على ذلك». ومرّر لسانه على الحلقتين في شفته، فيما مدّ يده إلى جيبه. «والآن، سوف تدفع ثمن ذلك. كم تملك من المال؟».

قلب كاو جيبيه، فيما خفق قلبه بقوة. «لا شيء».

لمع نصل السكين وهو يخرج من جيب الصبي. «في هذه الحالة، سوف نأخذ أصابعك السارقة عوضاً عن ذلك».

تقدم الصبي إلى الأمام، فأمسك كاو بحافة سلة النفايات وقفز على سطحها.

قال الصبي: «إنه سريع، أليس كذلك؟ اقبضوا عليه».

طوّق الصبيان الثلاثة سلة النفايات. ضرب أحدهم كاحل كاو، فيما بدأ آخر بهزّ سلة النفايات. كافح كاو للحفاظ على توازنه، فيما كانوا جميعاً يضحكون.

شاهد كاو أنبوب تصريف على مسافة ثلاثة أمتار إلى يساره، فقفز إليه. لكن، فيما أمسكت أصابعه بالمعدن، انفصل الأنبوب عن الجدار وتطاير غبار الحجارة. سقط وارتطم بالزفت على جانبه، وانفجر الهواء من رئتيه. اقتربت منه أربعة وجوه مبتسمة.

قال الزعيم: «ثبتوه في مكانه. أمسكوه جيداً».

«أرجوكم... لا...». قاوم كاو، لكن الصبيان جلسوا على ساقيه وشدّوا ذراعيه. كان ممدد الذراعين والساقين، فيما الصبي صاحب السكين فوقه. «أي جهة أختار أيها الرفاق؟». وجّه طرف نصل السكين صوب يدي كاو بالتناوب. «اليسار أم اليمين؟».

لم يلمح كاو غربانه، ودبّ الذعر في عروقه.

جلس الصبي القرفصاء، واضعاً ركبته على صدر كاو. «إيني ميني سيني تحت البساتيني...». تمايل طرف السكين من جانب إلى آخر.

انتبه كاو! نادى غلام. نظروا جميعاً إلى الأعلى في اتجاه النعيق القوي الصادر عن الغراب، ثم امتدّت يد من الأعلى وأمسكت بحامل السكين من الجهة الخلفية لياقته. صرخ الصبي فيما تم إبعاده بقوة عن كاو.

صدر صوت احتكاك بشرة ببشرة، فيما وقعت السكين على الأرض.

من أين جاء؟ قال سكريتش.

نهض كاو. ثمة رجل طويل ونحيل يمسك بالصبي من الجهة الخلفية لعنقه. نتأ شعر بني مجعد من تحت قبعة الرجل المليئة بالبقع. كان يرتدي طبقات عدة من الملابس المتسخة، ومعطفاً بنياً قديماً مثبتاً حول خصره بواسطة حزام على شكل حبل أزرق مهترئ. ثمة لحية صغيرة غطت فكه على شكل رقع غير متساوية. خمّن كاو أنه في منتصف العقد الثاني من عمره، ومشرّد.

قال الرجل بصوت خشن: «اتركوه وشأنه». في شبه العتمة، بدا فمه مثل فتحة سوداء.

قال الصبي الممسك بذراع كاو اليسرى: «ما علاقتك به؟».

دفع الرجل الصبي صاحب الحلقتين بقوة على سلة النفايات.

فقال الصبي الممسك بساقي كاو: «هذا الرجل مجنون! فلنذهب».

حمل الزعيم سكينه ووجهها صوب الرجل المشرّد، وصرخ

قائلاً: «من حسن حظك أنك قذر جداً؛ فأنا لا أريد أن تتسخ سكيني. هيا أيها الرفاق».

زمجر الرجل بصوت عال: «اذهبوا من هنا».

استدار المهاجمون الأربعة، وخرجوا مسرعين من الممرّ. وقف كاو على قدميه، وأصبح نفسه قوياً. نظر إلى الأعلى، ورأى غربانه متحلقة مع بعضها على درابزون منفذ الحريق، وهي تراقبه بصمت.

بعد أن اختفى أفراد العصابة، خرج شخص آخر صغير من عتمة الممرّ للوقوف قرب الرجل. إنه صبي في السابعة أو الثامنة من عمره، باعتقاد كاو. كان وجهه الضيق شاحباً، وانتصب شعره الأشقر المتسخ على رأسه. «نعم، ولا تعودوا إلى هنا». صرخ وهو يحكم قبضة يده.

انقضّ كاو على رقاقات البطاطا المقلية المبعثرة على الأرض، وبدأ يعيدها إلى العلبة. لا داعي لتبديد وجبة جيدة. طوال الوقت، شعر بنظرات منقذه والصبي تحدّق في ظهره.

بعدما انتهى، وضع العلبة داخل الجيب العميق في معطفه، وأسرع صوب منفذ الحريق.

قال الرجل المشرّد: «انتظر. من أنت؟».

استدار كاو صوبه، وإنما أبقى عينيه على الأرض وهزّ رأسه. «أنا لست أحداً».

شخر الرجل بازدراء. «حقاً؟! أين أهلك؟ أليس لديك أحد؟».

هزّ كاو رأسه مجدداً، ولم يعرف ماذا يقول.

قال الرجل: «يجدر بك توخي الحذر».

«أستطيع الاهتمام بنفسي».

قال الصبي وهو يرفع ذقنه صوب الأعلى: «لا يبدو لنا الأمر هكذا».

سمع كاو صوت مخالب الغربان على الدرابزون فوقه، فارتفعت عينا الرجل صوبها لتأملها، ورسمت شفتاه شبه ابتسامة، وسأله: «أهذه الغربان صديقة لك؟».

قال غلام: حان وقت العودة.

تسلّق كاو السلم الفولاذي من دون النظر خلفه. تسلّق بسرعة، يداً فوق يد، وبالكاد أصدرت قدماه صوتاً في منفذ الحريق. وعندما وصل إلى السطح، ألقى نظرة سريعة أخيرة، وشاهد الرجل يراقبه، فيما الصبي الصغير منهمك بالبحث في سلة النفايات.

قال الرجل: «ثمة شيء سيّئ سيحصل. شيء سيّئ جداً. ستقع في ورطة. تحدث إلى طيور الحمام».

طيور الحمام! يستطيع كاو التحدث إلى الغربان فقط.

طيور الحمام! قال سكريتش كما لو أنه سمع فكرة كاو. يمكنك الحصول على منطق أكبر من الصخرة!

قال غلام: إنه غريب الأطوار. الكثير من البشر هكذا.

اندفع كاو صوب السطح وباشر في الركض. لكن فيما كان يركض، لم يستطع تجاهل الكلمات الواضحة للرجل. فهو لا يبدو مجنوناً في النهاية. كان وجهه قاسياً وعيناه واضحتين؛ وليس مثل أولئك الذين يتسكعون في الشوارع أو يطرقون على الأبواب متوسلين المال.

بالإضافة إلى ذلك، لقد ساعد كاو وعرّض نفسه للخطر من دون سبب.

حلّقت غربان كاو فوقه، وحامت حول المباني، ودارت حولها فيما شقت طريقها صوب عشها الآمن؛ منزلها.

بدأ خفقان قلبه يتباطأ، فيما عانقه الليل بجناح ظلامه.

الفصل الثاني

إنه الكابوس نفسه. نفسه كما هي الحال دوماً.

عاد إلى منزله القديم. السرير ناعم جداً؛ حيث يشعر كما لو أنه مستلقٍ على سحابة. إنه دافئ جداً أيضاً ويتوق لأن يقلب نفسه، ويشدّ البطانية على ذقنه ويعود إلى النوم مجدداً. لكنه لا يستطيع أبداً؛ لأن الكابوس ليس مجرد كابوس عابر، بل إنه ذكرى.

خطوات أقدام مسرعة على السلالم خارج غرفته. إنهما آتيان إليه.

يؤرجح ساقيه خارج السرير وتنغرز أصابع قدميه في السجادة السميكة. غرفته معتمة، لكنه يستطيع رؤية ألعابه المصطفة فوق خزانة أدراج ورف مليء بالكتب المصوّرة.

يظهر شعاع ضوء تحت بابه، ويسمع صوتي والديه الملحّين.

يتحرك مقبض الباب ويدخلان. ترتدي أمه فستاناً أسود، ووجنتاها مغطاتان بالدموع. أما والده فيرتدي سروالاً مخملياً بنياً وقميصاً مفتوحاً عند العنق، وجبينه مبلل بالعرق.

قال كاو: «أرجو كما، لا...».

تمسك أمه يده بيدها، فيما راحة يدها مبللة، وتشدّه صوب النافذة.

يحاول كاو التراجع إلى الخلف، لكنه صغير في الكابوس، وهي

قوية جداً بالنسبة إليه.

قالت: «لا تقاوم، أرجوك. هذا للأفضل. أعدك».

ركلها كاو على ساقيها وخدشها بأظافره، لكنها ضمّته إلى جسمها بقبضة حديدية، ودفعته إلى حافة النافذة. غرز كاو أسنانه في ذراعها، غير أنها لم تفلته؛ حتى عندما جرحت أسنانه بشرتها. فتح والده الستائر، ولهنيهة لمح كاو وجهه على زجاج النافذة؛ بدا قصيراً وبديناً ومذعور العينين وخائفاً.

انفتحت النافذة، ودخل هواء الليل البارد.

ها هو والده الآن يمسك به جيداً. امتلك كل من والديه ذراعاً واحدة وساقاً واحدة. ركل كاو وتلوّى وصرخ.

قالت أمه: «هشش هشش. سيكون كل شيء على ما يرام».

نهاية الكابوس تقترب، لكن معرفته ذلك لم تخفف من روعه. دفعاه وسحباه فوق حافة النافذة، حيث تدلّت ساقاه، ورأى الأرض بعيدة تحته. كان فك والده مشدوداً وقاسياً. لم ينظر إلى عين كاو مباشرة. لكن كاو لاحظ أنه كان يبكي أيضاً.

قال والده، وهو يفلت قبضته: «افعلها. هيا افعلها».

أراد كاو أن يصرخ: «لماذا؟». لكن كل ما خرج من فمه كان مجرد نحيب طفل.

قالت أمه: «أنا آسفة». وعندئذ، دفعته بعيداً عن النافذة.

لجزء من الثانية، انقلبت معدته. ثم التقطته الغربان.

غطت ذراعيه وساقيه، وانغرزت مخالبها في بشرته وبذلة نومه. سحابة داكنة ظهرت من حيث لا يدري، ورفعته إلى الأعلى.

غطى ريشها وجهه، وامتلأ أنفه برائحتها المزعجة.

إنه يظفو إلى الأعلى والأعلى، محمولاً على عيونها السوداء

وأرجلها الهشة وأجنحتها الخافقة.

سلّم جسمه للطيور ولإيقاع طيرانها، واستعدّ للاستيقاظ...

لكنه الليلة لم يفعل.

هبطت الغربان ووضعته برفق على الرصيف؛ محلقة مجدداً صوب منزله، بمحاذاة ممشى شاحب ممتد بين أشجار طويلة. رأى والديه قرب نافذته التي باتت الآن مغلقة. إنهما يتعانقان ويمسكان بعضهما بعضاً.

كيف يمكنهما فعل ذلك؟!

رغم ذلك، لم يستيقظ.

ثم رأى كاو شكلاً، شيئاً يتجسّد من العتمة في الحديقة الأمامية، ويمشي بخطوات بطيئة ومتأنية صوب باب المنزل. إنه طويل، طويل بقدر الباب تقريباً، ونحيل جداً، مع أطراف طويلة جداً بالنسبة إلى جسمه.

لم يستمر الكابوس هكذا مطلقاً من قبل. لم يعد هذا جزءاً من ذكرياته؛ لأن كاو يعرف ذلك نوعاً ما؛ في أعماق نفسه.

بحيلة معينة، استطاع رؤية وجه ذلك الشيء، عن كثب. إنه رجل، وإنما بملامح لم يرها من قبل قط. أراد النظر بعيداً، لكن عينيه كانتا مشدودتين صوب القسمات الشاحبة التي بدت أكثر شحوباً بفعل اللون الأسود لشعر الرجل الذي بدا على شكل أشواك ناتئة فوق جبينه وعين واحدة. إنه رجل وسيم لولا عيناه. كانتا سوداوين بالكامل؛ قزحيتين فقط من دون بياض.

لا يعرف كاو أبداً من يكون الرجل، لكنه يعرف أنه أكثر من سيّئ. الجسم النحيل للرجل جذب العتمة صوبه. لقد جاء إلى هنا لإلحاق الأذى. شيطان. جاءت الكلمة بصورة عفوية. أراد كاو

الصراخ، لكن صوته اختفى بفعل الخوف.

تاق للاستيقاظ بشدة، لكنه لم يفعل.

رسمت شفتا الزائر ابتسامة فيما رفع يداً، وبدت الأصابع مثل أرجل عنكبوتية متدلية. لاحظ كاو أنه يرتدي خاتماً ذهبياً كبيراً، فيما طوّقت أصابعه مقبض الباب مثل بتلات وردة تنغلق على نفسها. والآن، لم يعد يرى إلا الخاتم، والصورة المحفورة على سطحه البيضوي. ثمة عنكبوت محفور بخطوط قاسية، مع ثماني أرجل منتصبة. جسمه على شكل خط وحيد ملتف، مع منحنى صغير للرأس، ومنحنى أكبر للجسم. وفي خط العودة، ثمة شكل يشبه الحرف M.

يطرق الغريب على الباب مرة واحدة، ثم يبرم رأسه. إنه ينظر مباشرة إلى كاو. لبرهة، اختفت الغربان ولم يعد هناك في العالم سوى كاو والغريب. همس صوت الرجل بهدوء، مع شبه تحرك للشفتين: «أتيت من أجلك».

استيقظ كاو وهو يصرخ.

كان العرق يتصبب على جبينه، فيما شعر بقشعريرة تمتد على كلتا ذراعيه. استطاع رؤية نَفَسه حتى تحت غطاء القماش المشمّع الممدد بين الأغصان فوقه. وفيما جلس منتصباً، طقطقت الشجرة وارتج العش قليلاً، وتسلل عنكبوت بعيداً عن يده.

صدفة. مجرد صدفة.

ما الأمر ؟ سأل سكريتش، وطار من حافة العش للهبوط قربه.

أغمض كاو عينيه، وصورة خاتم العنكبوت تحترق تحت أجفانه.

أجاب: «الكابوس، الكابوس الاعتيادي. عد إلى النوم».

إلا أنه لم يكن الكابوس الاعتيادي هذه الليلة. فالغريب - الرجل الواقف أمام الباب - لم يره فعلاً من قبل. هل رآه؟

قال غلام: كنا نحاول النوم. لكنك أيقظتنا بسبب انتفاضك مثل الدودة نصف المدهوسة. حتى إن المسكين ميلكي استيقظ من نومه. استطاع كاو سماع الخفقان المضطرب لريش غلام.

قال: «آسف». واستلقى على ظهره مجدداً، لكن النوم جافاه، ليس مع الكابوس الذي ألقى بترددات في عقله. بعد أعوام من تكرر الكابوس نفسه، لماذا كان مختلفاً الليلة؟

أبعد كاو بطانيته عنه، وجعل عينيه تتكيفان مع العتمة. كان العش في أعلى الشجرة، عرضه ثلاثة أمتار، ومصنوع من الخشب والأغصان المحبوكة، مع فتحة صغيرة في أرضيته صنعها باستعمال رقاقة من البلاستيك المموج نصف الشفاف. تم حبك المزيد من الأغصان معاً حول حافة العش، مع قطع ألواح خشبية وجدها في موقع بناء، وجعلها على شكل وعاء ذي حواف منحدرة علوها قرابة المتر الواحد. وضع ممتلكاته القليلة في حقيبة عتيقة وجدها على ضفة نهر «بلاك واتر» قبل أشهر عدة. ثمة ستارة قديمة يمكن تثبيتها في الوسط إذا أراد بعض الخصوصية بعيداً عن الغربان؛ رغم أن غلام لم يفهم الفكرة مطلقاً. وفي الطرف البعيد، ثمة فتحة صغيرة في سقف القماش المشمّع توفّر مدخلاً ومخرجاً للغربان.

الجو بارد هنا، خصوصاً في الشتاء، لكنه جاف.

عندما أحضرته الغربان للمرة الأولى إلى الحديقة العامة القديمة قبل ثمانية أعوام، استقر الجميع في شجرة مهجورة؛ في التشعب السفلي من الشجرة. لكن، ما إن أصبح كبيراً كفاية للتسلق، حتى بنى عشه الخاص هنا، بعيداً عن العالم. إنه فخور به. إنه منزله.

أفلت كاو طرف القماش المشمّع وسحبه جانباً، فوقعت قطرة مطر على الجهة الخلفية لعنقه فارتعد.

القمر فوق الحديقة غير مكتمل، وباللون الفضي في سماء خالية من الغيوم. استقر ميلكي على الغصن الخارجي من دون حراك، وبدا ريشه الأبيض فضي اللون تحت ضوء القمر. برم رأسه، وبدا أن عيناً شاحبة غير مبصرة توقفت عند كاو.

دمدم غلام: هذا كثير، لا يمكنني النوم وهزّ رأسه ليعبّر عن عدم الموافقة.

قفز سكريتش على ذراع كاو، وطرفت عيناه مرتين، وقال: لا تهتم غلام. فالكبار مثله يحتاجون إلى جرعتهم من النوم.

أطلق غلام صيحة قوية وقال: أغلق فمك سكريتش.

تنشق كاو روائح المدينة: دخان السيارات، والعفن، وثمة شيء يموت في مجرى ماء. المطر يتساقط، ولكن ليس بمقدار كافٍ لجعل رائحة بلاكستون نظيفة.

قرقرت معدته، لكنه كان فرحاً بجوعه. فهذا يشحذ حواسه، ويعيد الذعر إلى خفايا عقله. احتاج إلى الهواء. احتاج إلى الهواء لتنقية رأسه. «سأذهب للعثور على شيء أتناوله».

قال غلام: الآن؟! لقد أكلت البارحة.

لمح كاو وعاء البوليستيرين الذي اشتمل على رقاقات البطاطا المقلية ليلة البارحة في الطرف البعيد من العش، بالإضافة إلى فضلات أخرى تحب الغربان جمعها والاحتفاظ بها. أشياء لامعة مثل أغطية قناني، وعلب معدنية، وحلقات معدنية، وورق ألمنيوم. كانت فضلات عشاء غلام مبعثرة أيضاً؛ بضعة عظام لفأرة، خالية تماماً من اللحم. وجمجمة صغيرة مكسورة.

قال سكريتش ممدداً جناحيه: أستطيع تناول الطعام أيضاً.

قال غلام وهو يهزّ منقاره: مثلما أقول دوماً. شره.

قال لهما كاو: «لا تقلقا. سأعود سريعاً».

فتح الكوّة، وتدلّى من الأرضية، ووصل إلى الأغصان العلوية، ثم شق طريقه نزولاً بمساعدة الدعامات التي استطاع رؤيتها. وفيما نزل إلى الأرض، قفزت ثلاثة أشكال- اثنان باللون الأسود، وواحد باللون الأبيض - على العشب.

شعر كاو بالقليل من الانزعاج وقال؛ كما فعل ألف مرة من قبل: «لا أحتاج إلى مجيئك معي». كاد يضيف: لم أعد ولداً صغيراً، لكنه عرف أن هذا سيجعله فعلاً مثل ولد صغير.

قال غلام: تحمّلنا.

هزّ كاو كتفه.

لم تُفتح بوابات الحديقة منذ أعوام، ولذلك كان المكان فارغاً كما هي الحال دوماً. وهو هادئ أيضاً، مع همس الهواء بين الأوراق. ورغم ذلك، التزم كاو بالمساحات المظللة. انفتح نعل حذائه الأيسر. عليه سرقة حذاء جديد قريباً.

مرّ أمام هيكل التسلق الصدئ الذي لا يلعب فيه الأولاد أبداً، واجتاز أحواض الأزهار التي أفسحت المجال أمام الأعشاب الضارّة منذ زمن بعيد. كان سطح بركة السمك مغطى بطبقة سميكة من الزبد. قال سكريتش إنه رأى سمكة هناك قبل شهر تقريباً، لكن غلام زعم أن هذا مجرد تخيل. لاح سجن بلاكستون خلف جدران الحديقة العامة إلى اليسار، وبرزت أبراجه الأربعة في السماء. في بعض الليالي، كان كاو يسمع أصواتاً من الداخل، تكتمها الجدران السميكة الخالية من النوافذ.

فيما توقف كاو أمام المنصة الفارغة في الهواء الطلق، المغطاة برسوم الغرافيتي، حطّ سكريتش على درجة، وخربشت مخالبه على الإسمنت.

سأل: هناك مشكلة، أليس كذلك؟

برم كاو عينيه. «أنت لا تستسلم، أليس كذلك؟».

أمال سكريتش رأسه.

اعترف كاو قائلاً: «إنه الكابوس. لم يكن هو نفسه تماماً. لم أفهم».

شقّ الكابوس طريقه مجدداً إلى عقله. الرجل صاحب العينين السوداوين، وظله الهابط على الأرض مثل شبح منتصف الليل، واليد المتمددة والعنكبوت...

قال سكريتش: ينتمي والداك إلى الماضي. انسَ أمرهما.

أومأ كاو برأسه، وشعر بالألم المألوف في صدره. كلما فكر فيهما، بدا له الألم مثل رضة قوية جرى لمسها حديثاً. لن ينسى أبداً. إنه يعيش الكابوس كل ليلة. الهواء تحت رجليه، وخفقان أجنحة الغربان ونعيقها فوقه.

منذ ذلك الحين، جاءت غربان عدة ورحلت. شاربي، بلاك، دوفر صاحب الرجل الواحدة، إينكسبوت وحبها للقهوة. وحده غراب واحد بقي إلى جانبه منذ ذلك اليوم قبل ثمانية أعوام؛ ميلكي الأخرس والأعمى وصاحب الريش الأبيض. يعيش غلام معه في العش منذ خمسة أعوام، وسكريتش منذ ثلاثة أعوام. واحد لا يملك شيئاً مفيداً لقوله، وآخر لا يملك شيئاً مرحاً لقوله، وواحد لا يملك أي شيء لقوله.

تسلّق كاو البوابة الحديدية المزخرفة، وأمسك بالحرف B المشير إلى حديقة بلاكستون العامة، ورفع نفسه إلى الحائط. وازن نفسه بسهولة، فيما وضع يديه بطريقة عفوية في جيبيه ومشى فوق الحائط. بالنسبة إلى كاو، الأمر سهل بقدر المشي في الشارع. لاحظ أن ميلكي وغلام يحومان فوق رأسه.

قال سكريتش: ظننت أننا سنحضر الطعام.

أجابه كاو: «قريباً».

توقف قبالة السجن. ثمة شجرة قديمة متدلية فوق الجدار، وكان مختبئاً تقريباً بين أوراقها الكثيفة.

صاح غلام: ليس هنا مجدداً. وجعل غصن الشجرة يرتجف فيما حطّ عليه.

قال كاو: «تحمّلني».

حدّق في المنزل الكبير في الجهة المقابلة من الطريق، المشيّد في ظلّ السجن.

يأتي كاو غالباً للنظر إلى هذا المنزل. لا يستطيع أن يفسّر السبب؛ ربما لرؤية أفراد عائلة عادية يقومون بأمور عادية. أحبّ كاو مراقبتهم وهم يتناولون العشاء معاً، أو يلعبون الألعاب معاً، أو يجلسون فقط أمام شاشة التلفزيون.

لم تفهم الغربان أبداً تصرفه هذا.

ثمة ظلّ في الحديقة أعاده فجأة إلى كابوسه؛ الابتسامة الوحشية للغريب، يد العنكبوت، الخاتم الغريب. ركّز كاو عمداً على المنزل؛ في محاولة منه لإبعاد الصور المرعبة عن عقله.

لم يكن واثقاً من الوقت، لكن نوافذ المنزل كانت معتمة، والستائر مسدلة. نادراً ما يرى كاو الأم، لكنه عرف أن الأب يعمل في

السجن. لقد رآه كاو وهو يغادر بوابات السجن ويعود إلى المنزل. إنه يرتدي دوماً بذلة رسمية، ولذلك خمّن كاو أنه أكثر من مجرد حارس. ارتاحت سيارته السوداء في الممشى مثل حيوان نائم. الفتاة صاحبة الشعر الأحمر، تكون في السرير، فيما كلبها الصغير مستلقٍ تحت قدميها. اعتقد كاو أنها في مثل عمره تقريباً.

آووووووو!

قطع صوت عويل سكون الليل، مما جعل كاو يقفز في مكانه. جلس القرفصاء على الحائط، ممسكاً بالحجر، فيما ارتفع صوت صفارة الإنذار وانخفض بصوت مرتفع نسبياً في صمت الليل.

ومضت الأضواء في الأبراج الأربعة للسجن، فألقت بأقواس من الضوء الأبيض على السجن والطريق في الخارج. تراجع كاو إلى الخلف، واختبأ تحت الأغصان؛ بعيداً عن الضوء.

قال سكريتش، وهو ينفض ريشه بعصبية: فلنذهب. سيأتي البشر إلى هنا قريباً.

قال كاو وهو يرفع يده: «انتظر».

ومض ضوء في غرفة الطابق العلوي، حيث ينام والدا الفتاة.

قال غلام: لمرة واحدة، أوافق سكريتش الرأي.

«ليس الآن».

سطعت المزيد من الأضواء وراء الستائر المسدلة، وبعد دقيقة أو دقيقتين، فُتح الباب الأمامي للمنزل. كان كاو واثقاً من أن العتمة تحميه. راقب والد الفتاة وهو يخرج من المنزل. كان رجلاً نحيلاً وإنما صارم المظهر، مع شعر فاتح اللون متراجع قليلاً نحو الوراء في الجهة الأمامية لرأسه. كان يسوّي ربطة عنقه، ويتحدث عبر هاتف مثبّت على كتفه.

قال غلام باشمئزاز: إنه الرجل الذي يتنزه مع ذلك الكلب المريع! أنصت كاو جيداً لسماع صوت الرجل رغم صفارة الإنذار.

صرخ الرجل: «سأكون هناك خلال ثلاث دقائق. أريد إقفالاً تامًّا لكل المنافذ، وجدولاً زمنياً، وخريطة لمجاري الصرف الصحي». صمت. «لا أبالي غلطة من كانت. لاقوني عند الباب الأمامي مع جميع العناصر الذين يمكن الاستغناء عنهم». صمت آخر. «نعم، طبعاً يجدر بك الاتصال بمسؤولة الشرطة. عليها أن تعلم بهذا، وبسرعة. هيا، انطلقوا الآن!».

ترك الهاتف بعيداً، وتوجَّه بخطوات كبيرة وسريعة صوب السجن.

تمتم كاو: «ما الذي يجري؟».

أجاب سكريتش: ومن يبالي؟ إنها أمور بشرية. دعنا نذهب.

فيما راقب كاو المشهد، ظهرت الفتاة عند باب المنزل والكلب قرب قدميها. كانت ترتدي قميص نوم أخضر اللون. بدا وجهها ناعماً، وأشبه بمثلث مثالي مقلوب، مع عينين واسعتين، وذقن صغير مستدق. شعرها الأحمر، الذي كان بلون شعر أمها، انسدل بطلاقة وفوضوية فوق كتفيها. نادت: «بابا».

صرخ الرجل من دون أن ينظر إلى الخلف تقريباً: «ابقي في الداخل، ليا.يا».

تشبث كاو بالحائط بقوة أكبر.

ركض والدها بسرعة صوب الرصيف.

قال صوت قريب من أذن كاو: العنكبوت يزحف بهذه الطريقة.

جفل كاو ونظر إلى الأعلى، فشاهد ميلكي جاثماً على غصن. برم غلام رأسه بسرعة.

قال: هل تحدثت للتو؟!

طرف ميلكي بعينيه، وحدّق كاو في الغشاء الشاحب لعيني الغراب العجوز، وقال: «ميلكي؟».

كرر الغراب الأبيض مجدداً: العنكبوت يزحف بهذه الطريقة. كان صوته مثل حفيف الأوراق اليابسة لدى ملامسة الهواء لها. ونحن لسنا سوى طريدة في شباكه.

قال سكريتش بقرقرة متقطعة: قلت لك، أيها العجوز المجنون.

جفّت حنجرة كاو، وسأله: «ماذا تقصد بكلمة عنكبوت؟».

حدّق ميلكي فيه مجدداً. لا تزال ليديا عند الباب، تراقب.

قال كاو مجدداً: «أي عنكبوت، ميلكي؟».

لكن الغراب الأبيض بقي صامتاً.

ثمة شيء يحصل، شيء كبير. وأياً كان، لن يفوّته كاو.

قال أخيراً: «هيا بنا. سوف نلحق بهذا الرجل».

الفصل الثالث

مشى كاو على أطراف أصابعه فوق حائط الحديقة، وأبقى وتيرته متناغمة مع خطى والد ليديا.

قال غلام: هذا سخيف. سوف تورّطنا في المشاكل مجدداً؛ تماماً مثل الليلة الماضية.

تجاهله كاو. وصل إلى نهاية الحائط، وانعطف الرجل صوب اليمين في اتجاه بوابات السجن. لهنيهة، شعر كاو بالذعر؛ فهو لا يستطيع اللحاق به من دون أن يتم اكتشاف أمره، ثم تذكر أمراً.

قال للغربان: «لاقِني على السطح». ثم انزلق إلى الأسفل وركض عبر الطريق المعتمة والمقفرة. ثمة مبنى مهجور في الطرف البعيد، نصف مهدّم، مع جدار محطم بالكامل، حيث انكشف الداخل للعيان. استطاع كاو رؤية هياكل آلات قديمة في الداخل. أياً كان الهدف من استعمالها، فقد باتت أيام فائدتها ذكرى طيّ النسيان.

مشى كاو فوق الركام وصولاً إلى الطابق الأول، وحرص على عدم إصدار أي صوت. التف حول صناديق ممتلئة بكتب قديمة، ذات أغلفة مهترئة بمعظمها. تسلق طابقين من السلالم في اتجاه كوّة تفتح على سطح من المعدن المموج، ثم زحف صوب الأعلى؛ حيث وصل قبله غلام وسكريتش وميلكي، في الوقت الذي وصل فيه والد ليديا إلى بوابة السجن في الأسفل في الطرف المقابل من الشارع.

ثمة دزينة من رجال ونساء يرتدون بذلات حراسة السجن، وقفوا في مجموعات تحت أضواء المصابيح الوامضة، وبدوا متوترين وإنما متحمسين. وثمة كلاب موثَقَة بأربطة، تشمّ الهواء.

توقفت صفارة الإنذار فجأة، واختفت الترددات في الهواء.

قال والد ليديا: «أين خريطة مجاري الصرف الصحي؟». كان صوته عالياً، حيث وصل إلى كاو بوضوح.

فتح أحد الرجال ورقة كبيرة على صندوق سيارة، فتسارع خفقان قلب كاو. كان محقاً في ظنه أن والد ليديا ليس مجرّد حارس. إنه يأمر الآخرين حوله كما لو أنه مسؤول عن السجن كله!

«حسناً، سوف تكون الشرطة هنا خلال الدقائق الخمس التالية، لكننا لا نستطيع الانتظار. الوقت يمرّ. فليذهب الجميع في مجموعات ثنائية. كلب واحد مع كل ثنائي. فتشوا الشوارع المحيطة بالمكان، وتحققوا من كل أغطية فتحات الدخول. إذا رأيتموهم، اتصلوا بنا. لا تحاولوا اعتقالهم... فأنتم تعرفون مع من نتعامل. وتوخوا الحذر!».

بدأ الحراس بالتفرق، فيما حدّق والد ليديا في الخريطة. وبعد لحظات قليلة، بات بمفرده.

قال غلام، وهو ينفش ريشه: هل يمكننا من فضلك العودة الآن إلى منزلنا. البرد قارس!

صرخ سكريتش: هاي، من هنا!

استدار كاو. كان أصغر الغربان جاثماً في الطرف الآخر من السطح. صدر صوت جلبة خفيفة من الأسفل. ثمة شيء ما يحصل هنا في الأسفل. قال سكريتش.

نظر كاو إلى والد ليديا. كان رأسه مرتفعاً إلى الأعلى، كما لو أنه سمع الكلام أيضاً. طوى الخريطة بسرعة، وبدأ يعبر الشارع بسرعة.

ركض كاو فوق السطح للانضمام إلى سكريتش، وحدّق صوب الممشى في الأسفل.

كان الممشى فارغاً، باستثناء بعض الأوراق المبعثرة وبعض سلال النفايات. ثمة طرف يتشعب إلى متاهة من الممرات الممتدة بين المباني، فيما الطرف الآخر - برأي كاو - يؤدي أخيراً إلى الشارع الرئيس قرب السجن.

مع صدور صوت جلبة آخر، تحرك غطاء الفتحة الموجودة مباشرة تحت كاو. طقطق جانب منها وفتح، ثم ارتفع كل الغطاء وجرى رميه جانباً كما لو أنه لا يزن أي شيء، فتدحرج الغطاء مثل قطعة نقود معدنية، ثم استقر بشكل مسطّح. تراجع كاو إلى الخلف، محدّقاً عبر حاجز السطح. ثمة شيء صغير خرج أيضاً من العتمة في الأرض؛ حشرة، أو ربما عنكبوت. ثم ظهرت يدان؛ يدان كبيرتان وغليظتان. اندفعت قامة كبيرة إلى الخارج. ورأى كاو رأساً أصلع، حيث تمددت قبة من الجلد اللامع فوق الجمجمة. كان الرجل يرتدي قميصاً وسروالاً باللون البرتقالي.

فجأة، بدا الأمر منطقياً. الحرّاس المذعورون. فرق البحث.

همس كاو: «سجين فارّ. إنه الرجل الذي يبحثون عنه!».

قال غلام: لاحظت ذلك.

أرجع الرجل رأسه إلى الخلف، ودبّ الذعر في حنجرة كاو. ثمة خطب في فم الرجل. إنه كبير جداً، كما لو أن وجنتيه مشقوقتان في ابتسامة خفية. بعدها، أدرك كاو أنه وشم؛ ابتسامة دائمة.

تمتم سكريتش: إنه غريب المظهر.

بدأ السجين بتمزيق قميصه، ثم صرخ في الفتحة بصوت خافت: «الطريق مفتوح!». رمى الرجل بعد ذلك قميص السجن الممزق بعيداً

واستدار في مكانه.

عندما رأى كاو الصدر العاري للرجل، شعر أن عظامه قد تحوّلت إلى جليد، وسيطرت عليه موجة جديدة من الذعر، وكانت أكبر من أي شيء آخر شعر به خارج كوابيسه. إنه ذعر صرف، مباشرة من أعماق عقله، غير مكبوت بالمنطق، ويستحيل تجاهله. سيطر الذعر على كل أطراف أصابعه وجعل معدته تضطرب بشدة.

على الصدر الكبير للرجل، ثمة وشم يتحرك مع تحرّك عضلاته؛ كما لو أنه حيّ. ثماني أرجل، تتحرك.

عنكبوت.

وليس أي عنكبوت، فقد كان جسمه على شكل خيط ملتف، مع شكل M شائك داخله.

أمسك كاو بحافة السطح، وبات فمه جافاً مثل الغبار.

إنه العنكبوت الذي رآه في كابوسه.

قربه، نفض ميلكي ريشه.

انحنى السجين صاحب الوشم فوق الفتحة، وأمسك بمعصم نحيل، وسحب جسماً آخر إلى الخارج؛ إنها امرأة شابة. امتلكت شعراً أسود انسدل حتى خصرها، وجذب ضوء الشارع مثل جناح غراب أسود. فيما انتصبت للوقوف، بدت أطول من الرجل. كان كمّا بذلة السجن الخاصة بها متسخين بسبب الماء القذر في مجرى الصرف الصحي، وبدأت تطوي الكمين بعناية إلى الأعلى. كانت ذراعاها رشيقتين ومليئتين بالعضلات؛ كما لو أنها تستطيع لفهما حول عنق شخص ما وسحب روحه منه.

ثم خرج شخص ثالث. ارتمى في الممشى ووقف على قدميه، ونفض ملابسه. كان طوله أقل من نصف طول الآخرين،

وظهره محدّباً إلى الأمام. بدا عجوزاً، لكنه تحرك مثل رجل شاب، حيث تحركت قدماه في هذا الاتجاه وذاك، وفتشت عيناه في كل الاتجاهات.

قال الرجل القصير: «وأخيراً، روائح المدينة! كم اشتقت إلى رائحة العفن اللذيذة».

طقطق الرجل الكبير براجم أصابعه وقال: «حان وقت العودة إلى العمل».

أضافت المرأة بصوت خافت: «لا يجدر بنا التأخر. لن يمرّ وقت طويل قبل أن يكتشفوا إلى أين يؤدي هذا النفق». كان صوتها هادئاً وناعماً.

«تجمدوا في مكانكم».

استدار السجناء الثلاثة صوب الطرف الآخر من الممشى. كان ثمة رجل يقف هناك ممسكاً بمسدس لمعت أسطوانته.

قال غلام: يا سلام.

إنه الرجل الذي كان في المنزل. لكن السجناء لم يبدوا خائفين. وعوضاً عن ذلك، تقدم الرجل الكبير إلى الأمام وقال: «آمر السجن ستريكهام. يا لها من مفاجأة جميلة!».

قال غلام: يجدر بنا الذهاب. لا علاقة لنا بهذا. إنها...

همس كاو: «أمور بشرية؟ أعرف. لكن، في حال لم تلاحظ، أنا من البشر يا غلام».

إلا أنه لم يقل السبب الحقيقي لرغبته في البقاء. لم يشأ الإفصاح عنه بصوت عالٍ، لكنه أراد معرفة حقيقة ذلك الوشم. عليه أن يعرف معناه.

قال السيد ستريكهام: «سوف تعودون فوراً إلى السجن، جاوبون».

ابتسم الرجل الكبير، جاوبون، ابتسامة حقيقية عريضة بدّلت تعابير وجهه، وجعلته يبدو مخيفاً أكثر فأكثر، مثل كلب جائع. «ما رأيكما أيها الصديقان؟ هل يجدر بنا الزحف مجدداً إلى الزنزانة؟».

ضحك الرجل القصير ضحكة ساخرة، فيما مرّرت المرأة لسانها فوق شفتيها وقالت: «أقول إننا سنرفض عرضه اللطيف. يبدو خائفاً قليلاً بالنسبة إليّ».

وضع السيد ستريكهام يده الأخرى على مقبض مسدسه لتثبيته، وقال: «لا أظن ذلك. أنا من يحمل الرصاصات. وثمة فرقة من رجال الشرطة في طريقها إلى هنا». ونظر بسرعة خلفه.

فجأة، شعر كاو بالتوتر.

قال جاوبون: «اتركا الأمر لي. سوف ألحق بكما بعدما أنتهي منه».

أومأ الآخران برأسيهما واختفيا في الممشى. مشى الرجل القصير متثاقلاً، فيما صديقته طويلة القامة انزلقت تقريباً.

صرخ آمر السجن: «هاي! حركة واحدة إضافية وسأطلق النار!».

لمع ضوء وامض، وصدر صوت مدوٍّ فيما انطلقت الرصاصة من مسدس السيد ستريكهام. كانت طلقة إنذار، لكن السجينين تجاهلاها. اختارت المرأة مفترق طريق، فيما اختار الرجل القصير المفترق الآخر. وبعد لحظة، اختفيا كلاهما.

قال جاوبون وهو يتحرك ببطء صوب السيد ستريكهام: «بقينا وحدنا الآن».

قال كاو: «لا أحب هذا. يجدر بنا مساعدته».

وبلمح البصر، اندفع جاوبون بقوة إلى الأمام، وأمسكت يده الكبيرة الشبيهة بالرفش بالمسدس، وأرغمت يد آمر السجن على إفلاته. ثبّت السيد ستريكهام ذراعه مع صرخة ألم، متراجعاً إلى الخلف؟

رمى جاوبون المسدس خلفه وقال: «لم أحب المسدسات يوماً. إنها تقتل بسرعة». ثم تمدد وأمسك بعنق السيد ستريكهام، ورفعه بيد واحدة في الهواء. تحركت ساقا آمر السجن بضعف، فيما تحوّل وجهه إلى اللون الأحمر، ومن ثم الأرجواني.

طغى الذعر على كاو. المسافة بعيدة جداً إلى الأسفل من حيث يقف على السطح. ظنّ أنه يستطيع الوصول بالقفز بضع مرات. لكن، ماذا بعد ذلك؟ فكر قليلاً، ثم أرجح ساقاً فوق حافة السطح.

صرخ صوت جديد: «اتركه وشأنه!».

في نهاية الممشى، خرج شكل صغير من العتمة، فحبس كاو أنفاسه. إنها ليديا؛ الفتاة من المنزل! كانت لا تزال ترتدي البيجاما ورداء النوم، ورباط حذائها يزحف خلفها. كيف لم ينتبه كاو إلى أنها تلحق به؟

جفل والدها في قبضة جاوبون المميتة، وبدا وجهه ملتوياً بشدة من الألم. ابتسم جاوبون ابتسامة عريضة، ثم رماه جانباً مثل دمية قماشية، فارتطم السيد ستريكهام بسلة نفايات وانهار على الأرض.

قال بصوت منخفض متألم، وهو يحاول النهوض على ركبة واحدة: «ليديا؟ أوه يا إلهي، لا».

وجّه جاوبون ركلة إلى معدة السيد ستريكهام، فانهار هذا الأخير مع صرخة ألم.

«بابا». صرخت ليديا وهي تسرع صوبه. أمسك جاوبون بها،

وحملها من شعرها، وبرمها لمواجهته. فبدا الألم واضحاً على وجهها.

صرخت: «دعني وشأني». وخدشته في ذراعه.

همس كاو للغربان: «الآن، انقضّي عليه!».

برم جسمه حيث أصبح مواجهاً للحائط، ثم أفلت قبضته وقفز مرتطماً بالأرض بشدة. وقع وتدحرج إلى الخلف، ورأى أن سكريتش وغلام قد باشرا الهجوم على رأس جاوبون. نعق الغرابان كاو كاو كاو!

أفلت جاوبون ليديا، وضرب الغرابين بقوة بذراعيه القويتين.

صرخ عالياً: «ابتعدا عني!».

حرّك السجين يديه في الهواء، فيما انقض الغرابان على وجهه بمخالبهما. إلا أن ضربة منه أصابت سكريتش ودفعته للارتطام بحائط، فانزلق على الأرض، لكنه سرعان ما حلّق بعيداً حين حاولت رجل جاوبون سحقه. أطلق غلام صيحة، وأدخل منقاره في عيني السجين. عندها، فقد جاوبون توازنه، وانتفض وشم العنكبوت على صدره فيما حاول صدّ الهجوم. أما سكريتش فعاد بشجاعة للمشاركة في الهجوم.

أسرع كاو إلى جانب السيد ستريكهام، وساعده مع ليديا على الوقوف. في الوقت نفسه، أدرك كاو أن الفتاة تحدق به، وهي تفتح فمها بدهشة.

قطّب السيد ستريكهام وجهه بارتباك، وراقب الغرابين اللذين كانا يحومان حول جاوبون مثل سحابة من الريش. كان العملاق يتلوّى مثل رجل يحارب ظله.

قال كاو، وهو يبعد السيد ستريكهام: «هيا، اركض!».

لكن السيد ستريكهام مشى في الاتجاه المعاكس، ولاحظ كاو أنه يتوجه صوب المسدس الموجود على الأرض.

قالت ليديا، وهي تركض خلفه: «بابا اتركه!». لكن الوقت قد فات. فقد وصل السيد ستريكهام إلى المسدس، واخترق الصوت أذنيه، فيما أغمض كاو عينيه لمواجهة الألم الكبير. وعندما فتحهما مجدداً، كان السيد ستريكهام يوبخه بعنف، لكن كاو لم يستطع سماع الكلمات. استدار ولاحظ أن جاوبون قد اختفى؛ تماماً مثل غربانه.

شيئاً فشيئاً، تسلل الصوت تدريجياً إلى أذنيه.

كانت ليديا تقول: «... أنقذنا يا بابا».

قال السيد ستريكهام: «لقد ساعده على الفرار!».

وضعت ليديا يدها على ذراعه قائلة: «أراد ذلك الرجل قتلك!».

قرقر الجهاز اللاسلكي على حزام السيد ستريكهام، وصدرت منه أصوات مذعورة: «سيدي، أين أنت؟ تم إطلاق النار!... حضرة آمر السجن السيد ستريكهام؟».

رفع السيد ستريكهام الجهاز اللاسلكي عن وركه وأجاب: «أنا في الممشى بين ريكتور والممشى الرابع. لقد أضعتهم».

ارتخت الخطوط القاسية في وجه السيد ستريكهام، ونظر إلى كاو، وحرّك منخريه كما لو أنه شمّ رائحة بشعة. كانت ليديا تنظر إليه أيضاً، وشعر كاو أن وجهه أصبح أحمر ساخناً. سأله السيد ستريكهام: «من أنت؟».

لم يعرف كاو ماذا يقول. إذا كانت الشرطة في طريقها إلى هنا، فعليه المغادرة فوراً وإلا فسيرسلونه إلى ميتم. بحثت عيناه عن الغربان في مستوى السطح.

قال آمر السجن: «تلك الطيور، ما كان ذلك؟».

تراجع كاو إلى الخلف، وجعل قدميه تأخذانه صوب الطرف الآخر من الممشى. شعر أنه علق في فخ. كانت الغربان على حق؛ لم

يكن يجدر به التدخل أبداً.

قال السيد ستريكهام: «هاي، لن تذهب إلى أي مكان. أحتاج إلى تصريح منك».

استدار كاو وركض، والتقطت أذناه أصوات كلاب تنبح مجدداً في مكان غير بعيد. سمع قرقرة أخرى من جهاز لاسلكي. عليه العودة إلى العش.

قال السيد ستريكهام: «عد إلى هنا!».

صرخت الفتاة خلفه: «على الأقل، قل لنا اسمك».

وصل كاو إلى الشارع، ورأى رجال شرطة يركضون صوبه.

صرخ سكريتش: هنا في الأعلى!

ألقى كاو نظرة إلى الأعلى، ورأى الغربان الثلاثة جاثمة على سياج حديدي يبعد عشرين متراً، حيث يصل الشارع إلى نهاية مسدودة. بدت إحدى رجلي سكريتش معقوفة، كما لو أنها مكسورة.

قال كاو لنفسه: إنه مصاب. إنه مصاب بسببي.

ثمة رقعة أرض فارغة في الخلف؛ محطة سكة الحديد القديمة. ركض كاو في اتجاه السور.

سطعت أقواس من أضواء المصابيح اليدوية على جسمه، وصرخت له أصوات عدّة طالبة منه التوقف.

قفز على السياج الحديدي، وأرجح ساقيه فوق القسم العلوي، ثم هبط في الجانب الآخر. وعندما نظر خلفه، رأى دزينة من رجال الشرطة القادمين صوبه، مع ثلاثة كلاب أو أربعة. كانت هناك أيضاً ليديا مع والدها.

تسلل كاو خارج طوق الحصار، وبات بعيداً عن أنظارهم.

صرخ آمر السجن: «أمسكوا به!».

قال كاو لنفسه: مستحيل. ركض بسرعة، ولم يتوقف إلا بعدما ضاعف سرعته للوصول إلى الحديقة العامة مجدداً. نظر إلى طرفي الشارع، وتأكد من أن أحداً لا يراقبه، ثم تسلّق الحائط. وفيما تسلّق بعجلة فوق البوابة الحديدية، انفلت رباط حذائه وسقط على الأرض. لا وقت للعودة إليه. قفز إلى الجانب الآخر.

أخيراً، بدأ دمه المغلي يبرد قليلاً. إنه بأمان هنا في الظلال؛ في المنزل.

مشى ببطء إلى شجرته، وهو يعرج قليلاً على قدم حافية.

قال غلام بسخرية، وقد أصبح في العش، فيما تسلق كاو بصعوبة: حسناً، كان ذلك ممتعاً!

قال سكريتش: هل رأيت؟ كيف نلت منه؟ وقفز صعوداً ونزولاً مقلّداً حركاته. نقرة! خدش! مخلب!

رمى كاو نفسه على سريره، واستلقى على ظهره، تاركاً العرق يبرد على جسمه. فجأة، شعر بتعب كبير.

قال سكريتش: كنت شجاعاً جداً، صحيح؟

قال كاو: «كلاكما كنتما رائعين».

كان ميلكي جاثماً على جانب العش، وبدا غير متأثر البتة. فهو لم ينضم إلى المعركة، وحدّقت عيناه العمياوان في اتجاه كاو.

سأل كاو: «ما الذي يجري يا ميلكي؟ من كان أولئك السجناء؟».

بقي الغراب الأبيض العجوز صامتاً وساكناً مثل تمثال رخامي.

قال غلام: أعتقد أنه انتهى من الكلام.

قال كاو: «العنكبوت، لقد حلمت به، ثم رأيته في الحياة الحقيقية على صدر ذلك السجين. أنت تعرف معناه، أليس كذلك؟».

أحنى ميلكي رأسه، وبرم بعيداً.

الفصل الرابع

استيقظ كاو على صوت الغربان وهي تنعق معاً دفعة واحدة. وكان العش يهتزّ برفق.

قال: «ما الذي يجري؟».

صرخ سكريتش وهو يخفق بجناحيه بجنون: اهرب! ثمة متطفل!

تدفق الأدرينالين في دم كاو، وجلس منتصباً باحثاً عن سلاح. نجح في العثور على ملعقة بلاستيكية محنية، في اللحظة التي رأى فيها رأساً يظهر عبر الكوّة.

«واو!». قالت ليديا وهي تضع يديها على الألواح الخشبية في العش. «هذا المكان مذهل! إنه أكبر بكثير مما يبدو في الأسفل».

حشر كاو نفسه في زاوية، حاملاً الملعقة أمامه مثل سكين. كانت تعتمر قبعة بايسبول، وجعلت شعرها الأحمر ينسدل بشكل مستقيم، ثم يلتف تحت ذقنها. في ضوء النهار، أدرك أنها تملك مجموعة من النمش لم يرها في الليلة الفائتة. لمعت عيناها.

قالت: «هاي، لا توجّه هذا الشيء صوبي!».

سألها كاو: «كيف وجدتني؟ لا أحد يعرف بشأن هذا المكان!».

ابتسمت ليديا ابتسامة فخر عريضة وقالت: «أنا جيدة في اكتشاف الأمور. رأيتك تتسلل صوب منزلنا قبلاً، وتراقبنا من الجدار المحاذي لمنزلنا. لذا، تصوّرت أنك تعيش هنا في الجوار. وفيما كنت أتنزه مع

بنجي هذا الصباح، وجدت هذا قرب بوابة الحديقة العامة».

أفلتت ليديا حذاء كاو على أرض العش.

«تصوّرت أن الحديقة العامة هي المكان المثالي إذا لم تكن تريد أن يعثر عليك أحد. لذا، قفزت فوق البوابة، وبحثت إلى أن وجدت هذا الشيء المضحك في شجرة. ليس سيئاً، أليس كذلك؟».

فجأة، شعر كاو أنه سخيف. لكنه كان محرجاً جداً لإنزال الملعقة.

قال: «ماذا تفعلين هنا؟».

ابتسمت ليديا وأجابته: «أستطيع طرح السؤال نفسه عليك. ألا تملك منزلاً؟ ألا تملك أهلاً؟».

هزّ كاو كتفه وقال: «أعيش هنا. وحدي».

قالت: «رائع! هل ستدعوني للدخول؟».

ألقى كاو نظرة على غلام، فقال الغراب: لا تفكر حتى في الموضوع. ونفش ريشه.

قال كاو: «لا».

قالت: «أوه، هيا! هل أتوسل إليك؟».

قال سكريتش: ارمها خارجاً. واندفع الغراب الصغير إلى الأمام بطريقة مهددة، ثم تراجع إلى الخلف مجدداً.

قال كاو: «لا! اتركيني بمفردي».

بدا الحزن على وجه الفتاة، وقالت: «حسناً، حسناً. اهدأ. أعطني فقط ثانية لألتقط أنفاسي، اتفقنا؟ ثم سأذهب».

وفيما أقحمت خصلة من شعرها تحت قبعتها، وأبقت رأسها وكتفيها مندفعة صوب العش، تبدد خوف كاو. إنها مجرد فتاة. أي أذى يمكن أن تلحقه به؟

نفخت ليديا وجنتيها وقالت: «حسناً، إذاً سوف أذهب».

قال كاو: «انتظري!». نظر بسرعة إلى الغرابين، ثم تنهد وتمتم قائلاً: «يمكنك الدخول قليلاً».

قال الغرابان معاً: لا! وأخفض كاو الملعقة.

قالت وهي تبتسم: «نعم، كان بوسعك إيذائي فعلاً بواسطة هذه».

رغماً عنه، ابتسم كاو.

رفعت الفتاة نفسها إلى العش، وجلست على الأرضية وهي تشبك ساقيها. كانت ترتدي سروال جينز وبلوزة شاحبة بقلنسوة، وكانت متسخة بالأوراق والقذارة. خلعت قبعتها وحررت شعرها، وراقبت سكريتش وغلام بذهول. عرف كاو أن ميلكي خارج العش؛ فهو لا ينام أبداً في العش.

قالت: «هل هذان الطيران حيواناك؟».

قال غلام: لست حيواناً!

احتج سكريتش قائلاً: وأنا لست مجرد طير. أنا غراب.

قال كاو: «نوعاً ما».

قال غلام وسكريتش معاً: نوعاً ما؟! جفلت ليديا قليلاً، وأدرك كاو أن هذا يبدو بالنسبة إليها مجرد صيحتين غاضبتين.

قال: «إنهما يعيشان معي».

«هل تدرّبهما؟».

قهقه سكريتش. هههههه.

سألت ليديا: «لماذا تختبئ في هذه الحديقة طوال الوقت؟».

شعر كاو بالقليل من الانزعاج، وقال: «أنا لا أختبئ».

«حسناً. إذاً، لماذا تتجسس دوماً عليّ؟».

لم يستطع كاو تحمّل نظراتها. «لم أكن أتجسس».

قالت، وإنما مع ابتسامة: «كاذب. ظننتك سارقاً في البداية، لكني فكرت بعد ذلك؛ ما من أحد غبي كفاية ليسرق منزل آمر سجن بلاكستون. في أية حال، أسامحك. بالمناسبة، اسمي ليديا». مدّت يدها.

نظر كاو إليها.

انحنت إلى الأمام وأمسكت يده، ووضعتها في يدها، ثم صافحتها صعوداً ونزولاً. «وأنت؟».

قال كاو: «أنا... كاو».

ابتسمت ليديا ابتسامة عريضة. «ما هذا الاسم؟».

هزّ كاو كتفه. «هذا هو اسمي».

نظرت ليديا إلى العش. «حسناً، إذا كان هذا ما تقوله. هل شيّدت هذا المكان بنفسك؟».

أومأ كاو برأسه وقد أحس بالفخر.

قال سكريتش: مع بعض المساعدة!

نظرت ليديا إلى الأعلى، وتأملت الغرابين جيداً.

أضاف كاو: «مع بعض المساعدة».

«هل تتحدث إلى الطيور؟».

قال غلام: غربان من فضلك.

قال كاو: «حسناً...». كاد يكذب، ثم فكر في الأمر. «نعم، وهما غرابان».

قالت ليديا: «حسناً، هذا غريب فعلاً».

همهمس غلام في وجهها.

قالت بتوتر: «آسفة».

أجاب كاو: «لا تقلقي. إنه دوماً في مزاج سيئ».

قال غلام: تراجع عن كلامك!

أحنت ليديا رأسها وقالت: «أردت فقط أن آتي وأشكرك. ركضت بسرعة كبيرة في الليلة الماضية».

هزّ كاو كتفه وقال: «صودف... فقط أني كنت هناك. ليست مسألة مهمة».

قالت ليديا: «أعتقد أنه يجدر بي شكر غرابيْك أيضاً. كانا شجاعين جداً». واستدارت صوبهما. «عذراً، كنتما شجاعين جداً».

نفض غلام ريشه وقال: لن يوصلك الإطراء إلى أي مكان يا صغيرتي.

قال كاو: «يقول إن الأمر لم يكن مهماً». فجأة، قرقرت معدته بصوت عالٍ. لم يأكل أي شيء بعد رقاقات البطاطا المقلية من مطعم الوجبات السريعة.

لمعت عينا ليديا، وسألته وهي تنزع حقيبة الظهر عن ظهرها: «هل أنت جائع؟».

اعترف كاو: «قليلاً».

فتشت داخل حقيبتها وأخرجت لوح شوكولا مغلفاً بورقة زرقاء. قالت وهي تعطيه لوح الشوكولا عبر العش: «إليك هذا».

أخذه كاو منها كما لو أنه شيء نفيس، ونزع الورقة عنه بعناية. فهو لا يذكر متى تناول الشوكولا آخر مرة.

قال غلام: كن حذراً، فقد يكون مسمماً.

برم كاو عينيه، ثم قضم قضمة كبيرة. انغرزت أسنانه في لوح الشوكولا السميك، وذابت الشوكولا فوق لسانه. اختفى لوح الشوكولا خلال ثوانٍ قليلة، وغلّفت حلاوته الجهة الداخلية لفمه.

قالت ليديا وهي لا تزال تبتسم ابتسامة عريضة: «هل أنت جائع

قليلاً؟ خذ». أعطته تفاحة. حاول كاو تناولها ببطء أكبر؛ وفق قضمات منهجية. انفجر لبّ الفاكهة عصارة داخل فمه، وسال فوق ذقنه.

قال سكريتش: احتفظ لنا بالقليل!

رمى كاو قلب التفاحة للغرابين اللذين انقضّا عليها بمنقاريهما. لم يفكر في ترك أي شيء لميلكي. إذ نادراً ما يأكل الغراب الأبيض الطعام.

قالت ليديا وهي تشير إلى رجل سكريتش المعقوفة: «يبدو الغاضب مصاباً».

قال سكريتش: من تقصد بالغاضب؟

قالت ليديا بصوت لطيف: «تعال إلى هنا أيها الغراب الصغير. دعني ألقي نظرة».

قال سكريتش، وهو يرفع منقاره بكبرياء: يستحسن ألا تتحدث معي. أنا لست صغيراً.

ضحك غلام ضحكة عالية.

قال كاو: «إنه متوتر قليلاً».

انحنت ليديا صوب سكريتش، وقالت: «أستطيع إعداد جبيرة. لديك الكثير من الأشياء هنا التي أستطيع استخدامها. وأنا جيدة مع الحيوانات».

قفز سكريتش بعيداً عنها.

قال كاو: «دعها تجرّب. فقد تستطيع المساعدة».

قالت ليديا: «أملك تفاحة أخرى». وأخرجتها وأعطته إيّاها: «خذ».

تناول كاو التفاحة ببطء أكبر هذه المرة، وراقب ليديا فيما أعدّت جبيرة من غصنين وخيط. مدد سكريتش رجله بحذر شديد، فيما ثبّتت

ليديا الجبيرة في مكانها. لاحظ كاو أن ميلكي دخل العش عبر الفتحة الصغيرة في القماش المشمّع في الطرف البعيد. لا يعتقد كاو أن ليديا تعرف بوجوده هنا. لكن، بدا أن الغراب الأعمى كان يراقبهما بعينين غير مبصرتين.

قالت وهي تصفق بيديها: «ها قد أنهينا. ليست مكسورة، لكن عليك إبقاؤها مرتاحة».

نظر سكريتش إلى الجبيرة وقال: ليست سيئة جداً!

قال كاو: «إنه يقول «شكراً»». كاد أن يبتسم مجدداً، لكنه تمالك نفسه. ماذا يفعل بالتخلي عن حذره والترحيب بهذه الفتاة في مكانه الأكثر سرية؟ ماذا لو أخبرت عائلتها عنه؟ ماذا لو أخبرت الجميع؟ تنحنح قليلاً، ثم قال:

«اسمعي، شكراً على الطعام، لكن...».

قالت، وهي تفتش في العش: «هل هذه كتب؟». في الزاوية، تحت كنزة كاو الممزقة، توجد أحدث كدسة له من الكتب.

قال كاو: «نعم، لكن...».

أخذت ليديا واحداً، وقالت وهي تبتسم ابتسامة عريضة: «إنها كتب مصوّرة!».

أراد كاو منها أن تذهب الآن فعلاً، لكنه لم يستطع إيجاد الكلمات المناسبة.

قالت: «لماذا تقرأ الكتب المصوّرة. إنها للأولاد الصغار».

أحسّ كاو أن التورد يزداد في خدّيه.

استدارت ليديا للاعتذار: «انتظر - أنا آسفة. هل تعلّمت القراءة يوماً؟».

أخفض كاو نظره، ونجح في هزّ رأسه قليلاً.

قالت ليديا: «هاي، هذه الكتب من المكتبة. هل... سرقتها؟».

قال كاو وهو ينظر إلى الأعلى بغضب: «لا. لقد استعرتها».

قالت ليديا وهي ترفع حاجبها: «هل تملك بطاقة مكتبة؟».

أجاب كاو: «ليس تماماً. ثمة امرأة - موظفة مكتبة - تتركها لي في الخارج».

وضعت ليديا الكتاب جانباً وقالت: «أستطيع تعليمك القراءة».

لم يعرف كاو ماذا يقول. لماذا هي لطيفة جداً معه؟

أضافت بغرابة: «أقصد، إذا أردت. نستطيع ربما الذهاب معاً إلى المكتبة، وانتقاء شيء يساعدك على القراءة».

كان كاو على وشك الإجابة عندما أطلق ميلكي صيحة خفيفة. نظر الجميع إلى الغراب الأبيض.

قالت ليديا وهي تشعر بعدم ارتياح: «أوه، لم أره هناك. لماذا ريشه هكذا؟».

قال كاو مثبتاً عينيه على ميلكي: «لطالما كان هكذا. اسمعي، شكراً على النصيحة بشأن المكتبة، لكن...».

صاح ميلكي مجدداً.

قالت ليديا مع ابتسامة عريضة: «يبدو وكأنه يريدك أن تأتي معي». أنزلت شفتها السفلية. «لكني لا أجيد لغة الطيور».

همهم غلام.

قالت ليديا: «هذا الغراب سريع الغضب، أليس كذلك؟».

كان كاو يراقب ميلكي. لماذا يحدث الغراب الأبيض مثل هذه الجلبة؟

طرفت عينا ميلكي. هل يريد فعلاً أن يذهب كاو مع هذه الفتاة الغريبة؟ كلمات ميلكي بشأن العنكبوت هي التي أقنعت كاو باللحاق

بوالـد ليديا فـي الليلـة الماضية. ولو لـم يفعل، لمـا رأى الوشـم أبداً؛ الوشم المتطابق مع الخاتم في كابوسه.

ألحـت ليديـا: «هيـا، أي أذى يمكـن أن يلحقه بك الذهـاب إلى المكتبة؟».

طبعاً! إذا كان هناك شخص ما يسـتطيع أن يساعده في فهم معنى رمز العنكبوت، فهو موظفة المكتبة. فهي تملك الكثير من الكتب.

قالت ليديا: «إذاً، ما رأيك؟».

قال غلام: فكرة سيئة.

قال سكريتش: أعتقد أنها لطيفة، ورفع رجله إلى الأعلى.

نظر كاو إليهما، ومن ثم إلى ليديا. لم يملك أبداً صديقاً من قبل. وقـد واجهت الكثير من المشـاكل للعثـور عليه. تحـدث ميلكي للمرة الأولى طوال الأعوام الثمانية التي عرفه فيها كاو. وكان هذا دليلاً جيداً ربما.

قالـت ليديـا: «قبـل أن تقـول لا، إنهـا طريقتـي لأشـكرك علـى إنقاذنا».

راقـب كاو وجههـا عـن كثـب، كمـا لـو أن قسـماتها قـد تفضح أفكارها. التقاهـا مرتين فقـط، فهل هو مسـتعد فعلاً للوثـوق في كائن بشري بعدما تفاداهم لوقت طويل؟

ليس الآن ربما. لكن إذا بقي حذراً، وكانت الغربان معه...

قال: «حسناً. هذه المرة فقط».

الفصل الخامس

يشعر كاو دوماً بالتوتر حين يخرج في النهار. ففي الليل، عندما يجوب المدينة بحثاً عن الطعام والموارد، تحميه العتمة من الأعين المتطفلة. ويتيح له ذلك التحرك بحرية أكبر عبر الشوارع وفوق الأسطح. لكن على الأرض، وتحت وهج ضوء الشمس، يشعر أنه مكشوف. ازدحمت السيارات في الشوارع، وملأ مئات الناس الأرصفة والمتاجر. أخبر نفسه أن الناس لا ينظرون إليه، لكن هذا لم ينفع أبداً.

لكن هذه المرة، ومع ليديا إلى جانبه، شعر أنه طبيعي تقريباً. لا شك في أنه أبقى عينيه على السماء للتحقق من وجود سكريتش وغلام معهما. بقي ميلكي في العش بمفرده.

بلاكستون كبيرة، وشوارعها منظمة على شكل شبكة. لم يستطع كاو قراءة الأسماء على اللافتات، لكنه عدّ المباني. بهذه الطريقة، يعرف دوماً كيف يجد الطريق المؤدي إلى الحديقة العامة. وفيما غاصا أكثر فأكثر في المدينة، ازدحمت المباني على كلا الجانبين، وكانت شاهقة جداً؛ حيث بدت السماء مجرد خيط رمادي فوقها. قال لنفسه إن الناس الذين يعيشون في الأعلى يشعرون على الأرجح أنهم في عش أيضاً.

امتدت خطوط حديدية مفردة فوق الشوارع على شكل جسور،

أو غاصت في أنفاق مدفونة تحت الأرض. كانت المحطات موزعة في المدينة، تفرغ الركاب من أحشاء الأرض. لم يغامر كاو أبداً بالنزول تحت الشوارع. ففكرة أن يعلق هناك كانت ترعبه كثيراً.

كانت ليديا تقول: «والدي متوتر جداً. يقول إن وظيفته قد تكون على المحكّ. كان أولئك السجناء تحت حراسة مشددة، لكنهم نجحوا في الهروب عبر أرض أحد الحمامات».

ترك كاو ليديا تتكلم طوال الطريق. إنها جيدة في الكلام. عرف أنها طفلة وحيدة، وأن كلبها بنجي يخاف من القطة، وأن مادتها المفضلة في المدرسة هي الرياضيات. كان يصغي، لكن أينما ذهب بحثت عيناه عن مهرب - ويستحسن أن يكون صوب الأعلى - مجاري صرف صحي، منافذ حريق، حواف نوافذ مع مساحة كافية ليلف أصابعه حولها. تساءل متى سيجد الوقت المناسب ليخبر ليديا أنه لم يدخل المكتبة يوماً من قبل.

أصبحا قريبين منها الآن، وهي عبارة عن مبنى عملاق قديم الطراز مع فناء أمامي عشبي، تقطعه مسارات ومنحوتات معدنية غريبة. أول مرة ذهب فيها إلى هناك كانت قبل أكثر من عام. عند غروب الشمس، هبّت عاصفة قوية على بلاكستون، واحتمى من المطر تحت الأعمدة الأنبوبية الكبيرة المحيطة بالجهة الأمامية للمكتبة. لم يعرف ماذا يوجد في الداخل، لكن الأضواء المنبعثة من النافذة أغرته بالنظر عن كثب. وفيما ضغط بأنفه على الزجاج وشاهد تلك الرفوف العملاقة المليئة بآلاف الكتب، شعر بافتتان كبير. ذكّرته تلك الكتب بالماضي؛ حين كان ولداً صغيراً في غرفة نومه في الليالي التي كانت أمه تختار له فيها كتاباً مصوراً عن الرف وتقرأه له إلى أن ينام.

فاجأته امرأة في خريف العمر، حيث ظهرت من الباب الرئيس،

وسألته إذا كان يودّ الدخول. كانت أقصر منه قليلاً، مع بشرة سوداء وشعر أسود مجعد كثيراً تحول لونه إلى الرمادي في بعض الأنحاء. كانت تلك هي المرة الأولى التي يتحدث فيها كائن بشري معه منذ أشهر. ولو لم يكن المطر يتساقط بغزارة، لركض حتماً. وهكذا، تجمد في مكانه. ابتسمت له المرأة، وأخبرته أن اسمها الآنسة والاس، وأنها المسؤولة عن المكتبة. وسألته إذا كان يحب الكتب. لم يقل كاو أي شيء، لكن المرأة رأت على الأرجح تعابير التوق على وجهه.

قالت: «انتظر هنا!».

ورغم كل غرائزه ونصيحة الغربان، انتظر.

عندما ظهرت السيدة مجدداً، كانت تحمل كومة من الكتب الملونة، وكوباً كرتونياً ساخناً. قالت: «يبدو أنك تشعر بالبرد».

ارتشفه كاو بحذر؛ شوكولا ساخنة. أغمض عينيه مستمتعاً بالنكهة. كانت غنية وقشدية، وأشبعته بطريقة لم تفعلها يوماً مياه الأمطار. جعلته يختار الكتب التي يحبها؛ تلك التي تشتمل على أقل عدد من الكلمات. حزرت ربما أنه لا يستطيع القراءة، لكنها لم تقل ذلك.

قالت: «أحضرها الأسبوع المقبل في الوقت نفسه. اتركها قرب درج منفذ الحريق في الجهة الخلفية من المبنى إذا كنت تفضل عدم الدخول».

أومأ كاو برأسه، وحاول القول «شكراً»، لكنه كان متوتراً جداً حيث انتهى الأمر به وهو يتمتمها عوضاً عن ذلك.

في الأسبوع التالي، عندما أعاد الكتب، وجد كومة أخرى في انتظاره مع كوب آخر من الشوكولا الساخنة. وحصل الشيء نفسه في الأسبوع التالي، والأسبوع الذي بعده. بين الحين والآخر، كانت

الآنسة والاس تخرج لتلقي التحية. اقترحت مرة واحدة فقط أن تتصل بشخص ما «لمساعدته»، لكن كاو هزّ رأسه بعنف، حيث لم تكرر العرض مجدداً.

«ماذا حدث لأهلك كاو؟».

أعاده سؤال ليديا إلى الحاضر.

أضافت: «لا أقصد التطفل. لكن معظم الأولاد الذين لا يملكون أهلاً يذهبون إلى ميتم».

قال كاو بحذر: «لا أعرف. لا أذكر».

لا يستطيع إخبارها عن أحلامه، فسوف تضحك عليه.

«لكن...».

توقفت. أحست ربما أنه لا يريد التحدث في الموضوع.

توقفا لاجتياز الطريق.

أطلق غلام صوتاً عالياً، وهبط صوب الأسفل، وحطّ على ضوء إشارة المرور، وقال: مزعجة هذه الفتاة!

برزت المكتبة أمامهما. بدت أكثر قدماً من معظم المباني في بلاكستون. توجهت ليديا بخطوات سريعة صوب الأبواب المزدوجة العملاقة، لكن كاو توقف. فبعد أن وصل إلى هنا الآن، لم يعد واثقاً جداً. هل يستطيع الدخول هكذا عبر المدخل؟

سألته ليديا: «ماذا تنتظر؟».

قال غلام، وهو يستقر على الدرج: سنبقى في الخارج. توخَّ الحذر.

عرف كاو أنه يبدو أحمق، ولذلك وطّد عزيمته وصعد الدرج. ابتعدت بضع حمامات عن طريقه، وتذكر كاو فجأة الرجل المشرد قبل يومين، خارج مطعم الوجبات السريعة.

ربما كان مجنوناً، مثلما قال سكريتش.

في أعلى الدرج، شعر كاو بوخز غريب في الجهة الخلفية لعنقه. شعر أنه مراقب، لكنه عندما استدار لم يجد أحداً. فقط العشب الذي تحرّكه الرياح في الفناء الأمامي، وبعض المقاعد الفارغة. لحق بليديا عبر الباب.

الجو دافئ في الداخل، وتصبب العرق من جبينه فوراً. جعله الصمت يدرك فجأة صوت تنفسه الخاص، وتأمّلت عيناه القاعة الكبيرة. في الطرف البعيد، ثمة صفوف من رفوف كبيرة تحمل آلاف الكتب، وفي الأعلى امتدت شرفة مع المزيد من الرفوف. في الجهة الأمامية، هناك بضعة مقاعد، حيث يجلس الناس للقراءة والكتابة بهدوء. وإلى اليسار، قرب المدخل، ثمة طاولة منحنية مع جهاز كمبيوتر والكثير من كومات الورق، وخلفه تجلس مسؤولة المكتبة. كانت منحنية فوق دفتر صغير، فيما نظارتها متكئة على أسفل أنفها، وعندما نظرت إلى الأعلى ورأت كاو، رسم وجهها ابتسامة عريضة.

قالت: «حسناً، مرحباً بك». انتقلت عيناها إلى ليديا، وارتفع حاجباها. «وأرى أنك أحضرت معك صديقة».

أومأ كاو برأسه.

قالت ليديا: «أنا ليديا ستريكهام. سررت بلقائك».

قالت مسؤولة المكتبة: «يمكنك مناداتي الآنسة والاس. والآن، كيف أستطيع مساعدتكما؟».

وضع كاو كتبه على المكتب، وتمتم وقد تورّدت وجنتاه بشدة: «أنا... هل يمكنك...». شعر برغبة شديدة في الركض صوب الباب والخروج إلى الهواء البارد. قال أخيراً: «أريد إيجاد كتاب».

صفقت الآنسة والاس بيديها مسرورة، وقالت: «حسناً، لقد حان

الوقت لذلك! لم أعرف أبداً إن كنت قد أحببت الكتب التي اخترتها لك أم لا. والآن، عمّ تبحث؟».

نظر كاو في أرجاء القاعة الضخمة، وقال: «أريد معلومات عن العناكب». أضاف، كما لو أنها فكرة متأخرة: «العناكب غير الاعتيادية».

أحسّ بليديا تقطّب وجهها، لكنها لم تتفوه بأي شيء.

ابتسمت الآنسة والاس وقالت: «اتبعاني».

مشى كاو خلفها بين كومات الكتب، محاولاً عدم لفت انتباه أيّ من القرّاء الآخرين. كان واثقاً من أنهم ينظرون إليه، بمعطفه الأسود المتسخ وحذائه المهترئ. نظرت مسؤولة المكتبة إلى الرفوف، ثم أبطأت سرعتها وتوقفت في منتصف الطريق. قالت وهي تشير إلى قسم من الرف: «سوف تجدان هنا التاريخ الطبيعي. فلنرَ». نظرت عن كثب، ثم سحبت كتاباً، وقالت وهي تعطيه إيّاه: «إنه موسوعة حول أنواع العناكب. هناك بعض الكتب الأخرى حول المفصليات أيضاً. العناكب نوع من المفصليات، هل فهمت؟ سأكون أمام مكتبي إذا احتجت إلى أي شيء آخر».

جلس كاو على الأرض، مسروراً لكونه بعيداً عن مرأى الآخرين، وجلست ليديا قربه. تمتمت قائلة: «ظننتُ أننا أتينا إلى هنا كي أعلّمك القراءة. لكنك تفكر في السجين، أليس كذلك؟ الرجل الضخم في الممشى صاحب الوشم المخيف».

أومأ كاو برأسه، وفتح الكتاب قائلاً: «تعرّفت إليه».

«من أين؟».

أجاب كاو: «من كابوس رأيته؛ كابوس عن أهلي».

أحنت ليديا رأسها. «ظننتُ أنك لا تذكر أي شيء عن أهلك».

تنهد كاو. بالكاد عرف ماذا يقول لها. بالكاد عرف ماذا يعرف فعلاً. قال: «لا أستطيع أن أشرح. يبدو وكأنه ذكرى. حلمت به بضع مرات. إلا أنه كان مختلفاً في المرة الأخيرة. كان هناك ذلك الرجل... رجل شرير... وضع خاتماً عليه صورة ذلك العنكبوت».

قطّبت ليديا حاجبيها، وبدت مذهولة: «العنكبوت نفسه؟!».

قال كاو: «نفسه بالضبط. هل ستساعدينني في البحث؟».

جلسا جنباً إلى جنب، وقلّبا صور العناكب. إلا أن أياً منها لم يكن مثل العنكبوت الذي رأياه؛ مع جسمه المعقوف، وأرجله الطويلة والضيقة، والشكل M على ظهره.

بعد نصف ساعة، وقفت ليديا وتمددت، ثم قالت: «ليس هنا. فلنسأل الآنسة والاس إذا كانت تستطيع المساعدة».

سألتهما مسؤولة المكتبة بفرح، فيما توجها صوب مكتبها: «هل وجدتما ما كنتما تبحثان عنه؟».

هزّ كاو رأسه.

قالت ليديا: «نحن نبحث عن عنكبوت معين، لكنه غير موجود في أي من الكتب».

قالت الآنسة والاس: «ممم. هل يمكنك رسمه؟».

أجابت ليديا: «أظن ذلك». أعطتها الآنسة والاس ورقة وقلم رصاص. تمتمت ليديا فيما رسمت: «كان الجسم شبيهاً بالشكل S». رسمت الشكل بطريقة مثالية تقريباً. مجرد رؤيته جعلت كاو يرتعد.

قال: «لا تنسي الشكل M في الوسط». أخذ قلم الرصاص وأجرى التعديلات اللازمة.

تأملته الآنسة والاس عبر نظارتها ثم سألتهما: «هل أنتما واثقان من أن هذا عنكبوت حقيقي؟ لم أرَ شيئاً كهذا من قبل».

قال كاو: «أريد فقط أن أعرف من أين يأتي. هذا مهم».

قالت الآنسة والاس: «حسناً، لدينا كل أنواع الخبراء والأكاديميين في المكتبة. دعني أجري بعض الاتصالات. هل يمكنكما العودة غداً؟».

أومأ كاو برأسه وقال: «شكراً لك».

أجابت: «لا مشكلة. هل تريد أخذ بعض الكتب الإضافية نظراً لوجودك هنا؟».

قالت ليديا: «نعم، من فضلك». قبل أن تتاح لكاو فرصة الإجابة.

عندما غادرا المكتبة، كانت حقيبة ليديا مليئة بكتب جديدة، واشتمل معظمها على كلمات أكثر من تلك التي اعتاد عليها كاو. إلا أن كاو لم يكترث كثيراً. إذ كان لا يزال يفكر في العنكبوت. إذا لم يستطع العثور عليه في كل تلك الكتب، فأي أمل يملك في اكتشاف حقيقة حلمه؟

وجدا سكريتش وغلام جاثمين على الدرج في الخارج، ويراقبان رجلاً جالساً على مقعد في الجهة المقابلة من الشارع ويتناول البرغر.

قال سكريتش بمرارة: هذا الرجل لم يوقع فتاة واحدة.

قال غلام: هل وجدت شيئاً مثيراً؟

هزّ كاو رأسه: «فلنذهب».

قالت ليديا: «لا تيأس. قد تتوصل الآنسة والاس إلى شيء ما».

ركل كاو حجراً على الرصيف. «ربما. شكراً لك على المساعدة في أية حال».

قالت ليديا: «كنت أفكر. هل للعنكبوت علاقة بعصابة ما؟ أتفهم ما أعنيه؟ إنه رمز وليس عنكبوتاً حقيقياً. هل كان والداك يواجهان المشاكل؟».

قال غلام وهو يحطّ أمامهما: يستحسن نسيان المسألة. عد إلى الحياة الطبيعية.

قال كاو: «لا أظن ذلك. لا أعرف». هناك الكثير من الأمور التي لا يعرفها عنهما.

وصلا إلى طرف الحديقة العامة عند منتصف النهار تقريباً.

قالت ليديا: «اسمع، عليّ الذهاب الآن. لماذا لا تأتي إلى منزلنا لتناول العشاء الليلة؟».

قال سكريتش: مستحيل!

أضاف غلام: فكرة سيئة جداً.

قال كاو: «إيمممم...».

قاطعه غلام قائلاً: لقد تخطت الأمور حدودها. تسللت هذه الفتاة إلى عشنا أو لاً، ثم جرّتك عبر منتصف المدينة، والآن هذا!

قالت ليديا: «هيا. هذا أقل ما نستطيع فعله لك بعدما أنقذتنا من أولئك السجناء. فكّر في الأمر؛ وجبة ساخنة! يبدو أنك تستطيع تناول واحدة».

قال سكريتش، وهو يخفق بجناحيه: لا نحتاج إليها. لاحظ كاو الجبيرة على رجل سكريتش. لم يتذمر الغراب من الإصابة مطلقاً بعدما وضعت له ليديا الجبيرة.

قال كاو: «دعيني أفكر في الأمر».

برمت ليديا عينيها: «حسناً، فكر في الأمر. تعال عند الساعة السابعة». لوّحت له بيدها، وأسرعت صوب منزلها، ثم توقفت للقول: «أوه، وقد ترغب في الاستحمام».

«لا أملك...».

لكنها رحلت.

تسلّق كاو بوّابة الحديقة العامة، ومزّق شبكة عنكبوت تلألأت بين قضيبين. التصقت الخيوط بأصابعه. عندما أصبح بمفرده مجدداً، شعر بالقليل من الغرابة. إنه معتاد على أن يكون بمفرده - قال لنفسه - ولذلك يجدر به الشعور بالارتياح. إلا أنه لم يشعر بالسرور لأن ليديا رحلت. أبعد خيوط العنكبوت عن أصابعه.

قال غلام: الحمد لله أننا تخلصنا منها. فلنعد إلى العش ونأخذ قيلولة. هيا بنا!

عندما وصل إلى أسفل شجرته، لمحت عيناه حركة، كما لو أن شيئاً ما هرب داخل أجمة صغيرة.

قال سكريتش: هل هذا جرذ؟

قال كاو: «أعتقد أنها فأرة».

قال غلام: الأمر نفسه؛ وجبة عشاء.

رفع كاو ياقة قميصه القطني إلى أنفه وشمّها. «ما الذي قصدته بالاستحمام؟». قال غلام بعد أن استقر على غصن منخفض: لن تذهب، أليس كذلك؟

قال كاو، فيما بدأ يتسلق الشجرة: «لا. حسناً، ربما».

الفصل السادس

جثم غلام على المرآة الجانبية لسيارة السيد ستريكهام وقال: لم يفت الأوان للعودة بعد.

شدّ كاو عزيمته وتابع المشي. في البعيد، قرعت أجراس كاتدرائية بلاكستون للإعلان أن الساعة هي السابعة. لا تزال الشمس تسطع فوق الأشجار، وألقت بظل طويل أمام كاو، لكن الثعالب بدأت تعوي. شاهد كاو حركة عبر الأجمات فيما اقترب من منزل آل ستريكهام.

قال سكريتش: يمكننا الذهاب والانقضاض على سلال النفايات. فتات غني!

أخبرهما: «أريد فعل هذا».

قال غلام: لا يبدو عليك هذا. أنت شاحب جداً.

حاول كاو تجاهلهما. لا يهم إذا كان يرغب في المجيء أم لا، فقد شعر وكأنه يدين بذلك لليديا. قد تكون متطفّلة بعض الشيء، لكنها جاءت إلى المكتبة معه وعالجت رجل سكريتش.

فيما وصل إلى الدرج الأمامي، شاهد انعكاس صورته مشوهاً على المقبض العملاق المصقول. شمّ تحت إبطه بسرعة. لقد غسل نفسه قدر ما يستطيع في ماء البركة، ومشّط شعره بواسطة مشط قديم، لكنه ما زال يشعر وكأنه دجّال. نجح على الأقل في العثور على حذاء

جديد. لقد رماه أحدهم في مكان غير منظور. مقاسه صغير جداً، وكشف الحذاء في إحدى قدميه عن فتحة عند الإصبع الكبرى، فاضطر كاو إلى إحداث شق في الحذاء الآخر لجعل الاثنين متطابقين. اختار من حقيبته قميصاً قطنياً أسود اللون، ممزقاً قليلاً فقط عند الياقة. ثمة بقعة طلاء على ظهره، لكن طالما أنه لن ينزع عنه معطفه الطويل الأسود، فلن يعرف أحد بالأمر.

رفع المقبض، وخفق قلبه بسرعة، ثم تجمد في مكانه.

بماذا يفكر؟

تمتم: «لا أستطيع فعل ذلك». أفلت المقبض برفق وتراجع إلى الخلف.

قال سكريتش: لقد عاد إلى رشده. وراح يطرق بمخالبه على سطح سيارة السيد ستريكهام. ماذا سيكون هناك؟ طعام هندي؟ صيني؟

فُتح الباب فجأة، فقفز قلب كاو في مكانه. هناك، وقفت ليديا وهي ترتدي فستاناً باللون الأخضر العشبي. على الفور، بدأ كلب ليديا، بنجي، يشمّ كاحليه. كان بنجي أبيض اللون مع بقع بنية، وله عينان ناتئتان وأذنان متدليتان. وجد كاو نفسه في أسفل سلّم عريض، واقفاً على سجادة شاحبة سميكة. لاحظ بذعر أن حذاءه ترك بقعة سوداء من الوسخ على السجادة، فقال: «أنا آسف. سأخلعه».

وفيما أخرج قدميه من الحذاء، عادت إليه ذكرى من الحلم، والسجادة في منزل أهله - البشرة العارية تغرق في نعومة مترفة - إلى أن لاحظ ليديا وهي تنظر إلى حذائه وتكبح ابتسامة. قالت: «هيا، أصبح العشاء جاهزاً تقريباً».

رافقته في ممر مليء بالصور الفوتوغرافية المؤطرة، فيما هرول

منجي قربهما. كل الصور تخص عائلة ستريكهام. ثمة مصابيح جميلة من البورسلين والزجاج أعطت ضوءاً أخضر ناعماً. لكن الرائحة هي التي لفتت انتباه كاو أكثر من أي شيء آخر. رائحة الطعام جعلت لعابه يسيل في فمه؛ لدرجة أنه خاف أن يسيل ذلك اللعاب على السجادة.

في الطرف البعيد، انفتحت مجموعة من الأبواب المزدوجة على طاولة عملاقة مع شموع في وسطها وأطباق موزعة عليها. بالكاد استطاع كاو التصديق. فبعد المراقبة مرات عديدة عبر النافذة، ها هو الآن أخيراً في الداخل. بدا أن الدفء والنعومة جذباه بقوة.

كان السيد ستريكهام جالساً إلى طرف الطاولة يقرأ جريدة، وقد وضع نظارة على طرف أنفه.

قالت ليديا: «بابا؟».

استدار السيد ستريكهام ثم بدأ. «ما...» فتح فمه وأغلقه، ثم نهض محدقاً في كاو. «ليديا، ماذا يفعل هذا الصبي هنا؟».

أحسّ كاو بذلّ كبير، وتأملت عيناه الطاولة. تم إعدادها لثلاثة أشخاص.

قالت ليديا: «أنا دعوته لنقول له شكراً».

قال السيد ستريكهام: «أنت دعوته؟».

قال كاو وهو يستدير: «سأذهب».

أمسكت به ليديا وقالت: «لا، لن تذهب! أليس كذلك يا بابا؟».

حدّقت في والدها بغضب، فاستقرّت عينا هذا الأخير على القدمين الحافيتين لكاو، قبل أن ينظر إلى وجهه.

قال: «وما هو اسمك؟».

قالت ليديا: «اسمه كاو. كاو، هذا والدي».

احتاج والد ليديا إلى ثانية إضافية قبل أن يومئ برأسه بسرعة ويمدّ يده. بدا أنه بذل كل ما بوسعه للابتسام. صافحه كاو، وكان مسروراً لأنه فرك أظافره جيداً في البركة.

في تلك اللحظة، دخلت امرأة الغرفة وهي تحمل طبقاً ساخناً. كانت نحيلة، مع شعر أحمر متموج بنعومة ربطته إلى الخلف في جديلة رخوة، وارتدت مئزراً ورديّاً فوق فستان شاحب. تعرّف إليها كاو على الفور. إنها والدة ليديا. اتسعت عيناها بشدة عندما رأته، وقالت: «من أنت؟».

قال السيد ستريكهام: «يبدو أن ليديا قد أحضرت أوه... هذا... الصديق لتناول العشاء».

قالت ليديا: «إنه ضيفنا. إنه كاو؛ الولد الذي كان هناك في الليلة الماضية».

قالت السيدة ستريكهام، وهي تتأمله عن كثب: «فهمت». بدأ كاو يشعر بالانزعاج من نظراتها المحدقة.

قالت ليديا: «ندين له بعشاء على الأقل. سأحضر طبقاً آخر». وأشارت إلى كرسي. «كاو، اجلس هنا».

عندما غادرت ليديا الغرفة، فكّر كاو في أن يستدير ويهرب. يبدو جلياً أنهم لا يريدونه هنا. كان يجدر به الإصغاء إلى غلام وسكريتش. حاول رسم ابتسامة، لكنه كان واثقاً من أنه أصدر شبه تكشيرة. أومأ السيد ستريكهام برأسه، كما لو أنه لا يعرف ماذا يفعل، ووضعت زوجته الطبق برفق على الطاولة.

قال والد ليديا: «أرجوك، اجلس».

فعل كاو مثلما طُلب منه، تاركاً يديه على جانبيه فيما جلس. بدا كل شيء نظيفاً جداً؛ الجدران، الأرضية، شرشف الطاولة... بالكاد

نجراً على التحرك خشية نشر الأوساخ.

عادت ليديا بسرعة، وجلس الجميع في أماكنهم. رفعت السيدة ستريكهام الغطاء عن الطبق للكشف عن طبق من قطع اللحم. الرائحة جعلت فم كاو يمتلئ باللعاب مجدداً، فابتلع لعابه بعصبية.

سأله السيد ستريكهام: «أين تعيش كاو؟». فيما قطّع اللحم بواسطة سكين عملاقة.

«في الجوار».

سأل السيد ستريكهام: «مع أهلك؟».

قال كاو: «لا. أعيش وحدي».

فجأة، أصبحت تعابير السيد ستريكهام قاسية، وقال: «لكنك لا تبدو كبيراً كفاية».

انتقلت عينا ليديا إلى والدها. خفق قلب كاو بقوة مع إحساسه بالذعر، وراجع حساباته. إذا اكتشفوا أن عمره ثلاثة عشر عاماً فقط، فسوف يتصلون بالسلطات.

قالت ليديا: «إنه في السادسة عشرة».

قال السيد ستريكهام: «حقاً! أسأل فقط لأن...».

قال كاو: «نعم. عمري ستة عشر عاماً».

قالت ليديا: «توقف عن استجوابه بابا». ووضعت طبقاً أمام كاو، وملأته باللحم والبطاطا والخضر، مع الكثير من الصلصة، وقالت: «هيا».

نظر كاو إلى الأعلى، وأومأت السيدة ستريكهام برأسها. لاحظ كاو أنها بدت شاحبة قليلاً، وقالت: «آمل أن يعجبك».

رفع كاو شريحة من اللحم وغرز أسنانه بها، كاد يتأوه عالياً بسبب المتعة التي شعر بها. لا يشبه هذا أي شيء آخر تذوقه من

قبل، فقد كان ناعم القوام وحلواً تقريباً. قضم قضمة أخرى، وسالت الصلصة على يديه. قضم قطعة بطاطا، وكاد أن يبصقها لأنها ساخنة جداً. فتح فمه، واستنشق الهواء البارد قبل أن يمضغ بقوة ويبتلع بسرعة. ثم تناول حفنة من الخضر وأقحمها في فمه أيضاً. اندمجت النكهات مع بعضها بشكل رائع. تساقط بعض الفتات في طبقه، فأقحمه مجدداً في فمه. ابتلع بسرعة مجدداً، ولعق الصلصة الغنية التي سالت على أصابعه ومعصمه.

أدرك أن الجو هادئ على الطاولة. وعندما نظر إلى الأعلى، رأى الأفراد الثلاثة لعائلة ستريكهام يحدّقون به، وهم يفتحون أفواههم. كانوا يحملون الشوك والسكاكين. تورّد كاو حتى جذور شعره.

قالت ليديا بسرعة: «ليس معتاداً على العشرة».

قال كاو: «عذراً، هذا لذيذ». رفع الشوكة والسكين، لكنه أحس أنهما غير مناسبين في يديه. راقبته السيدة ستريكهام بفضول، فيما قطّعت طعامها ببطء إلى شرائح، ووضعت لقمة صغيرة في فمها.

استمر العشاء وسط الصمت. بالكاد نظر كاو إلى الأعلى، ورغم أنه حاول إبطاء وتيرته، إلاّ أنه أنهى سريعاً ما كان موجوداً في طبقه، فأعطته ليديا المزيد من دون أن تسأل.

قال السيد ستريكهام: «تبدو جائعاً كاو. متى تناولت الطعام آخر مرة؟».

تذكر كاو التفاحتين اللتين أعطته ليديا إيّاهما وقال: «في وقت سابق اليوم».

قال السيد ستريكهام وهو يضع الشوكة والسكين على الطاولة: «هل تعلم؟ يمكنني العثور على بعض... الدعم لك».

قطّب كاو حاجبيه.

«تستطيع المدينة الاهتمام بالأولاد الذين لا يملكون...».

قال كاو بصوت عالٍ جداً قليلاً: «عمري ستة عشر عاماً».

قال السيد ستريكهام: «لا داعي للعدائية. أحاول فقط مساعدتك».

قالت ليديا: «اتركه وشأنه بابا».

وجّه إليها السيد ستريكهام نظرة غاضبة وقال: «لا ترفعي صوتك أمامي أيتها الآنسة الصغيرة. ليس بعد عصيانك لأوامري في الليلة الماضية».

قالت ليديا: «لولا كاو وغربانه لكنا قد متنا. أعتقد فقط أنه يجدر بنا احترام خصوصيته».

بدا السيد ستريكهام على وشك قول شيء ما، ثم وضع الشوكة والسكين. «أنت محقة ليديا». ابتسم لكاو. «أنا آسف».

سألت السيدة ستريكهام: «هل قلت غرباناً عزيزتي؟».

أجابت ليديا: «نعم. يملك كاو ثلاثة غربان ترافقه. اثنان منها هاجما السجين في الممشى الليلة الماضية».

قالت السيدة ستريكهام: «كم هذا غريب!». قطّبت حاجبيها وتنحنحت ثم قالت: «سأذهب إلى الحمام. اعذروني». وقفت ومسحت زاوية فمها بمنديل مطوي، ثم غادرت الغرفة.

لاحظ كاو حركة عند النافذة؛ خفقان أجنحة. إنه سكريتش يجثم في الخارج. خفق قلبه بشدة. هذا آخر ما يحتاج إليه الآن بعد أن شعر بأنه فاز بقلوبهم. حرّك كاو يده للقول: «اذهب!».

ولكن، صدر نباح مفاجئ من الممر.

نادى السيد ستريكهام: «اهدأ بنجي! إذاً يا كاو، لطالما عشت في بلاكستون؟».

أصبح النباح مسعوراً.

قالت ليديا: «ما الذي أصابه؟». ثم وقفت وخرجت من الغرفة. قال كاو لنفسه، ليس بمفردي مجدداً.

لكن بعد ثانية واحدة، أطلقت ليديا صرخة قوية.

صرخ السيد ستريكهام: «ليديا!». ثم وقف على قدميه في الثانية نفسها مع كاو، وأسرعا كلاهما صوب الممرّ.

توقف كاو فجأة وبسرعة؛ في محاولة لاستيعاب ما يراه. انكمش بنجي مرتعداً في أسفل السلالم، وكان ينبح بجنون، فيما صرخت ليديا مراراً وتكراراً.

ثمة أفعى ممدّدة على السجادة، تملك حراشف رمادية، وطولها ثلاثة أمتار تقريباً. كان جسمها ملتفاً وإنما رفعت رأسها الأفطس عن الأرض. أمسك السيد ستريكهام كاو فيما حاول الاندفاع إلى الأمام. قال: «لا، ابقَ في الخلف!».

بكت ليديا: «ابتعدي عن كلبي! بنجي!».

اندفعت الأفعى إلى الأمام، وتحوّل نباح بنجي إلى أنين فيما انغرز ناباها في قائمته وبقيا داخلها. هدر الكلب وانهار وتلوّى، إلى أن أفلتته الأفعى. أصدرت الأفعى صوت هسيس، ثم استدارت وحدقت مباشرة في ليديا، حيث راقبت عيناها الخضراوان كل حركة تصدر عنها.

أفلت كاو ذراعه من قبضة السيد ستريكهام، وأمسك بالمصباح الموجود في الممر، وأفلت حبله من المقبس الكهربائي، ورماه على الأفعى. تناثر الزجاج والخزف الصيني على الأرض. أمسك كاو

بمصباح آخر ورفعه فوق رأسها. تراجعت الأفعى المليئة بالحراشف إلى الخلف، في اتجاه فتحة صغيرة في الجدار. وقبل أن يتمكن أي كان من إيقافها، انزلقت إلى العتمة.

وضع كاو المصباح أرضاً. كان قلبه يخفق بقوة كبيرة.

تمتمت ليديا: «بنجي؟». ثم جلست القرفصاء قرب كلبها الذي كان مستلقياً على جانبه، مفتوح العينين ويلهث بسرعة. برزت بوضوح علامتا نابين في قائمته، وكانتا تنزفان الدم.

أغلق السيد ستريكهام غطاء الفتحة في الجدار بقوة كبيرة، وشدّ البراغي، فيما وصلت زوجته مسرعة إلى الممر. سألت بصوت عالي النبرة: «ما الذي يجري؟». تأملت عيناها بقايا المصباح، ومن ثم بنجي وليديا، وأخيراً كاو.

قال السيد ستريكهام: «كانت أفعى. لم أرَ مثلها أبداً من قبل. من أين أتت؟».

حدّقت السيدة ستريكهام في كاو، كما لو أنها غلطته نوعاً ما، ثم توجهت صوب ليديا وقالت: «هل لدغته؟».

أومأت ليديا برأسها، وانهمرت الدموع على وجهها، فيما حضنت كلبها. «إنه بالكاد يتنفس!».

راقب كاو جسم الكلب الذي ارتجف وتلوّى، ثم انهار فجأة على ركبتي ليديا. بقيت عينا الكلب مفتوحتين، ولكن النور اختفى منهما.

همست ليديا: «بنجي!».

وضعت السيدة ستريكهام يدها على ظهر ابنتها وقالت: «أنا آسفة جداً حبيبتي».

قالت ليديا: «لا! اتصلا بالطبيب البيطري!».

شدّت السيدة ستريكهام ابنتها وعانقتها، فيما بقي الكلب من دون حراك على حضنها. قالت وهي تعانق ابنتها التي تبكي: «لقد مات. لقد مات».

وقف كاو هناك وشعر بعجز تام.

وضع السيد ستريكهام يداً على جبينه، كما لو أنه لا يصدق أبداً ما حصل. ثم أشار في اتجاه الباب، ونظر إلى كاو قائلاً: «أنا آسف، لكن نحتاج إلى أن نكون بمفردنا».

أومأ كاو برأسه مذهولاً. لقد رأى أفعى عشبية واحدة أو اثنتين من قبل في الحديقة العامة - قال غلام إنهما لذيذتان جداً - ولكنه لم يرَ أبداً شيئاً بهذا الحجم، أو شيئاً بهذه السمية. ليس في بلاكستون. أراد مواساة ليديا أيضاً، لكن السيد ستريكهام بدأ يدفعه إلى الخارج.

تمتم كاو وهو يحمل حذاءه: «شكراً على العشاء. إذا كان بوسعي فعل أي شيء».

انغلق الباب وراءه.

كان سكريتش وغلام ينتظران قرب السيارة. قال سكريتش: حاولنا إنذارك. رأينا الأفعى تدخل عبر قناة المجاري.

قال غلام: لكننا قتلناها. انظر! وبرم منقاره مشيراً إلى الأرض قرب السيارة. استلقت الأفعى على شكل S من دون حراك، فيما تدفق الدم من جسمها.

إلا أن الوقت فات بالنسبة إلى بنجي.

أبعد كاو نظره عن الأفعى الميتة ومشى في الممر، تاركاً الغرابين خلفه، فيما عقله لا يزال مشغولاً.

قال غلام بسخط: هاي، إلى أين تذهب؟

خرجت الأفعى عبر قناة المجاري. لا بدّ أن أحدهم قد أفلتها

هناك. فجأة، سمع صوت خطوات تتراجع إلى الخلف بسرعة. فاندفع إلى الطريق وقلبه يخفق بقوة. احتاجت عيناه إلى بعض الوقت للتكيف مع العتمة. وما إن فعلتا ذلك حتى رأى شكلاً في البعيد، يركض على الرصيف بعيداً عن منزل ليديا. إنه شكل طويل وداكن اللون. تجمّد قلبه.

امرأة شابة سوداء الشعر.

السجينة الفارّة.

الفصل السابع

عندما تسللت أشعة شمس الصباح عبر الأشجار، كان كاو يتألم، وبدا مستيقظاً تماماً. وخزته بشرته في الهواء البارد.

أمضى الليل بين الأغصان قبالة منزل آل ستريكهام، رغم إلحاح غلام وسكريتش بضرورة العودة إلى العش. إلا أنه لم ينم أبداً. ماذا لو عادت المرأة أو جاوبون أو الرجل الصغير المروّع؟ تذكر كاو وقاحة جاوبون في الممشى. لقد ماتت الأفعى السامة الآن، وتولى غلام وسكريتش رمي جثتها في حوض أزهار مخبأ في الحديقة العامة. لكن، لا يمكن أن يكون الأمر مصادفة؛ لا بد أن السجناء قد أطلقوها. أرادوا من دون شك الانتقام من آمر السجن ستريكهام.

قال غلام بنبرة استياء: حسناً، أنا مسرور لأننا بقينا هنا طوال الليل. هل يمكننا الآن الذهاب للنوم قليلاً؟

كان سكريتش جاثماً في مكان أبعد على الغصن. فلنعد إلى العش.

قال كاو وهو يمدد ذراعيه: «قريباً».

قال سكريتش: لا يمكنك البقاء هنا طوال اليوم!

الغرابان محقان ربما. لن يهاجم السجناء في وضح النهار.

تمتم كاو أخيراً: «حسناً، هيا بنا».

ما إن وصل إلى أعلى جدار الحديقة العامة حتى انفتحت ستائر

غرفة نوم ليديا. وقفت هناك في البيجاما ونظرت إليه مباشرة. حزر من وجهها الشاحب أنها لم تنم كثيراً هي أيضاً. كانت عيناها حمراوين كما لو أنها تبكي.

تمتمت: «انتظر هنا!». وأغلقت الستائر مجدداً.

قال كاو للغرابين: «تبديل في الخطة».

بعد دقائق قليلة، خرجت ليديا من المنزل، وهي ترتدي سروال جينز وبلوزة خضراء ومعطفاً أبيض منتفخاً من دون كمين، وتنتعل حذاء رياضيًّا. نزل كاو عن الجدار، وقال لها: «أنا آسف بشأن بنجي».

اكفهرّ وجه ليديا قليلاً، لكنها حبست دموعها، وقالت بهدوء: «لم تكن غلطتك. لكني لا أفهم؛ من أين جاءت تلك الأفعى؟».

قال كاو: «رأيت أحداً في الليلة الماضية». لم يشأ إخافة ليديا، لكنه لا يستطيع إخفاء الأمر عنها أيضاً. «مباشرة بعدما غادرتُ، أعتقد أني رأيت واحدة من السجناء؛ رأيت امرأة تهرب بعيداً من منزلكم».

قالت ليديا: «هنا؟! لماذا لم تخبرنا؟».

قال كاو: «لم أشأ التطفل، فقد طلب مني والدك المغادرة».

زمّت ليديا شفتيها وقالت: «هل تعتقد أن لها علاقة بالأفعى؟».

قال كاو: ربما. لم أرَ أبداً أفعى مثلها في بلاكستون من قبل».

قالت ليديا: «أنا رأيت، ولكن في حديقة الحيوانات فقط. قالت أمي إنها هربت من هناك ربما». نظرت ليديا إلى المنزل مجدداً. «أنا خائفة. لقد تلقى والدي تهديدات من قبل، ولكن ليس من هذا النوع».

أراد كاو مواساتها، لكنه لم يعرف كيف. لذا، غيّر الموضوع وقال: «يجدر بنا الذهاب إلى المكتبة. ربما وجدت الآنسة والاس شيئاً عن ذلك العنكبوت».

قالت ليديا: «فكرة جيدة. قد يساعد ذلك أبي في تعقب السجناء».

قال سكريتش، من أعلى الحائط: انتظر! لست جاداً في الذهاب معها، أليس كذلك؟ إنها خطيرة! هي ووالدها.

نظرت ليديا في اتجاه صوت الغراب.

قالت: «أوه، لم أنتبه إليهما. مرحباً أيها الغرابان!».

قال غلام وهو ينظر إلى ليديا باستهجان: سكريتش محق. أقترح أن نعود إلى العش ونبقى بعيدين عن الأنظار إلى أن تنتهي كل هذه المسألة.

أحسّ كاو بالغضب، لكنه أبقى صوته ثابتاً وقال: «أنا ذاهب. وهذا قرار نهائي».

ألقت ليديا نظرة على الغرابين وقالت: «إنهما لا يحبانني، أليس كذلك؟».

قال كاو: «ليس الأمر هكذا. لكنهما خائفان عليّ».

قال غلام: أنا جدي. لا يمكن أن يأتي شيء جيد من مسألة العنكبوت هذه. لماذا لا تنسى أمره؟

استدار كاو صوب الغراب. «اسمع غلام، هل تعرف أمراً ولم تخبرني به؟ إذا كنت تعرف شيئاً فانطق به».

برم غلام رأسه بعيداً وقال: كل ما أعرفه أن ميلكي تحدث البارحة. ولم يحصل هذا أبداً من قبل. لقد فقد صوابه ربما، لكني لم أحب ما قاله.

بدت ليديا مرتبكة وقالت: «غلام؟ هل هذا اسمه؟».

أخذ كاو نفساً عميقاً، وقال بهدوء للغرابين: «أعتقد أن لذلك السجين علاقة بوالدَيّ. لا تتوقعا مني أن أبقى جالساً في عشّ على

شجرة طوال حياتي وأنسى أمرهما». هذه المرة، صمت الغرابان.

حرّك غلام منقاره وقال: افعل ما تراه مناسباً.

أصبح كاو معتاداً على تقلبات مزاج غلام على مرّ السنوات. قد يكون الغراب العجوز عنيداً، لكن هذا الأمر مختلف. بدا متألماً تقريباً.

حسناً، هذا مؤسف جداً. لا يحتاج كاو إلى من يهتم به.

قال لليديا: «هيا، فلنذهب».

اجتازا نصف المسافة المحاذية للحديقة العامة عندما أدرك كاو أن الغرابين لم يلحقا به. نظر إلى الخلف، ورأى غلام وسكريتش جاثمين حيث تركهما وهما يراقبان.

ثم عرف الحقيقة. إنهما يغاران من ليديا. إنهما منزعجان لأني لم أعتمد عليهما هذه المرة.

سألت ليديا: «هل كل شيء على ما يرام؟».

قال كاو: «لا بأس». وبدا صوته بارداً. برم رأسه بعيداً عن غرابيه وتابع المشي.

لقد حان الوقت ليستقل عنهما وينجز الأمور بمفرده.

تفرّعت من الحديقة العامة طرقات عدة تؤدي إلى المدينة. يميل كاو عادة إلى التسلق على الأسطح، والسير في الممرات الخلفية أو السكك الحديدية، لكنهما سلكا اليوم الطريق الرئيس، حيث المستودعات ومحلات تصليح السيارات. بقي صامتاً لبعض الوقت وهو يفكر في جداله مع الغرابين، متسائلاً عمّا إذا كان يجدر به قول أي شيء بطريقة مختلفة. لكن، ما إن وصلا إلى أطرف المدينة حيث بدأت تظهر المباني الشاهقة والمتاجر، حتى كسرت ليديا جدار الصمت.

قالت: «هل تعلم؟ عندما قلت إنك تتحدث إلى الغربان لم أصدقك فعلاً. لكنك تتحدث إليها فعلاً، أليس كذلك؟ أنت تفهم فعلاً ما تقوله لك».

قال كاو: «نعم. منذ أن...». منذ أن أخذته مجموعة من الغربان بعيداً عن أهله، كان على وشك قول ذلك، لكنه لم يعرف كيف ستكون ردة فعلها على ذلك.

قالت ليديا: «يمكنك إخباري». ووضعت يداً على ذراعه، ونجح في عدم الهروب بعيداً.

«لم أخبر يوماً أياً كان».

أجابت: «جرّبني. أرجوك. أريد أن أنسى بنجي».

ألقى كاو نظرة عليها للتأكد من أنها لا تبتسم. نظرت إلى الخلف، وبدا وجهها صريحاً وصادقاً. توقف عن المشي، وأخذ نفساً عميقاً. هل كان فعلاً مستعداً لمشاركتها هذا الآن؟

قال ببطء: «لطالما اعتنت بي. لا أذكر الكثير من الأمور قبل الغربان».

قالت: «لكنك تذكر شيئاً ما؟».

عضّ كاو شفته. لقد أخبر ليديا أسراراً أكثر مما أخبر أي شخص آخر في حياته؛ فلمَ لا يخبرها بهذا أيضاً؟

بدأ: «الكابوس الذي أراه. إنه حقيقي مثلما أعتقد». ظنّ كاو أنه سيبدو أحمق عند إخبارها عن الكابوس بصوت عالٍ، لكن فيما أخبرها عن الغربان وكيف حملته بعيداً عن النافذة المفتوحة، وعن تخلي أهله عنه، أصغت إليه بدقة.

وقبل أن يدرك كاو الأمر، راح يخبرها المزيد؛ عن الأيام الأولى عندما كان العش صغيراً وبالكاد يتسع له، وعن مختلف الغربان التي

جاءت وذهبت، وعن اكتشاف المزيد والمزيد من بلاكستون بصورة تدريجية.

فيما خرجت الكلمات من فمه لتخبرها كم كانت التجربة صعبة، وكم شعر بالوحدة، أحسّ بذلك الإحساس القديم المألوف يتراكم في صدره. الغضب من والديه لأنهما جعلا الأمر صعباً جداً عليه. لماذا لم يتركاه بالقرب منهما ويحباه مثل أيّ والدَيْن حقيقيين؟ لقد رأى بعينيه كيف عانقت السيدة ستريكهام ليديا عندما كان بنجي يموت، وسمع اليأس في صوت والدها أثناء معركة الممشى عندما ظنّ أنها في خطر. كيف استطاع والداه أن يفعلا ما فعلاه؟ كل الأوقات التي شعر فيها بالجوع، أو وقع عن الأغصان، وعندما ارتعد بسبب البرد في ليالي الشتاء... أين كانا؟

قالت ليديا: «هاي كاو، هل أنت بخير؟».

أدرك كاو أن أصابعه مطبقة على شكل قبضة محكمة. احتاج إلى بضع ثوانٍ لإخراج الغضب من داخله، ثم قال: «نعم، أنا آسف».

أحس بيدها تتسلل إلى يده، وتضغط عليها، ثم قالت: «أفهمك. أهلاً بك في منزلنا، في أي وقت».

ابتسم كاو. «لست أكيداً من أن والدَيْك يقولان هذا أيضاً».

لكن عيني ليديا ركّزتا على شيء ما خلفه. إنه كشك جرائد. قالت ليديا: «انظر!». مشت صوب الكشك، وحملت جريدة، ودفعت للرجل الجالس في الداخل، ثم عادت إليه مسرعة. فتحت الجريدة كي يتمكن كاو من رؤية ما في داخلها.

لم تعنِ الكلمات أي شيء بالنسبة إليه، باستثناء تلك الموجودة في أعلى الصفحة؛ بلاكستون التي تشبه الكلمة الموجودة على بوابات الحديقة العامة. إلا أن الصور كانت واضحة كفاية؛ وجوه المساجين

الثلاثة الفارّين. أشارت ليديا إلى السجين صاحب الوشم وقالت: «اسمه كلارنس تراب، المعروف بجاوبون. المرأة اسمها إليانور كروس، والرجل صغير القامة اسمه إرنست فيتش». تصفحت عيناها الكلمات الصغيرة. «يقولون إن الثلاثة كانوا مسجونين في سجن الصيف المشؤوم بسبب جرائم عدة ارتكبوها، ومنها القتل والسرقة والخطف. لقد حُكِم عليهم بالسجن المؤبد من دون أي احتمال للعفو. أعتقد أنهم لهذا السبب كانوا يخضعون لإجراءات أمنية مشددة».

سأل كاو: «ما هو الصيف المشؤوم؟».

نظرت إليه ليديا كما لو أنه قد سألها للتو: أين السماء؟

قالت: «كنت فعلاً منطوياً على نفسك، أليس كذلك؟ الصيف المشؤوم هو موجة الجرائم التي حصلت قبل بضعة أعوام؛ الكثير من الاعتداءات والجرائم غير المبررة، في كل بلاكستون. الكثير من الحيوانات الوحشية جابت في الشوارع. وأمور غريبة فعلاً حصلت. يبدو أن بلاكستون كانت جميلة جداً قبل ذلك؛ هذا ما يقوله لي والدي على الأقل. يقول إن المدينة لم تتعافَ أبداً».

حاول كاو استيعاب المعلومات، وبدأ قلبه يخفق بسرعة. «قبل كم عام حصل ذلك؟».

قطّبت ليديا حاجبيها. «ربما... سبعة أعوام أو ثمانية».

قال كاو: «ثمانية أعوام؛ أي عندما تخلى والداي عني». الصيف المشؤوم، والداه، السجناء الفارّون، العنكبوت.

قالت ليديا: «حقاً؟ هل تظن أنها مجرد صدفة؟».

لم يجب كاو، وأسرع في خطواته، وركضت ليديا للحاق به. شعر أن خيوط اللغز بدأت تتضح، لتتصل مع بعضها في شبكة خنقت

كل جانب من حياته.

وفي وسط كل ذلك يوجد عنكبوت.

المقاعد خارج المكتبة كانت فارغة.

قالت ليديا: «هذا غريب. يوجد عادة الكثير من الأشخاص هنا صباح يوم السبت».

وعندما وصلوا إلى أعلى الدرج، رأى كاو لافتة معلّقة على الباب. توقفت ليديا وقرأتها ثم قالت: «أوه، إنها مقفلة».

قال كاو: «لا يمكن. طلبت منا الآنسة والاس العودة اليوم».

سألت ليديا: «حسناً، هذا ما تقوله اللافتة. ماذا سنفعل الآن؟».

قال كاو: «فلنتحقق من الجهة الخلفية. فهناك تترك لي الكتب عادة».

وفيما استدارا حول جانب المكتبة، بدأ إحساس بالانزعاج ينمو لديه.

كانت سيارة الآنسة والاس مركونة في مكانها الاعتيادي. عرف أن السيارة الزرقاء الصغيرة تخصها لأنه شاهدها وهي تصل فيها في الأيام التي وصل فيها باكراً، تواقاً للحصول على كوبه الأسبوعي من الشوكولا الساخنة.

تغلغل الخوف في كل صدره. وعندما وصلا إلى درج منفذ الحريق، لاحظ أنه تم رش رذاذ طلاء على الجدار.

شهقت ليديا، ووضعت يدها على فمها.

شعر كاو فجأة ببرد شديد، وتمتم: «لا... أرجوكم... ليس الآنسة والاس».

إنه عنكبوت مرسوم حديثاً؛ لأن الطلاء لا يزال يلمع. تماماً مثل

ذاك الـذي رآه في كابوسـه. قفـز كاو إلى أسـفل الدرج للوصـول إلى الباب الجانبي، وجـرّب المقبض. لم يكـن مقفلاً. وضـع إصبعه على شفتيه ودخل.

خيّم الصمـت فـي الداخـل. كان مكتـب الآنسـة والاس مضاء، والباب مفتوحاً قليلاً. اختلس كاو النظر إلى الداخل. لا أحد.

همست ليديا: «يجدر بنا الاتصال بالشرطة».

قال كاو: «ليس الآن».

الأنوار الأساسـية فـي المكتبة مطفـأة، لكن ثمة رائحـة غريبة في الهـواء ذكّـرت كاو بالحديقـة العامة بعـد المطـر الغزير. رائحـة رطبة وعفنة مثل الأوراق الميتة.

توجـه إلى الرفـوف فـي الجهـة الخلفية للمكتبـة. هناك! الآنسـة والاس. طغى عليه الارتياح. كانت جالسـة أمام مكتبها بطريقة جانبية، ونظارتها متدلية حول عنقها.

نادى، وهو يمشي صوبها: «آنسة والاس!».

وعندمـا وصـل أمـام المكتـب، طغى عليـه الذعـر فـي الصميم. خلفه، أصدرت ليديا تأوهاً صغيراً. كانت الآنسة والاس جالسة بشكل منتصب، وهي تنظر إليه مباشـرة بعينين مفتوحتيـن وغير مركزتين. ثمة خطب ما فـي فمهـا. غطت خيـوط فضية شـاحبة شـفتيها وأنفهـا مثل القنـاع. خيوط عنكبوت. سـالت خيـوط دم من وجهها علـى القميص قشدي اللون، مما ولّد أشكالاً مروّعة باللون القرمزي.

شـعر كاو بالـدوار، وبدت الغرفـة كما لو أنهـا تتمايـل أمامه. بدا الأمر أشبه بكابوس يتسلل إلى العالم الحقيقي.

إلا أن صـوت ليديـا أعـاد لـه تركيـزه، فقـد قالـت: «هـل هي... ميتة؟».

توجه كاو إلى جانب الآنسة والاس. تعبيرها الغريب والخالي من الحياة جعلها تبدو مثل عارضة بلاستيكية في متجر. بالكاد استطاع تحمل النظر إلى عينيها اللتين امتلأتا سابقاً بالكثير من الطيبة. تحقق من معصمها للتأكد. لا نبض. كانت بشرتها باردة وشمعية.

قال: «لماذا؟! فالآنسة والاس لم تؤذِ أحداً في حياتها، بل كانت تساعد الناس».

انهار كاو قربها. وفيما فعل ذلك، لاحظ أن إحدى يديها مطبقة بقبضة محكمة، ولمح في الداخل شيئاً أبيض.

قال: «ثمة شيء ما هنا. لا بد أنها كانت تمسك به حين...». كم هو مريع قول ذلك.

استدارت ليديا حول المكتب مترددة، كما لو أنها تخاف الاقتراب من الجثة. أرخى كاو برفق أصابع الآنسة والاس، فسقطت من يدها كرة ورقية. وعندما فتحها، أدرك ما هي؛ إنها رسم ليديا للعنكبوت. عاد قلبه ليخفق بسرعة مجدداً، وأصبح فمه جافاً. ثمة كلمة واحدة فقط مكتوبة تحت الصورة. نظر إلى ليديا.

قرأت: «كوايكر. ما الذي يعنيه هذا؟».

همس كاو: «لا أعرف». عادت عيناه إلى قناع الخيوط البيضاء على وجه الآنسة والاس، وشعر بالغثيان عندما تخيل كيف كافحت للتنفس.

قالت ليديا: «سوف أتصل بالشرطة». وذهبت إلى المكتب ورفعت السماعة، ثم قطّبت حاجبيها. «لا يوجد خط هاتفي».

صدحت ضحكة قوية عبر الهواء العفن. برم كاو بسرعة حول نفسه، ورأى السجين الضخم - جاوبون - واقفاً على الشرفة في الأعلى. لقد استبدل قميصاً قطنياً لونه أحمر مثل الدم وسروال جينز

بملابس السجن. انعكس الضوء المتسلل من النوافذ على رأسه الأصلع اللامع، حيث استطاع كاو رؤية الصفائح السميكة لجمجمته تحت البشرة. امتدّ وشمه من الأذن إلى الأذن؛ مما جعله يبدو شبيهاً أكثر بالمهرّج ومخيفاً أكثر من قبل.

قال كاو: «أنت!».

صرخ السجين: «أتريد الانضمام إلى الحفلة، أيها الصبي؟».

فجأة، أمسكت ليديا بذراع كاو وأشارت. «انظر!».

كانت المرأة صاحبة الشعر الداكن آتية من الجهة الخلفية للمكتبة. ارتدت فستاناً أسود من أعلى رأسها وحتى أخمص قدميها، وربطت شعرها في جديلة خلفية سميكة التفت مرة واحدة حول عنقها على شكل وشاح أسود، ثم تدلّت فوق كتفها. كانت تحمل في يدها إبرة خياطة فضية طويلة، وقالت: «لا تقلقا أيها الصغيران. كنت لطيفة معها».

كاد غضب كاو ينفجر رغم خوفه. ركض مع ليديا صوب مكتب الآنسة والاس، لكن شكلاً صغيراً اعترض طريقهما. كان يرتدي معطفاً باللون البيج، أكبر من حجمه بمقاسين تقريباً.

قال الرجل وهو يلعق شفتيه بفظاظة: «سكاتل في خدمتكما. أعتقد أنكما تعرّفتما إلى شريكيّ جاوبون ومامبا».

وجّه كاو نظرة إلى البابين الأماميّين، وانفطر قلبه عندما رأى سلسلة عملاقة مربوطة حول مقبضيهما، ومثبتة بقفل معدني.

لقد علقا في الفخ.

الفصل الثامن

قالت مامبا: «لا يمكنكما الهروب إلى أي مكان أيها الولدان».

صرخ كاو وهو يشير إلى جثة الآنسة والاس: «لماذا قتلتها؟ إنّها لم تؤذِ أحداً في حياتها!».

قال جاوبون، وقد اتسعت ابتسامته: «اضطررنا لفعل ذلك. إلا أننا استمتعنا بالأمر». ونظر إلى الآخرين قائلاً: «فلننهِ المهمة، أليس كذلك؟».

ضحك الرجل القصير ضحكة نصف مكبوتة وطقطق أصابعه.

عندها، سمع كاو صوتاً غريباً، ثم تساقط شيء من طرف كم معطف سكاتل، واندفع على الأرض. صرصور.

ارتطمت ليديا بكاو عند تراجعها إلى الخلف قائلة: «مقرف!».

قال سكاتل: «هناك المزيد من هذا».

وأغمض عينيه كما لو أنه يصلّي، ثم بدأت الحشرات تتدفق من كلا الكمّين على شكل موجة مخيفة من القشور السوداء والأرجل الملتوية. مئات الصراصير خرجت من ملابسه، ونزلت إلى الأرض. شهق كاو وتراجع إلى الخلف، فيما استمرت الصراصير في الخروج من سروال سكاتل أيضاً، وتراكمت فوق بعضها على شكل موجة لامتناهية.

قالت ليديا: «كاو؟». وكان صوتها عبارة عن همس مذعور.

تمتم: «هذا غير ممكن. من أين تأتي؟».

انتشرت الصراصير على الأرض، وتوجهت مباشرة صوبهما، فيما صرخت ليديا عالياً. أمسك كاو بيدها ودفعها في اتجاه باب جانبي. لحقت بهما الصراصير ضمن كتلة مندفعة مصدرة صوتاً خفيفاً.

كادا يصلان إلى الباب عندما صرخت ليديا: «كاو، توقف!».

توقف كاو فجأة فيما سحبته إلى الخلف، ثم أحسّ بحركة في الممر خلف الباب، وظهرت ثلاثة أشكال عملاقة، ودخلت عبر الباب. إنها كلاب، وكانت أجسامها مليئة بالعضلات تحت شعر قصير مع عيون صفراء محدقة فوق أفواه مجعدة.

خرجت أصوات هدير عميقة من صدورها، وسال اللعاب من أفواهها السوداء التي كشفت عن أنياب مسننة.

فيما توجهت الصراصير صوبهما، قفز كاو إلى طاولة، وسحب ليديا قربه. أمسكت بذراعه بقوة، وامتلأت عيناها ذعراً.

قالت: «تستطيع الصراصير التسلق، أتعرف ذلك؟».

غطت الموجة السوداء للحشرات قوائم الطاولة، وبدأت تزحف فوق حافتها. ركلها كاو، فبعثر أول موجة على الأرض. لكن المزيد منها تدفق، وطوّقهما من كل الجهات. قفزت ليديا، وهبطت لتسحق مجموعة منها، ثم قفز كاو خلفها. غاصت قدماه فيها، لكن في اللحظة نفسها تقريباً، تسلقت الصراصير قدميه وساقيه، ضمن موجة موجبة للوخز والحكاك.

قفز كاو فوق الصراصير المهتاجة، ساحقاً المزيد منها مع كل خطوة. سمع ليديا تصرخ مجدداً، ثم ارتطم شيء بجانبه فوقع. ملأت أنفه رائحة أنفاس مقرفة، وأدرك أنه أحد الكلاب. نجحت قائمتا

الكلب الأماميتان في تثبيت ذراعيه، فيما أخرج وزنه كل الهواء من داخله. انفتح فكا الكلب على مسافة سنتيمترات قليلة من وجهه. كان واثقاً من أن تلك الأنياب ستنغرز في أية ثانية في اللحم الطري لوجنته. أحس بالصراصير تهرب بعيداً عنه، كما لو أنها خائفة.

قال جاوبون: «ما كنت لأتحرك لو كنت مكانك». برم كاو رأسه بعيداً عن الأنياب، ورأى أنه قد تم بطح ليديا أيضاً. أما الكلب الثالث فكان جالساً بشكل مطيع إلى جانب جاوبون، وهو يلعق يده. «تستطيع كلابي تمزيق حنجرتك إرباً».

الكلب المنبطح فوق كاو أخفض فمه وهدر، فتجمّد كاو في مكانه، وأغمض عينيه. أحسّ بجوع الكلب الكبير، وأدرك أنه لا يريد شيئاً أكثر من تمزيقه إرباً، لكنّ ثمة شيء يكبحه.

ثم جاء صوت المرأة: «لا غربان لمساعدتك هذه المرة».

فتح كاو عينيه مجدداً، ورآها واقفة قرب ليديا، تتأملها مثل عيّنة مثيرة للفضول. كان صدر ليديا يرتفع وينخفض بسرعة، فيما كشفت تعابير وجهها عن اشمئزاز. ثمة أفعى - تماماً مثل تلك التي قتلت بنجي - ملتفة حول ذراع مامبا. ارتاح عنق الأفعى ورأسها على معصم مامبا، فيما داعبت هذه الأخيرة حراشفها بأطراف أظافرها السوداء الطويلة. وخفق لسانها مرتعداً بسرور.

صرخ سكاتل: «ماذا فعلت بها!».

كان جالساً القرفصاء قرب مجموعة من الصراصير المسحوقة، يغرفها بيديه ثم يفلت قشورها المتكسرة عبر أصابعه، وانهمرت الدموع على وجهه. أما بقية الصراصير فقد اختفت بسرعة.

من هم هؤلاء الأشخاص؟!

حدّق الرجل محدّب الظهر في كاو وليديا، وكانت عيناه رطبتين

بسبب الدموع وغاضبتين. صرخ: «اتركا لي مهمة قتلهما. اتركا صراصيري الصغيرة تزحف إلى داخل فميهما وتأكلهما من الداخل!».

توجه صوبهما، لكن الكلب الثالث قطع طريقه وزمجر، فيما تراجعت أذناه صوب الخلف.

قال جاوبون: «ليس الآن. تذكر سبب وجودنا هنا».

ليس لقتلنا إذاً. رغم خوفه، حاول كاو التفكير بوضوح. كنا بالتأكيد ميتين الآن لو كانت هذه خطتهم.

فجأة، قام الكلب المنبطح فوق كاو برفع رأسه، مع أذنين منتصبتين. وفعل الكلبان الآخران الشيء نفسه.

بعد هنيهة، سمع كاو صوت صفارات، ودخل الأمل قلبه.

صرخت مامبا: «الشرطة! كيف عرفوا بالأمر؟».

برم جاوبون رأسه الضخم في اتجاه جثة الآنسة والاس، وزمجر ثم قال: «لا بد أنها ضغطت على زر الذعر مباشرة قبل موتها».

توقفت السيارات فجأة في الخارج، وشاهد كاو عبر زجاج النوافذ وميض الأضواء الزرقاء والحمراء.

صرخت ليديا: «النجدة! ساعدونا!».

سأل سكاتل وهو يجول بعينيه في الأرجاء: «ماذا نفعل؟».

تحرّك باب المكتبة بقوة، وخشخشت السلسلة.

قال جاوبون بهدوء: «سنذهب». وقعت عيناه على ليديا فتابع قائلاً: «أحضرا الفتاة».

اندفعت مامبا وسكاتل إلى الأمام، وأحسّ كاو بوزن الكلب ينزاح عن صدره. برم في الوقت المناسب ليرى سكاتل يرفع ليديا عن الأرض ويرميها فوق كتفه. ركلت وصرخت، وانفلت شعرها الأحمر من ضفيرته. اندفع كاو خلفها، لكن ضربة قوية أصابته على وجنته،

فوقع على مكتب الآنسة والاس مذهولاً. وقفت مامبا أمامه، لم يرها أبداً تتحرك، ولا حتى وهي تضربه. نظر إليها عن كثب، ورأى وجهها بتفصيل أكبر. وجنتان طويلتان، شفتان سوداوان تقريباً، عينان تلمعان مثل الجواهر النفيسة. ثم استدارت بسرعة ولحقت بالآخرين.

مدّ جاوبون يده إلى جيبه وسحب شيئاً بحجم تفاحة. نقر على زر في الأعلى ورماه ليبرم وسط الغرفة. خرجت سحابة من الدخان، وانتشرت بسرعة من الأرض إلى الأعلى.

صرخت ليديا: «أنزلني!».

تأمل كاو مكتب الآنسة والاس ورأى مثقّلة الورق، فأمسك بها، وصوّب على هدفه، ثم رماها عبر المكتبة. ارتطمت برأس سكاتل، فسقط الرجل على ركبتيه مفلتاً ليديا. تراجعت ليديا إلى الخلف، فيما أسرعت مامبا إلى جانب سكاتل. بعد لحظات، اختفيا وسط الدخان.

صرخ سكاتل: «تلك الحقيرة الصغيرة! أين ذهبت؟».

قال صوت جاوبون: «اتركها! لا يمكننا المجازفة بإلقاء القبض علينا».

سمع كاو دوياً، ورأى عبر ثغرة في الدخان المتصاعد البابين الأماميين يفتحان على مصراعيهما. ركع شرطي على ركبة واحدة، فيما تدفق الضوء إلى الداخل. أضاءت المصابيح الدخان، وملأ الصراخ الهواء.

«شرطة!».

«لا تتحركوا!».

تجمّد كاو قرب جثة الآنسة والاس، ولمح ظل ليديا يتحرك بين الرفوف على مسافة عشرة أمتار.

أبهره ضوء مصباح.

وصرخ شرطي: «ارفع يديك كي أستطيع رؤيتهما!».

أحنى كاو رأسه بسرعة، واختفى في سحابات الدخان. دوّى صوت رصاصة واحدة، وانفجر الرف قرب رأسه متحوّلاً إلى شظايا. انطلقت رصاصتان أخريان ودخلتا الجدار.

قالت ليديا: «انتظر!».

وعندما وصل إلى جانبها، بالكاد استطاع رؤية أي شيء. تنشق الكثير من الدخان وسعل، واحترقت رئتاه من الداخل.

قال: «هيا». ودفع ليديا صوب الباب الذي دخلت منه الكلاب.

انطلق المزيد من الرصاصات في الهواء فوق رأسيهما.

صرخ صوت: «أوقف نيرانك، قد يكون هناك رهائن!».

توقف أزيز الرصاص، فيما سحب كاو ليديا في الممر. اجتازا أبواباً عدة قبل أن يصلا إلى مجموعة من السلالم المؤدية إلى الأسفل. نزل السلالم بمعدل ثلاث درجات في كل مرة، ولحقت به ليديا. في الأسفل، دفع كاو باباً عليه صورة رجل، ووجد نفسه في حمام. ثمة نوافذ على مستوى الرأس فوق الأحواض.

قالت ليديا: «كاو، توقف! الشرطة إلى جانبنا».

أجاب كاو: «لا، هذا ليس صحيحاً». صعد فوق مرحاض وفتح مقبض النافذة، لكنه لم يستطع تحريك لوح الزجاج، فضربه براحة يده.

قالت ليديا: «سوف نشرح لهم ما حصل، وسوف يصدقوننا». ولم تصعد معه.

قال كاو: «ساعديني!». ودفع إطار النافذة مجدداً، فتزحزح قليلاً.

نظرت ليديا إلى الخلف في اتجاه الباب. «كاو، سيظنون أننا مذنبان إذا هربنا!».

سحب كاو يده إلى الخلف وضرب النافذة مجدداً، فانفتحت مسافة نصف متر تقريباً، وتقشر الطلاء اليابس عن الإطار. مدّ لها يده قائلاً: «أرجوك ليديا. ألا تفهمين؟ إذا ألقوا القبض عليّ، فلن أخرج أبداً مجدداً. سيضعونني في ميتم».

حدّقت ليديا فيه، وسكتت. عرفت أن هذا صحيح.

أخذ كاو يدها، وساعدها على الصعود، ثم قال لها: «أنت أولاً».

صدحت أصوات مرتبكة من الخارج: «ادخلوا غرفة واحدة في كل مرة!».

«توخوا الحذر الشديد، قد يكونون مسلحين».

«غرفة خالية!».

خرجت ليديا عبر الفتحة، ودفع كاو نفسه خلفها. سمع باب الحمام يغلق بقوة، فسحب جسمه صوب الطريق في الخارج. لم ينظر إلى الخلف فيما ركضا عبر مرأب السيارات، مروراً أمام سيارة الآنسة والاس.

صرخ صوت: «هاي أنت! توقف!».

هدر محرك سيارة، واعترضت سيارة شرطة طريقهما. خرج منها شرطيان، وحاول أحدهما رفع مسدسه. لكن قبل أن يخرج المسدس من قرابه، انقضّ سكريتش على ذراعه، فتراجع الشرطي إلى الخلف بدهشة كبيرة، فيما نزع غلام القبعة عن رأسه. ركضت ليديا في اتجاه ممشى. فتح الشرطي الآخر ذراعيه للإمساك بكاو الذي أحنى جسمه قليلاً.

قال: «لن تذهب إلى أي مكان أيها الولد». لكن كاو ركض بكل قوته صوبه، وشعر لوهلة أنه من دون وزن، كما لو أنه غراب أيضاً. قفز عالياً، فارتطمت ساقاه بكتف الشرطي، وانقلب العالم رأساً على عقب

فيما وقع على الأرض.

هبط كاو على ظهره فوق غطاء محرك السيارة، ثم انزلق نحو الجهة الأخرى. استدار الشرطي، وقد فتح عينيه بذهول، فيما ركض كاو خلف ليديا ومعطفه منتفخ خلفه.

بعد لحظات، سمع أصوات أقدام رجال الشرطة تقترب منهما.

كان ثمة سرب عملاق من طيور الحمام يأكل على الأرض أمامهما، فاندفع كاو مباشرة صوبها. حلقت الطيور إلى الأعلى وهي تشعر بذعر شديد. وعندما نظر كاو إلى الخلف، رأى رجال الشرطة وهم يحاولون شق طريقهم عبر الأجنحة الخافقة.

فوقهما، حلّق شكلان أسودان؛ غلام وسكريتش.

قالت ليديا: «أي طريق نسلك؟».

أشار سكريتش وغلام إلى اليسار، فقال كاو وهو يشير بيده: «اتبعي الغرابين».

سلكا الممرات الملتوية عبر الأنحاء المجاورة للنهر في بلاكستون، فيما الغرابان يطيران مباشرة أمامهما.

وعندما توقفا عن الركض، أصبحا أمام تقاطع تمتد منه إحدى الطرق الرئيسة صوب الشمال. صدحت صفارات الإنذار بين الحين والآخر في الضواحي المجاورة، لكنهما أضاعا رجال الشرطة. كاد نَفَس كاو ينقطع، وانحنت ليديا إلى الأمام قائلة: «كان هذا... ركضاً مهماً. هل أنت واثق من أنك لا تمضي بعض الوقت في السيرك؟».

هزّ كاو رأسه. لا يعرف كيف فعل ذلك، إلا أنه... فعله.

هبط غلام على الأرض عند أقدامهما، فيما حطّ سكريتش على مظلّة مقهى في الجهة المقابلة.

قال كاو: «لقد جئتما».

قال غلام وهو يرفع منقاره بكبرياء: «لم أشأ ذلك، لكن سكريتش أقنعني. لحسن حظك».

قالت ليديا: «قل لهما شكراً».

قال غلام: أخبرها أننا لا نحتاج إلى شكرها. كاو، ألا ترى أنها خطيرة؟

سألت ليديا: «ماذا قال؟».

كذب كاو: «قال إنه لا داعي للشكر».

قال غلام: هذا يكفي كاو. تؤدي هذه الطريق إلى الحديقة العامة. قل لها وداعاً.

قالت ليديا: «يجدر بنا الذهاب إلى والدي. سيعرف ما يجب فعله».

قال غلام: طبعاً لا. لا تصغِ إليها.

قال كاو: «لا أستطيع. لن يفهم».

أبعدت ليديا خصلة من شعرها عن وجهها وقالت: «سوف نشرح له. ليس من رجال الشرطة، وهو ليس ضدك. إنه والدي!».

قال غلام: لا يمكنك الوثوق فيه.

وجهت ليديا نظرة منزعجة إلى الغراب، كما لو أنها فهمت تقريباً صيحاته.

قالت: «والدي ليس مهتماً بك، إنه يريد فقط أولئك السجناء».

عرف كاو أن السيد ستريكهام ليس رجلاً سيئاً، لكنه ليس صديقاً أيضاً.

ألحّت ليديا بالقول: «ألا تفهم؟ نحتاج إلى أشخاص معنا. لا يمكننا مواجهة هذا بمفردنا».

قال غلام: لست بمفردك. نحن معك.

هزّ كاو رأسه وحدّق في الغراب قائلاً له: «لقد أنقذتنا غلام. أعرف أنك فعلت ذلك، لكن ثمة شيء كبير يجري هنا. لقد قتلوا الآنسة والاس. وذلك العنكبوت في كابوسي له علاقة بالأمر. كان مرسوماً على الجدار، و... وضعوا شبكة عنكبوت فوق فمها». أحسّ بانقباض في حنجرته، فتمتم: «لا بدّ أنها خافت كثيراً».

أمال غلام رأسه ونظر إلى الأعلى. لحق كاو باتجاه نظراته، وشاهد ميلكي للمرة الأولى جاثماً على حافة صحن قمر صناعي.

سأل كاو: «متى وصل إلى هناك؟».

أجاب غلام: كان يراقبنا طوال الوقت.

أصدر ميلكي صوت قرقرة ناعمة لم يسمعها كاو من قبل.

طار سكريتش وحطّ على كتف كاو، وقال: هل رأيت كيف نلت من ذلك الشرطي؟ الله!

قال كاو: «نعم رأيت». وابتسم بخجل. «أنا آسف على ما قلته قبلاً. لا أستحق مساعدتك».

فيما خرج الولدان برفقة الغربان إلى الشارع الرئيس، رأى كاو حمامة فوق مصباح الشارع.

قال وهو ينظر إلى العينين الجامدتين للطائر: «لقد ساعدتنا طيور الحمام أيضاً، أليس كذلك؟».

قال سكريتش: مجرد صدفة. وأطلق صيحتين قاسيتين فطارت الحمامة.

تاه كاو في أفكاره فيما أسرعا صوب منزل ليديا. وفيما بدأ أدرينالين المطاردة يختفي من جسمه، أصبح قلبه ثقيلاً.

قالت ليديا: «تعرف جيداً أنك لست المسؤول». كما لو أنها

حزرت ما يفكر به. كانا كلاهما ينتبهان إلى أي دليل يشير إلى تواجد الشرطة فيما نزلا مسرعين في شارع جانبي مقفر. حلقت الغربان أمامهما عند مفترقات الطرق، وصاحت مرتين إذا كانت الطريق خالية، أو مرة واحدة إذا لم تكن خالية. اختبأ كاو وليديا مراراً خلف السيارات المركونة؛ فقط لتوخي الحذر.

قال كاو: «كانت ستبقى على قيد الحياة لولاي. شعرت أنه تمت ملاحقتنا في أول مرة ذهبنا فيها إلى المكتبة. لا بد أنهم أولئك السجناء. لو لم أطلب منها المساعدة، لربّما...».

برز سؤال آخر في باطن عقله. من أو ما هو كوايكر؟ ولماذا كانت الكلمة مهمة جداً لدرجة أن الآنسة والاس أبقتها في يدها، حتى عندما قتلت؟

أمسكت ليديا بذراعه. وعندما نظر إلى الأعلى، رآها تتوسل إليه بعينيها. «كاو، أولئك السجناء قتلوا الآنسة والاس وليس أنت. وحين تلقي الشرطة القبض عليهم، سوف يسجنهم أبي ويحرص على ألا يخرجوا أبداً من جديد. اتفقنا؟».

شعر كاو بالامتنان لكلماتها، حتى لو لم يكن مقتنعاً بها تماماً. أحسّ بغضب قوي ومفاجئ يشتعل في صدره. أولئك المجرمون يستحقون ما هو أسوأ من زنزانة سجن؛ أسوأ بكثير.

بعد بضع جولات إضافية، ظهرت أخيراً جدران الحديقة العامة في نهاية الطريق، ومن ثم ظهر منزل آل ستريكهام.

سأل كاو وهو يشعر فجأة بالارتياب: «هل أنت واثقة من هذا؟ أقصد، لا يحبني والداك، أليس كذلك؟».

قالت ليديا: «ليس هذا بالضبط. أنت فقط مختلف قليلاً».

قال غلام وهو يندفع أمامهما: ساحر. سوف ننتظر هنا.

حطّت الغربان الثلاثة على الأغصان في شجرة الزان. اختار ميلكي غصناً أعلى من الغصنين اللذين حط عليهما الآخران. بدت عيناه الشاحبتان كما لو أنهما تلاحقان كاو. أصبح بعد الظهر بارداً، مع غيوم رمادية متلبدة في السماء.

فتحت السيدة ستريكهام الباب بقوة قبل أن يصلا إلى منتصف الممشى.

سألت: «أين كنت أيتها الآنسة الصغيرة؟».

أجابت ليديا: «ماما، نريد التحدث إلى بابا».

قالت السيدة ستريكهام: «يتحدث والدك عبر الهاتف. وماذا يفعل هذا الصبي هنا مجدداً؟». حدّقت عيناها في شيء خلف كاو، وأصابها الشحوب. استدار كاو ورأى أنها كانت تنظر إلى الغربان. قالت: «ادخلي».

صعدت ليديا الدرج.

قالت أمها فيما حاول كاو اللحاق بها: «فقط أنت ليديا».

توقفت ليديا وقالت: «إنه صديقي. لن أدخل من دونه».

أحسّ كاو ببعض الكبرياء. لم يقل عنه أحد إنه صديقه طوال حياته.

فتحت السيدة ستريكهام فمها، ولكنها ترددت، أو لم تعرف ماذا تقول. تبدّل تعبيرها، وبدت فجأة حزينة أكثر مما هي غاضبة.

ظهر السيد ستريكهام خلفها، واضعاً الهاتف على أذنه. كان يقول: «شكراً جون، أبقني على اطلاع بما يجري». بدا منهكاً فيما أنهى المكالمة، لكن وجهه عاد إلى الحياة عندما رأى ابنته. «ليديا. الحمد لله أنك بخير». انتقلت عيناه صوب كاو بعصبية، ثم استدار صوب زوجته. «يقول المحقق ستاغ إنه حصل نوع من... حادث في

المكتبة. يبدو أن المحقق مهتم جداً في ذلك».

قالت ليديا: «أعرف. كنا هناك».

نظر السيد ستريكهام جيداً إلى ابنته، ثم صرخ: «كنت ماذا؟».

تقدم كاو محاولاً أن يبدو جريئاً، وقال: «رأينا القتلة. إنهم السجناء الفارون».

صرخت السيدة ستريكهام: «طوني! هذا الصبي...».

قال السيد ستريكهام: «دعيه يدخل. يبدو أنكما تملكان بعض التفسيرات».

لاحظ كاو لوحاً خشبياً إضافياً مثبتاً فوق الفتحة الهوائية في الممر.

تمتم السيد ستريكهام شيئاً أمام زوجته، ثم استدار صوب كاو، وقال: «هل تمانع الانتظار في غرفة الجلوس قليلاً ريثما أتحدث مع ليديا وحدها؟».

أومأ كاو برأسه، ورافقه السيد ستريكهام إلى غرفة أخرى كبيرة مليئة بأرائك فخمة جداً وموقد مشتعل. ثمة بابان مزدوجان يؤديان إلى شرفة مؤطرة بالحديد ومطلة على الحديقة الخلفية، وبعدها على السجن. أشار السيد ستريكهام إلى أريكة، وأدار جهاز التلفزيون، فيما جاءت السيدة ستريكهام مع كوب ماء. قدّمته إلى كاو من دون التفوه بكلمة، ثم غادرت مجدداً. ضغط السيد ستريكهام على جهاز التحكم عن بعد، وأصبح الصوت أعلى. كانت ثمة امرأة تتحدث عن أسعار الوقود.

قال السيد ستريكهام: «سأعود بعد دقيقة». ثم غادر الغرفة، وأغلق الأبواب خلفه.

ارتشف كاو الماء، محاولاً تركيز أفكاره. ما الذي أراد أولئك

المجرمون فعله في المكتبة؟ ليس قتلهما؛ هذا مؤكد. لكن ما فعلوه مع الآنسة والاس أظهر كم يمكن أن يكونوا عديمي الرحمة. ما هي علاقتهم بالعنكبوت؟

ماذا عن كوايكر؟

المرأة التي على الشاشة لمست أذنها، وتم تسليمها قصاصة ورقية من قبل شخص خارج حقل التصوير.

قالت: «وردنا الآن. تتحدث الشرطة عن موت مريب في مكتبة بلاكستون. الضحية هي الآنسة جوزفين والاس، مسؤولة المكتبة طوال العقد الأخير. لا تزال الشرطة تحاول معرفة الحافز، لكن يجدر بأي شخص يملك معلومات أن يتصل...».

سمع نقرة على النافذة جعلته ينظر إلى الأعلى. إنهما سكريتش وغلام يجثمان على درابزون الشرفة في الخارج.

توجه كاو بسرعة صوب النافذة. كانت مقفلة ومن دون مفتاح في القفل. وضع فمه على الفتحة الصغيرة، وقال: «ما الأمر؟».

قال سكريتش: ميلكي قلق بشأنك. لا يثق فيهما.

قال كاو: «من؟ آل ستريكهام؟ هل قال ذلك؟».

أجاب سكريتش: نوعاً ما.

قال كاو وهو يبرم عينيه: «نوعاً ما؟ اسمع، أعرف أنك لا تحب ليديا، لكنها تقف إلى جانبي. وأعتقد أن والدها يفعل ذلك أيضاً».

قال غلام: حقاً؟! في هذه الحالة، لماذا سجنك في الداخل؟

تجمّد دم كاو في عروقه. «لم... لم يفعل».

قال غلام: إذاً حاول فتح الباب.

ابتعد كاو عن النافذة، واستدار حول الأريكة، ووضع أصابعه على مقبض الباب. وعندما ضغط عليه لم يتحرك.

الفصل التاسع

ضغط كاو بقوة أكبر للتأكد، وأحس بالقشعريرة في جسمه.

ألقى نظرة على الغرابين، وهزّ غلام رأسه كما لو أنه أراد القول: «قلت لك ذلك».

وضع كاو أذنه على الباب. مع ضجيج التلفزيون، كان من الصعب سماع ما يجري في الخارج.

كان السيد ستريكهام يقول: «... للأفضل...».

كان صوت ليديا أعلى. «لكن، لا علاقة أبداً لكاو بالأمر. أقسم!».

قاطعتها السيدة ستريكهام. «أنتِ لا تفهمين. عندما تنتهي هذه المسألة، سوف تشكريننا».

«أرجوك بابا، لا تفعل».

قال السيد ستريكهام: «لقد حسم الأمر. سأتصل بالمحقق ستاغ. سوف نحضر سيارة شرطة إلى هنا».

قالت ليديا: «لا! كيف يمكنك؟».

عادت عينا كاو إلى النافذة المقفلة، ثم قفز فوق الأريكة في اتجاه رف الموقد. كان مليئاً بالأغراض المزخرفة. هناك ثلاث أوانٍ صغيرة، فقلبها بسرعة. أين المفاتيح؟ ذهب إلى منضدة عالية عليها خزف صيني وأوان زجاجية، وفتح درجاً بشكل نصفي، وفتشت يداه

فيه، ولكنه لم يجد سوى الأوراق داخله.

تمتم لنفسه: «لا، لا، لا...».

ثم استقرت عيناه على النبتة المزروعة في وعاء. أسرع صوبها ورفعها إلى الأعلى. لا شيء تحتها. لكن وعاء السيراميك أزرق اللون ثقيل. إنه ثقيل كفاية.

مشى صوب النافذة رافعاً الوعاء على مستوى الكتف. لا بدّ أن الغرابين عرفا بما يخطط له؛ لأنهما طارا صوب السماء.

تردد كاو. هل يستطيع فعلاً القيام بذلك؟ ثمة شيء يحدّق فيه من الجدار؛ صورة للسيد ستريكهام وهو يصافح امرأة شرطية ويبدو مزهواً بنفسه.

نعم، يستطيع.

صوت التحطم عند ارتطام الوعاء بالزجاج بدا عالياً جداً، ووقع كل لوح النافذة على الأرض على شكل شظايا مسننة.

صرخت السيدة ستريكهام: «ما هذا؟».

خفق قلب كاو بقوة، وتسلق عبر بقايا النافذة، ووضع كلتا يديه على الشرفة وقفز. هبط على العشب في الأسفل، ثم اندفع إلى الأمام صوب السور البعيد. فيما تسلق إلى أعلى السور، رأى الطريق الجانبي المؤدي إلى الحديقة العامة؛ إلى الأمان. نظر إلى الخلف فيما خرج السيد ستريكهام إلى الشرفة، ووجهه شاحب. صرخ عالياً: «عد إلى هنا».

استدار كاو وركض بعيداً، ونزل إلى الجهة الأخرى من السور، وركض صوب جدار الحديقة العامة.

بعد دقيقتين، دخل عبر الباب الأفقي في العش، وكان يلهث

بقوة. جثم ميلكي على الغصن في الخارج، فيما انتظر غلام وسكريتش على الأرضية، جاثمين جنباً إلى جنب، وهما يراقبانه بحذر، كما لو أنهما عرفا مزاجه.

زحف كاو إلى حافة العش، ودفن رأسه بين يديه. لماذا وافق على الذهاب إلى منزل ليديا مجدداً؟ لم يكن يجدر به التخلي عن الحيطة والحذر. وها هو الآن قد خسر كل شيء. لقد تبددت أية فرصة لديه في الاحتفاظ بصديقته الجديدة؛ تماماً مثلما تحطمت النافذة.

قال غلام: لا تقلق. نحن هنا للاعتناء بك.

أضاف سكريتش: تماماً مثل الأيام الماضية.

نظر كاو إليهما، وهزّ رأسه. إنهما لا يفهمان. لا يستطيعان فهمه.

إنه لا يملك أحداً. والدا ليديا قد يحبسانها داخل المنزل لأسابيع، ولن يسمحا لها بالمجيء إلى الحديقة العامة مجدداً.

ستنتشر الشرطة في كل أرجاء المدينة بحثاً عنه، وبالتالي سيستحيل عليه تقريباً إيجاد الطعام بأمان.

قال كاو: «لا أصدق أنهما خاناني. لماذا لم يصغيا إلى ليديا؟».

قال غلام: إنها مجرد طفلة. من الأفضل أن تبقى بعيداً عن تلك العائلة.

شعر كاو بالإحباط وقال: «أنت محق ربما».

قال صوت رجل: «مرحباً أيها المتكلم مع الغربان».

كاد كاو يقفز في الهواء، ودفع نفسه إلى جانب العش. اهتاجت الغربان، وراحت تصرخ وتخفق بأجنحتها فيما تم سحب الستارة الموجودة في وسط العش. قال كاو باكياً: «ما...؟».

نظر إليه وجه ملطخ بالأوساخ. إنه الرجل المشرد، الرجل الذي أنقذه من العصابة خارج مطعم الوجبات السريعة. إنه هنا، يجلس

القرفصاء في العـش. لمعت عيناه الزرقاوان فضـولاً، فصرخ كاو رافعا قبضتي يديه: «اخرج من هنا!». حطّ سـكريتش وغلام أمامه، مجهزين منقاريهما.

قال الرجل وهو يضرب الهواء بقفّازيه الخاليين من الأصابع: «لا تخف. لست هنا لأؤذيك».

قال كاو: «كيف وصلت إلى هنا؟». ونظر بغضب إلى سكريتش وغلام. «لماذا لم تنذراني؟».

قال غلام، مطلقاً مجموعة صيحات عدائية: لا بدّ أنه تسـلل حين كنا خارج المنزل.

قطّب كاو جبينه، وبدا مذهولاً. «لكن ميلكي كان...».

قال الرجل: «يعرف الغراب الأبيض أني هنا».

قال كاو: «ماذا!؟».

«شـريكي بيـب كان يراقبك. أرجـوك أيهـا المتكلم مـع الغربان، هناك الكثير من الأمور التي يجب مناقشتها».

«توقف عن مناداتي هكذا! اسمي كاو».

قال الرجل وهو يبتسـم بغرابة: «حقاً؟ لكنك تتكلـم مع الغربان، أليس كذلك؟».

كان كاو يتنفس بقوة، وقال: «نعم. وماذا إذاً؟».

«بالفعل مـاذا إذاً؟ تقول إنه ليس شـيئاً مميزاً. أنـت تعرف آخرين يستطيعون التحدث مع الحيوانات، أليس كذلك؟».

بدأ قلب كاو يخفق بسـرعة أقل، واعترف قائـلاً: «لا». لكنه فكّر في السجناء في المكتبة. تلك الكلاب والصراصير والأفعى...

طقطق الرجل براجمه، وقفزت حمامتان أمامه.

قال سكريتش: اخرجا من عشنا!

قال الرجل: «تعرّف إلى صديقيّ. إلى يساري بلو، وإلى يميني ..لبكتايل. كنت محظوظاً لأنهما لمحتاك قبل أن تصادف أولئك الأولاد خلف مطعم الوجبات السريعة. أنت محظوظ أكثر مما تظن».

فر طائرا الحمام. «وأنا اسمي كرامب».

قال كاو: «أيمكنك التحدث إليهما؟».

قال سكريتش: طبعاً لا يستطيع. طيور الحمام تفهم فقط شيئاً واحداً. بيك، بيك، بيك. طوال اليوم.

قال كرامب: «منذ أن مات أبي، سمعت أصواتها. قبل اثني عشر عاماً تقريباً. بالمناسبة، هذا المكان جميل». دفع الباب الأفقي بأطراف أصابعه. «يمكنك تحسين الديكور، لكن الجو حميم».

خفق ميلكي بجناحيه تحت الفتحة عند طرف القماش المشمّع، وصاح عالياً.

قال غلام: أحدهم قادم!

جلس كرامب القرفصاء بسرعة؛ أسرع مما تصوّر كاو أنه ممكن. تراجع بصمت إلى حافة القماش المشمّع ونظر إلى الجانب.

اقترب كاو من الفتحة الصغيرة ونظر إلى الأسفل. رأى عبر شبكة الأغصان ليديا عند جذع الشجرة.

نادته: «كاو؟».

وضع كرامب إصبعاً متسخة على شفتيه.

قالت ليديا: «كاو، هل أنت فوق؟ أريد فقط التحدث إليك».

همس كرامب: «من هي؟».

هدلت إحدى الحمامتين، ونظر كرامب جانبياً إليها.

قال: «من المكتبة؟».

هزّت الحمامة رأسها وهدلت مجدداً. قطّب كرامب جبينه.

قالت ليديا: «أرجوك كاو. أريد فقط القول إني آسفة. كان سوء تفاهم».

استعر غضب كاو، وفتح الباب الأفقي صارخاً: «أراد والدك تسليمي إلى الشرطة!».

أخفضت ليديا رأسها. «أعرف. لقد ارتكب خطأ كبيراً. ظنّ أن هذا للأفضل».

صرخ كاو: «الأفضل لمن؟». لا يصدّق أنها تحاول إيجاد الأعذار. «ليس لي طبعاً».

سألت ليديا: «هل أستطيع الصعود؟».

قال سكريتش: مستحيل!

قال غلام: أبداً!

قال كاو: «لا أعتقد أنها فكرة جيدة. لا يثق والداك بي». نظر إلى الجميع؛ كان غلام يومئ برأسه راضياً، وأضاف كاو: «لا يمكننا أن نكون صديقين ليديا». أحسّ أن كل كلمة يقولها خاطئة.

صمتت ليديا لفترة طويلة، ثم قالت أخيراً: «أرجوك كاو، أنت لا تفهم. والدي لم يتصل بالشرطة. وعد بأنه لن يفعل. هل أستطيع الصعود؟».

قال غلام: لا تثق فيها.

ألقى كاو نظرة على كرامب، فقال هذا الأخير:

«ما كنت لأفعل، لكنه عشك».

حاول كاو التفكير بوضوح. طبعاً، لا شك في أن والدَي ليديا لا يحبانه، لكن ليديا نفسها... حسناً، لقد حاولت أن تكون صديقته.

قد يندم على الأمر لاحقاً، لكنه لا يستطيع صدّها.

قال: «هيا، اصعدي. أنتِ تعرفين الطريق».

قالت: «شكراً!». واستطاع كاو سماع الارتياح في صوتها. انكمش كرامب إلى الخلف صوب الجهة الأخرى من العش مع حمامتيه، فيما بدأت الأغصان تتحرك برفق. أخيراً، ظهرت ليديا من الباب الأفقي، وسحبت نفسها إلى الداخل.

وعندما لمحت كرامب، صرخت واندفعت صوب كاو.

قالت: «من هذا؟».

قال كاو: «ليديا، هذا كرامب».

فتح كرامب أصابعه الطويلة ومدّ يداً، كانت أظافرها مليئة بالأوساخ. أخفض رأسه في انحناءة صغيرة وقال: «سررت بلقائك ليديا».

نظرت ليديا إلى يده لجزء من الثانية قبل أن تصافحها. «هل أنت صديق كاو؟».

أجاب: «مجرد معرفة. هل أنت صديقة كاو؟».

نظرت ليديا إلى كاو وقالت: «أتمنى ذلك. كاو، أعرف أنك لا تثق في الشرطة، لكن يجدر بنا ربما التحدث إليها».

قال كاو: «قلت لك، لا أستطيع. سوف يأخذونني بعيداً. بعيداً عن الغربان، وعن العش. هذه حياتي».

قال سكريتش: أخبرها! مع إيماءة مشددة من منقاره.

قالت ليديا: «لكن الشرطة لن توقف البحث عنك. ستظهر صورتك في جرائد الغد، وفي نشرة الأخبار المسائية». كانت عيناها تتوسلان إليه. «ستتم مطاردتك».

قال كاو بتعاسة: «إذاً يجدر بي المغادرة، والعثور على عش آخر في مدينة أخرى». نظر إليه غلام وسكريتش بدهشة.

قالت ليديا: «وكيف ستصل إلى هناك؟ لا يمكنك قيادة سيارة،

ولا يمكنك استعمال وسائل النقل العامة. لن تتمكن من اجتياز مايل واحد من دون أن يتصل أحدهم بالشرطة».

انهار كاو. عرف أنها محقة. بالإضافة إلى ذلك، إنه يشتاق إلى حديقته بعد أن يغيب عنها ساعات قليلة فقط، وبالتالي مغادرة بلاكستون فكرة سخيفة.

فجأة، اندفعت حمامة داخل العش وهي تصرخ عالياً.

قال كرامب: «ماذا؟ أين؟». فيما تيقظت عيناه الشاحبتان.

استوعب كاو فجأة حقيقة مريعة. لماذا جاءت ليديا إلى هنا؟ فوالداها يراقبانه مثل الصقر. قال لها بوحشية: «كيف حصل أن سمح لك والدك بمغادرة المنزل ليديا؟».

نادى صوت من الأسفل: «هيا، انزلا».

اتسعت عينا ليديا نتيجة الصدمة وقالت: «بابا؟».

أحسّ كاو أن قلبه قد انفطر. «لقد جئت به إلى هنا!».

قالت ليديا وقد أصبح وجهها شاحباً: «لا، لا لم أفعل».

حدّق كاو فيها، لكنها هزّت رأسها. «أقسم لك كاو. لا بدّ أنه لحق بي».

نظر كاو خارج عشه، وأحسّ أن قلبه قد تحول إلى حجر. هناك رجال شرطة أيضاً. على الأقل ثلاثة منهم يحيطون بالشجرة، بالإضافة إلى السيد ستريكهام.

قال أحد رجال الشرطة: «رأيت الصبي!». واضعاً يده على مسدسه.

قال السيد ستريكهام بصوت عالٍ: «اترك هذا. إنه مجرد ولد. وابنتي فوق في الأعلى، بالله عليك».

ترك الشرطي المسدس في قرابه.

وصرخ السيد ستريكهام: «كاو، هؤلاء الرجال أصدقائي. لن يلحقوا بك الأذى، أعدك. يمكننا تسوية الأمر معاً، لكن عليك النزول».

وضع كرامب يداً على كتف كاو وقال: «لا يستطيع هؤلاء الأشخاص مساعدتك. الأعداء الذين نواجههم... إنهم من جنسنا. إنهم خارقون».

علقت الكلمة في الهواء، حاملة معها شيئاً قديماً؛ شيئاً قوياً. بدت مألوفة بشكل غريب، رغم أن كاو واثق تماماً من أنه لم يسمعها أبداً من قبل.

قال كرامب: «أولئك الذين يتحدثون إلى الحيوانات. أعتقد أنك التقيت ثلاثة منهم لغاية الآن، رغم وجود العديد منهم».

قال كاو: «السجناء».

قالت ليديا: «طبعاً؛ الكلاب والصراصير وتلك الأفعى المخيفة!».

قال السيد ستريكهام: «ليديا؟ حبيبتي، انزلي أرجوك».

احمرّ وجهها غضباً، فيما انحنت فوق حافة الأرضية وصرخت: «لقد كذبت عليّ. قلت إنك ستسمح لي بالتحدث إليه».

قال السيد ستريكهام: «انتهى وقت الكلام! انزلي إلى هنا الآن!».

قال سكريتش: ماذا الآن؟ الفرصة الأخيرة؟

قال كرامب: «لا تستطيع الشرطة إيقاف أولئك الأشرار الذين يتكلمون مع الحيوانات. أصغ إليّ أيها المتكلم مع الغربان. ثمة طريقة أخرى للخروج من هنا».

قالت ليديا: «كيف؟». ورفعت يديها ونظرت إلى حدود العشّ. «الطيران؟».

وجّه إليها كرامب نظرة سريعة، ثم قال ببساطة: «نعم».

برمت ليديا عينيها، لكن كرامب لم يكن يبتسم.

قال: «أنا جـدّي». ونظـر إلى كاو، وقـد اتقدت عينـاه الزرقاوان. «اطلب من غربانك أن تحملك».

أشـار كاو إلى ميلكي وسـكريتش وغلام وقال: «هناك فقط ثلاثة منها. وهي لا تستطيع رفعي».

قال كرامب وهو يهز رأسه بإحباط: «إذاً، اطلب المزيد. هيا!».

قال كاو: «لا... لا أستطيع. لا أعرف كيف».

أمسـك كرامب بذراعه بقـوة وقال: «هـل جرّبت؟». وقـد انحنى قريباً جداً منه حيث رأى كاو الشق في سنه الأمامية. بيده الطليقة، مزّق كرامب القماش المشـمع الموجود وسط العش، سـامحاً بدخول ضوء النهار. قال: «راقب وتعلّم».

رفع كرامـب ذراعيـه وصفر. وخـلال ثـوانٍ، ظهرت بقع سـوداء في السـماء لجهة الشـرق. إنها طيور حمـام، المئات منها! حـدّق كاو بذهول فيما عبر سـرب الحمام فوق الحديقة العامة متجهاً صوبهم، ثم انخفضت الطيور إلى مستوى الأشجار، وحطّت الواحدة تلو الأخرى، على ذراعي كرامب وكتفيه.

صرخ السيد ستريكهام: «ماذا يجري في الأعلى؟».

ومـع وصـول المزيـد والمزيد مـن الطيـور، لاحـظ كاو أن ليديا مذهولة مثله تماماً. إنـه المنظر الأكثر غرابة الذي رآه فـي حياته، وإنما هو مألوف في الوقت نفسـه. كابوسـه؛ تلـك الليلة حين دفعتـه أمه من نافذة غرفة نومه فجاءت الغربان وحملته. المشهد مماثل تماماً.

قال أحدهم من الأسفل: «من أين أتت؟».

نظر كاو إلى الأسفل، ولمح شـرطياً يرتدي معطفاً ويقف بالقرب

من السيد ستريكهام يعطي أوامر صامتة بيديه لرجال شرطة آخرين. كانوا يقتربون أكثر فأكثر من قاعدة الشجرة.

قال كرامب: «والآن، حاول!». خفقت طيور الحمام بأجنحتها وهدلت فيما استقرّت فوق جسمه.

قال كاو، فيما خفق قلبه بقوة داخل صدره: «لن ينجح الأمر».

صرخ كرامب بقساوة: «افعل ذلك».

بعد إزاحة ستارة القماش المشمع إلى الجانب، وقف كاو منتصباً في العش. كانت ليديا تراقبه، مع بريق كبير في عينيها.

قالت وهي تومئ له بطريقة تشجيعية: «هيا، يمكنك فعلها. أعرف أنك تستطيع فعل ذلك».

مدد كاو ذراعيه، وقال كرامب: «اطلب منها أن تأتي!».

حاول كاو الصفير مثلما فعل الرجل الكبير، وقفزت غربانه الثلاثة إلى ذراعه. هذه المرة، لم يتفوه سكريتش أو غلام بأية كلمة، ولاحظ كاو أنهما كشفا عن تعبير غريب وفارغ، كما لو أن نشوة سيطرت عليهما. أغمض عينيه، وألح بالقول: تعالي إليّ! تعالي إليّ!

قال كرامب: «هذا صحيح. أنت تفعلها!».

أطبق كاو كفّيه وتخيل القوة في ذراعيه. تخيّل نفسه يجذب الطيور صوبه. فتح عيناً واحدة، ورأى في البعيد، فوق السجن، الطيور وقد بدأت تحتشد.

همست ليديا: «هذا مذهل!».

ركّز كاو على الشعور. وبعد ذلك، لم يعد مضطراً إلى التخيل لأن الأمر بات يحصل فعلاً. ليس فقط على ذراعيه، بل أحسّ بكرة دفء داخل معدته، راحت تكبر وتكبر إلى أن تمددت إلى أطرافه، ووصلت إلى أطراف أصابعه وما بعدها. انتصبت نصف دزينة من

الغربان على ذراعيه، وكان واثقاً من أنه لم يرَ هذه الطيور أبداً من قبل. أغمض كاو عينيه مجدداً، فيما سيطرت عليه الطاقة، وجعلته يشعر بالخفة، كما لو أنه لا يزن أكثر من ريشة. أحسّ بالمزيد من الغربان، بعدد غير متناهٍ منها، وضعت مخالبها على سترته. وكل طائر جثم عليه جعله يشعر أنه أقوى من قبل؛ أقوى وأكثر خفة.

أدرك كاو أنه لم يعد بوسعه الإحساس بالعش تحت قدميه وفتح عينيه. كان يطفو، فيما خفقت الغربان بأجنحتها معاً. عادت به الذاكرة إلى كل تلك الأعوام الماضية عند النافذة، وبدت الذكرى واضحة أكثر من أي وقت مضى. إلا أنها لم تكن هي نفسها البتة. في ذلك الحين، شعر فقط بالخوف والارتباك. أما اليوم، فهو يشعر بالسيطرة. أحسّ بالأجنحة الخافقة للغربان كما لو أنها جزء منه.

قال كرامب لليديا: «لتشبثت به لو كنت مكانك». لاحظ كاو أن قدمي المتكلّم مع طيور الحمام لا تلامسان العش أيضاً. كان عالياً مسافة نصف متر... لا بل متر كامل... فوق الألواح الخشبية.

سألت ليديا: «هل أنت جدي؟».

قال كاو وهو غير واثق من كلماته: «تشبثي بي جيداً». طوّقت ليديا خصره بذراعيها. ثمة جزء من دماغه عرف أنه ما من أحد عانقه هكذا طوال الحياة التي يذكرها، لكنه لم يشعر بالغرابة، بل شعر بالدفء والقوة. منحه ذلك المزيد من القوة.

قال السيد ستريكهام بصوت مذعور: «سنصعد. إذا ألحقت الأذى بابنتي، كاو...».

سأل كرامب وهو يقف على حافة العش: «هل أنت جاهز للانطلاق؟ عندما أعدّ حتى الرقم ثلاثة سنقفز. ثق في الطيور كاو، ولن تخذلك».

قال كاو لنفسه: أنا أثق فيها.

ثبّت قدميه قرب قدمي كرامب، فيما ظهر رأس شرطي عبر الباب الأفقي.

«واحد...».

استدار الشرطي صوبهم وفتح فمه مدهوشاً. نعقت مئات الغربان صيحات احتجاج.

قالت ليديا: «انطلق! بسرعة!».

«اثنان...».

نظر كاو إلى الأسفل عبر الأغصان. السقوط سيقتلهم من دون شك، لكنه لن يسقط. لا يستطيع.

قال كرامب: «ثلاثة!».

اندفع الشرطي إلى الأمام، فيما قفز كاو في الفراغ.

الفصل العاشر

دوّت صرخة في الهواء، وأدرك كاو أنها صرخته. كان ينزل بسرعة صاروخية إلى الأسفل، وتشبثت ذراعا ليديا بجانبيه.

وفجأة، توقفا عن السقوط. تحركت ساقا كاو في الهواء الفارغ، وعادت معدته إلى مكانها الأصلي. انطلقت رصاصة في الهواء من مسدس، وسمع كاو الصوت الناعم للرصاصة وهي تخترق الخشب.

صرخ السيد ستريكهام: «أوقف نيرانك! ليديا!».

رأى كاو أغصان الشجرة تبتعد عنهما بسرعة كبيرة، فيما حدّق والد ليديا ورجال الشرطة صوب الأعلى بذهول كبير. ومع كل متر ارتفعته الغربان، أحسّ كاو أنه بات أصغر، وأن جسمه بات أكثر هشاشة. إذا سقط الآن فسيموتان حتماً.

تمتمت ليديا: «لا يمكن أن يحصل ذلك!». وهي تتشبث به بقوة.

نظر كاو قربه، ورأى كرامب تنقله حماماته. لا بدّ أن وزنه يبلغ ضعف وزن كاو، لكن طيور الحمام لم تواجه أية مشكلة على ما يبدو. تحركت معاً وكأنها جسم واحد، وحلقت في اتجاه بوابات الحديقة العامة، وبدا كرامب مثل شخص رثّ في قبضتها. خلف كاو، تحوّل رجال الشرطة إلى نقاط، فيما بدت البركة الدائرية تحتهم مثل قطعة نقدية نحاسية متسخة.

خرجت ضحكة فرح خالص من بين شفتيه، وقالت ليديا: «كاو، لا أصدق ذلك». وهي منقطعة الأنفاس نتيجة الحماسة.

كان خفقان أجنحة الغربان ناعماً ومطرباً. وفيما تبدد خوف كاو، أحسّ أن خفقان قلبه قد تباطأ للتناغم مع إيقاعها. ليديا محقة؛ لا يمكن أن يحدث ذلك. إنه يتحدى كل قوانين الفيزياء والجاذبية. إنه... سحر.

ازدادت سرعتهم، وارتطمت الرياح بأجسامهم. اجتازوا السكك الحديدية، وحلّقوا فوق دخان المصانع، ثم أخذوا المنحنى الشمالي فوق بلاك واتر. بدا النهر من السماء مثل أفعى ملتفة عبر المدينة. ثمة مراكب قليلة تركت فوق سطحه الداكن خطوطاً بيضاء. حدّق كاو بذهول في المدينة التي تحولت إلى شبكة من الشوارع، ورقعة من أسطح المنازل. رأى المكتبة التي بدت صغيرة كفاية للوصول إليها واقتلاعها من الأرض. بعدها، ظهرت أطراف المدينة، أطراف لم يحلم يوماً في أن يراها. انبسطت مراعٍ باللونين الأخضر والبيج على امتداد الأفق، وتناثرت بينها مساحات هائلة من الغابات الداكنة.

تشبثت به ليديا، ووضعت قدميها على قدميه، والتف شعرها حول وجهه، ونظرت إليه مبتسمة ابتسامة عريضة؛ على الرغم من تحول شفتيها إلى اللون الأزرق نتيجة البرد. أحسّ بشيء من الذنب. لم يكن يجدر به أبداً الشك فيها.

توجهت حمامات كراسب غرباً صوب مغيب الشمس وتابعت طريقها، فأمر كاو غربانه باللحاق بها ففعلت، مسوّية أجنحتها بشكل منزلق. منحت الشمس وجهه الدفء، فيما تلاعب الهواء بشعره. اجتازوا بلاك واتر مجدداً، ورأى قطاراً يتحرك فوق جسر سكة الحديد. كانوا مرتفعين جداً؛ حيث لم يتمكنوا من سماع هدير محركاته.

أدرك أنهم متوجهون صوب دار عبادة، ارتفع برجها شاهقاً في السماء مثل خنجر. كان البناء محاطاً بأبنية منخفضة ومهدمة. حلقوا نزولاً، مباشرة فوق مرأب سيارات، صوب الباب العملاق لدار العبادة.

أسرعت الأرض صوبهم، وأحسّ كاو بنوبة ذعر مفاجئة. أفلتته بعض الغربان فهبط بضع أقدام، فيما عدّلت بقية الغربان تحليقها لتحمل الوزن. مدد ساقيه بطريقة فطرية، لكن الغربان انحدرت مع بعضها، وأرجعت أجنحتها إلى الخلف. وعلى ارتفاع متر تقريباً من سطح الأرض، أفلتته مخالبها.

صرخت ليديا بصوت عالٍ وأفلتت قبضتها، فارتطمت بالأرض وبرمت على نفسها. أضاعها بصر كاو فيما ارتطم بدوره بالأرض. عجز عن البقاء على قدميه، فثنى مرفقيه ووقع على جانبه؛ لينغرز الألم في ضلوعه.

وعندما توقف أخيراً، مرضوضاً ومضطرباً، رأى الغربان تتفرق في السماء مثل الرماد في الهواء. كل الغربان، باستثناء ميلكي وغلام وسكريتش. همس قائلاً: «شكراً».

ترجّل كرامب أمامهما وهبط بنعومة على قدميه. أخرج حفنة بذور من جيبه ونثرها على الأرض، ما جعل حماماته تنقضّ بسرعة لنقرها. يصعب التخيل فعلاً أنه قبل لحظات قليلة، كانت هذه الطيور تحمل إنساناً كاملاً في الهواء. ابتسم كرامب بطريقة ماكرة. «كان يجدر بي القول إن الهبوط صعب قليلاً».

وقفت ليديا على قدميها، ورفعت كاو إلى الأعلى وقالت: «حسناً، كان هذا مختلفاً».

أومأ كاو برأسه، محدقاً في ميلكي وسكريتش وغلام، وقال

بهدوء: «أتعلّم بعض الأمور أيضاً».

قال كرامب مشيراً إلى المبنى الضخم: «أهلاً بكم في مقرّ كرامب، أو بالأحرى في دار عبادة سانت فرانسيس، مثلما كانت تعرف قبلاً».

قالت ليديا: «هل تعيش هنا؟».

لا بد أن دار العبادة كانت ضخمة قبلاً - مثل العديد من دور العبادة الأخرى في بلاكستون - لكن يتضح جلياً أنها تضررت كثيراً نتيجة حريق. فالحجارة باتت سوداء في رقع كبيرة، واختفت نصف ألواح السقف؛ تاركة خلفها قطعاً خشبية متفحمة ومفتوحة مثل القفص الصدري المكشوف. جعل ذلك كاو يفكر في كائن متحلل تنقره الحيوانات الكاسرة.

قال كرامب: «لا يمكننا جميعاً الحصول على أسرّة من الريش ومياه صحية». وأنزل شفتيه نحو الأسفل قليلاً قبل أن ترتسم الابتسامة مجدداً على وجهه. «هيا، ادخلا».

طارت الحمامات عن الأرض، وخرجت عبر الفتحة الموجودة في السقف، لتستقرّ على الروافد الخشبية العالية.

قال كرامب: «لا داعي للقلق بشأن السلامة هنا». فيما دفع الباب بكلتا يديه، ولحق به كاو وليديا.

كانت ثمة فوضى عارمة داخل دار العبادة؛ فقد كانت الحجارة مغطاة برسوم الغرافيتي، ولم تبقَ نافذة واحدة من النوافذ المتسخة غير مكسورة. فاحت رائحة الرطوبة والنسيان، فيما علقت في الجهة الخلفية لحنجرة كاو رائحة شيء لاذع. كانت المقاعد الخشبية متناثرة في الزوايا، وثمة رمز ديني كان موجوداً سابقاً على الجدار في الطرف البعيد، لكن كل ما بقي منه جزء أكثر شحوباً من الحجر. تساءل كاو

عمّا إذا كان قد تـم إنقاذه عند اندلاع النيران في المبنى أم تمت سـرقته بكل بساطة.

بمعـدل درجتيـن كل مـرة، صعـد كاو درجاً حجريـاً ضيّقـاً على شـكل دوامة. لحقت ليديا بكاو، فيما خربشـت مخالـب الغربان على الحجر أثناء قفزها خلفهم. انتشر البرد في الهواء.

قال كرامب: «اندلعت النيران في كل هذه المنطقة خلال الصيف المشـؤوم. لم تملك المدينة المـال لإعادة تشـييدها، وبالتالي تم هجر المنطقة».

كان ثمـة بـاب منخفض فـي الأعلـى يفضي إلـى طابـق آخر في الجهة الخلفية من دار العبادة. كانت الأرضية محطمة على شكل رقع، كاشفة عن روافد خشبية تحت ألواح الأرضية. احتشد المزيد من طيور الحمام في الطرف البعيد، حول ما بدا جمراً متوهجاً في برميل قصدير قديم. الصبي صاحب الشعر الأشقر المتسـخ جلس قربها، وهو يحرّك شيئاً في قدر. نظر إلى الأعلى، ورسم ابتسامة حين اقتربوا منه.

قال كرامب: «أين أصبح العشاء بيب؟».

سأل بيب وهو يومئ إلى ليديا: «من تكون؟».

قالت: «اسمي ليديا. وأنت، من تكون؟».

تجاهلهـا بيـب، وعـاد للاهتمـام بتحريـك مـا فـي القـدر وقال: «أخذت وقتك».

مشـى كرامب على الأرضية الخشـبية وقال: «لا داعي لأن تكون فظاً مع ضيفينا. واجهنا مشكلة مع الشرطة، وتوجّب علينا المجيء عبر الهواء».

قال بيب وهو يوجّه إليهما نظرة ملحة: «هل رأياك؟».

أجـاب كرامـب: «أخشـى ذلـك. لـم يكـن لدينـا الكثيـر مـن

الخيارات». نظر إلى كاو وليديا. «هل أنتما جائعان؟ يحضّر بيب الطبق الذي يشتهر به؛ حساء اليقطين».

كان كاو على وشك اللحاق به حين لاحظ أن ليديا تحدّق خارج نافذة مكسورة، فيما بدا القلق على وجهها. سألها: «هل أنت بخير؟».

أجابت: «أوه، نعم. أنا بخير». توقفت هنيهة ثم تابعت: «كنت أفكر أفقط في أمي وأبي. قد يغضبان مني لمدى الحياة بسبب هذا».

نظر كاو إلى الأرض. «إذا أردت، أستطيع تدبر طريقة لأعيدك...».

قاطعته ليديا: «لا، تم نقلي للتو فوق المدينة بواسطة سرب من الطيور. لن أعود إلى المنزل قبل أن أعرف كل شيء».

من دون التفوه بكلمة أخرى، أسرعت ليديا خلف كرامب، ولحق بها كاو.

جلسوا على الأرض حول الموقد. بدأ الظلام يهبط في الخارج، فحمل كرامب علبة كبريت، وراح يشعل بضع شموع مغروزة في قناني شراب قديمة.

قالت ليديا وهي تنظر إلى كرامب أولاً، ومن ثم إلى كاو: «إذاً، أنت خارق. كلاكما خارقان!».

حمل كرامب عود الكبريت أمام وجهه، فظهرت قسماته تحت الظل والضوء البرتقالي. لوهلة، بدت عيناه أكبر سناً من بقية قسماته. أطفأ عود الكبريت وقال: «نعم، وبيب أيضاً».

حمل كرامب أكواباً خزفية متشققة، فيما سكب فيها بيب الحساء. ارتفع البخار عالياً، وحمله التيار الهوائي بعيداً عبر السقف. بدأت النجوم تتلألأ في الخارج، وكان كل شيء هادئاً باستثناء هديل

حمامة بين الحين والآخر. ارتشف كاو الحساء الكثيف اللذيذ، فيما بدأ كرامب الكلام.

قال كرامب: «مثلما تريان، ليست بلاكستون مدينة عادية؛ إذ ثمة شيء مميز فيها. لا يعرف أحد ما هو، لكن الحقيقة هي أن هذا المكان يجذب أشخاصاً مثلنا. تواجد في ما مضى عدد أكبر من الخارقين هنا؛ أي أولئك الذين يملكون الموهبة ويستطيعون التحدث إلى الحيوانات. لم يبقَ الآن إلا القليل منهم».

أحسّ كاو أنه انتظر طوال حياته لسماع هذا.

قالت ليديا وهي تنحني صوب الأمام: «إذاً، كاو خارق مع الطيور؟».

أجاب كرامب وهو يوجّه إليها نظرة شرسة: «فقط مع الغربان. طيور الحمام من اختصاصي». أصبحت نبرته أكثر نعومة. «لكن الأمر لا يقتصر دوماً على الطيور...».

نقر بيب بأصابعه، فأخرجت فأرتان رأسيهما الصغيرين من جيب معطفه.

قالت ليديا: «هذا جميل!».

تورّد بيب خجلاً وقال: «يمكنك مداعبتهما. هاتان الفأرتان غير مؤذيتين».

تمددت ليديا إلى الأمام لملاطفتهما، فيما سقسقت الفأرتان بسعادة.

قال كاو: «إذاً، جاوبون ومامبا وسكاتل من الخارقين أيضاً».

قال كرامب وقد اكفهرّ وجهه: «إنهم أقوياء وأشرار». ابتلع آخر ما تبقى من حسائه. وعندما وضع كوبه أرضاً، رأى كاو بعض القطرات على لحيته. مسح كاو ذقنه بكمه.

سأل كاو: «أين الآخرون؟».

أجاب كرامب: «في كل أرجاء المدينة. البعض أعرفهم، والبعض الآخر لا. قبل زمن بعيد جداً، كان الأشخاص العاديون يعرفون كل شيء عن الخارقين. سمحوا لنا بالتواجد، والعيش بسلام مع العالم الطبيعي. لكن الأمور تبدّلت بعدها. بدأت باتهامات السحر والشعوذة، ثم تم القضاء على بعض الخارقين. اختبأ البعض، فيما كافح البعض الآخر؛ وهذا ما زاد المشكلة سوءاً. تم إنهاء العديد من سلالات الخارقين. بعد ذلك، تعلّم الناجون إبقاء قواهم سرية؛ فقد أصبحت موهبتهم لعنة».

قال كاو: «سلالات الخارقين؟ ماذا تقصد؟».

سكب كرامب لنفسه المزيد من حساء اليقطين وقال: «قوّة الخارقين تأتي من الأب أو الأم. حين يموت أهل الخارق، تنتقل الموهبة إلى الولد البكر».

بدت الغرفة وكأنها أظلمت، واضطرب عقل كاو ثم ركّز. «إذاً، أحد والدَيّ...».

أمال كرامب رأسه وقال: «ألم تكن تعرف؟».

قال كاو: «أعرف ماذا؟».

بعد الصمت لفترة وجيزة، تحدث كرامب مجدداً وقال: «إنها أمك. كانت تتحدث مع الغربان قبلك».

حاول كاو استيعاب الكلمات. إذا كان ما يقوله كرامب صحيحاً، فهذا يعني أمراً واحداً فقط. «لكني أملك هذه القوة الآن. إذاً لا بد أنها...».

تشارك كرامب وبيب نظرة سريعة، ثم أومأ كرامب برأسه برزانة، ووضع يداً على كتف كاو. «أنا آسف. ماتت أمك قبل زمن بعيد.

طنتك تعلم».

نظر كاو إلى الكوب بين يديه؛ كي لا يرى الآخرون الدموع المتلألئة في عينيه، وقال: «أعتقد ذلك». لكنه تشبث بالأمل طوال كل تلك الأعوام؛ بأن تأتي يوماً ما وتأخذه.

قال كرامب: «كانت امرأة شجاعة؛ مذهلة».

خفق قلب كاو بقوة وسأله: «هل عرفتها؟».

هزّ كرامب رأسه. «لا، لكني رأيتها بضع مرات حين كنت شاباً. لم أجرؤ حتى على القول «مرحباً»».

تدفقت الأسئلة إلى عقل كاو، وحدّق في غربانه. وحده ميلكي كان ينظر في اتجاهه، بطريقة عمياء ومباشرة في الوقت نفسه. أما سكريتش وغلام فحوّلا ناظريهما.

قال للغربان بهدوء: «كنتِ تعرفين أيضاً، أليس كذلك؟». فجأة، بدا الأمر منطقياً؛ الغربان تحمله بعيداً في ذاكرته. لقد أمرتها أمه بأن تفعل ذلك؛ تماماً مثلما أمرها اليوم هو نفسه. كرر بصوت أعلى: «لا بدّ أنك كنت تعرفين». لم يعد بوسعه إيقاف الدموع المنهمرة. ونظرت إليه ليديا بحزن.

أخيراً، رفع غلام منقاره وقال: سمعنا. وصلت إلينا الحكاية. مرّت أعوام طويلة أيضاً. لم نجد الوقت مثالياً أبداً لإخبارك. كنا بخير وكنت بأمان.

مسح كاو أنفه وحبس دموعه. «لكن... كان بوسعك إخباري. طيلة ذلك الوقت، لم أفهم ما حصل مطلقاً. ظننت أنهما تخليا عني، غلام».

قال غلام: أرسلاك بعيداً للحفاظ على سلامتك. فقد جاء لقتلهما.

فجأة، بـدت الغرفة أكثر برودة بعشـر درجات تقريبـاً، وتراءت له صورة في عقله، صورة جريئة ومرعبة جداً. جسم موشوم بالحرف M، وثمانية أرجل زاحفة...

قال: «المتكلم مع العناكب».

بدا كرامب متفاجئاً هذه المرة وقال: «كيف استطعت...».

قـال كاو: «كان فـي كابـوس راودنـي. أعتقـد أن له علاقـة بقتل الآنسة والاس أيضاً». صمت وهو يشعر بالذنب.

قال كرامب: «أهي المرأة التي كانت في المكتبة؟».

أخبر كاو كرامب بـكل ما رآه؛ عن رسـوم الغرافيتـي خارج منفذ الحريق، وشبكة العنكبوت فوق فم المسؤولة عن المكتبة.

بدا وجـه كرامب شـاحباً - جداً تحـت كل الأوسـاخ. أما بيب - مثلما لاحظ كاو - فكان يرتجـف. قال كرامب: «جاوبـون والآخران. كانا من أتباعه عندما كان حياً. لكن رسم علامته الآن...».

سألت ليديا: «ماذا يريدون؟».

صمت كرامـب قليـلاً، ثـم قـال: «الخارقـون الجيـدون يعملون بتناغم مع حيواناتهم. أما الأشـرار فيفرضون إرادتهم على الحيوانات. خارق العناكب كان الأسوأ. وقد أطلق على نفسه اسم «الرجل الدوّام» Spinning Man.

لمع شـيء ما في دماغ كاو عندما سـمع الاسـم. وتذكّر ليديا في المكتبـة حين رسـمت شـكل العنكبـوت. قالـت إن جسـم العنكبوت كان على شـكل S، وفي وسـطه الحرف M الشـائك. «الرجل الدوّام» Spinning Man.

ارتعد كاو. «أخبرنا كل شيء».

تابع كرامـب الـكلام: «لم يكـن الرجـل الـدوّام Spinning Man

راضياً بالبقاء مختبئاً بين البشر العاديين، بل أراد القوة. ولهذا، جمع بقية الخارقين المرتدّين وحاول الاستيلاء على المدينة. حصل ذلك قبل ثمانية أعوام».

قالت ليديا: «الصيف المشؤوم!».

ارتعد كرامب بشكل ملحوظ. «لم أكن أكبر سناً مما أنتما عليه الآن. حدد مهمته في العثور على كل الخارقين الجيدين و... القضاء عليهم. وقد نجح في ذلك تقريباً. شكّت أمك ربما في أنه آتٍ لقتلها. لو عرف الرجل الدوّام بوجودك لقتلك أنت أيضاً».

سأل كاو: «ماذا عن والدي؟».

قال كرامب: «تم العثور عليه معها. وقف معها... ودفع الثمن».

قالت ليديا هامسة: «أوه كاو، أنا آسفة جداً». ووضعت يدها في يده وشدّت عليها بقوة.

أحسّ كاو بإرهاق شديد. الأمل في أن يكون والداه على قيد الحياة تلاشى الآن بالكامل. وجاء كل اعتراف ليلقي ضوءاً جديداً ومؤلماً على ماضيه. فجأة، لم يعد والداه مجرد صورتين في كابوس، ووجهين يتحولان إلى لا شيء فيما تحمله الغربان بعيداً، بل كانا شخصين حقيقيين أحباه وضحيا بحياتيهما لإنقاذه. أحسّ كاو أن قلبه على وشك الانفجار.

تابع كرامب القول: «تقول كتب التاريخ إن الصيف المشؤوم انتهى فجأة. لكن الحقيقة أن الرجل الدوّام قتل. لهذا السبب، توقف سفك الدماء أخيراً». جلس فجأة بطريقة منتصبة، وبات وجهه أكثر قساوة فيما حدّق في النار المشتعلة في الموقد. «حاربنا بكل ما لدينا - بالذين بقوا - وآخر واحد منا قتله. احتاج ذلك الأمر إلى كل قوتنا، ومات العديد منا». بدت عيناه وكأنهما تحدقان مباشرة في اللهب.

«طبعاً، اكتفت السلطات في بلاكستون بالقول إنها موجة جرائم. وأُلقِي باللوم على هستيريا جماعية. لكن من دون زعيمهم لإرشادهم، أصبح أتباع الرجل الدوّام مستهترين، ونجحت شرطة بلاكستون في إلقاء القبض على العديد منهم، فيما هرب آخرون ونجحوا في الاختباء. عاد السلام؛ لغاية الآن...».

قالت ليديا: «انتظر لحظة. قلت إن الخارقين الجيدين قتلوا الرجل الدوّام. لكن، لماذا لا يزال أتباعه يستخدمون شعاره؟ ماذا عن رسوم الغرافيتي؟ ماذا يعني كل ذلك؟».

سأل بيب: «لقد مات، أليس كذلك؟». بدا فجأة صغيراً جداً.

أجاب كرامب: «أوه نعم، لقد مات. لكن...».

قالت ليديا: «لكن ماذا؟».

إلى جانبه، لمح كاو ميلكي مضطرباً، وينفض ريشه.

قال كرامب: «لقد رأيت شعار الرجل الدوّام أنا أيضاً؛ كان مرسوماً على مقعد في الحديقة العامة، ومرشوشاً بواسطة الرذاذ على غطاء محرك سيارة، ومخربشاً على حائط مستودع قرب النهر. لا بد أن أتباعه يلتقون مجدداً. لهذا السبب، صادفناك خلف مطعم الوجبات السريعة كاو. كنا نراقب المدينة ونتأكد من أن أصدقاءنا القدامى في أمان. أنا واثق الآن من أنهم ليسوا في أمان. ما من أحد منا في أمان. شاهدت كوابيس غريبة أيضاً؛ مثلك تماماً. كوابيس عن العناكب. لا أعرف السبب».

أحسّ كاو أنه يخفي عنهم شيئاً ما؛ شيئاً مهماً. «لكنك تملك فكرة عنه، أليس كذلك؟».

وقف كرامب ومشى بعيداً عن الموقد، منتصباً تحت السماء المتلألئة بالنجوم. وقف عند حافة ألواح الأرضية، ونظر إلى حماماته

في مسكنها، غارقاً في أفكاره. وبعد نصف دقيقة من الصمت، استدار صوبهم. «ليس الأمر بسيطاً مثلما يبدو؛ مسألة حياة وموت».

قالت ليديا: «بلى، الأمر بسيط. إما أن تكون حياً أو تكون ميتاً». ونظرت إلى كاو، وقد اكتسب وجهها لوناً من الموقد، ولمعت عيناها دلالة على الخوف.

قال كرامب: «ربما. أتمنى ذلك».

فكّر كاو في والديه اللذين قتلهما الرجل الدوّام وأتباعه، وملأ الغضب كيانه. إذا لم يكن بوسعه الانتقام من خارق العناكب نفسه، فلا يزال جاوبون وسكاتل ومامبا على قيد الحياة. لا بدّ أن يدفعوا الثمن.

قال: «علينا إيقافهم! علينا المواجهة».

قالت ليديا: «يجب وضعهم في السجن».

قهقه بيب كاسراً الجو المتوتر؛ وضع خارق الفئران يداً فوق فمه.

سأل كاو: «ما المضحك في الأمر؟».

قال بيب: «لا شيء. الأمر فقط... لم تسنح لك الفرصة».

«ماذا تقصد؟». امتعض كاو من الابتسامة المتكلفة على وجه الولد الصغير.

قال كرامب بنبرة تحذيرية: «بيب...».

امتلأت نبرة بيب بالتحدي. «لا. كنت أراقبك كاو وأنت تتسلل خلسة في الحديقة العامة، وبالكاد تعثر على طعام كافٍ لتتناوله. بالكاد تجرأت يوماً عن الابتعاد عن ذلك العش. أنت تعيش مع هذه الغربان الثلاثة الرثة...».

هاي! صرخ كل من سكريتش وغلام.

قال كاو وهو يقف قرب بيب: «أنا أقوى مما تظن».

قال كرامب بطريقة بدهية: «بيب محق. لا يمكنك السيطرة على قواك».

قال كاو: «أنقذت ليديا ووالدها. كان جاوبون على وشك قتلهما!».

قالت ليديا: «وساعدتنا غربانه على الهروب من الشرطة في المكتبة».

أومأ كرامب برأسه وقال: «تملك الشجاعة. أعترف لك بذلك. لكن، هل يمكنك مواجهة الخارقين الآخرين مع كل حيواناتهم؟ ماذا لو أحضر جاوبون مجموعة كاملة من الكلاب معه؟ أو أحضرت مامبا دزينة أفاع بدل الأفعى الواحدة؟ أنت محظوظ لأننا أنقذناك. رهاننا الأفضل الآن يتمثل في الاختباء».

تذكر كاو خوفه في المكتبة، عندما ثبّته كلب متوحّش ضخم ووجد نفسه عاجزاً تماماً عن الدفاع عن نفسه، فأحس أن ثقته بنفسه تختفي منه.

قال: «أنت محق».

قالت ليديا بصرامة: «لا، ليس محقاً كاو. طاردت الأفعى في منزلي أيضاً. لا تستسلم».

أمال كرامب رأسه، ونظر إلى ليديا وهو يقطّب جبينه. «تذكرينني بشخص عرفته؛ شخص شجاع جداً».

قالت ليديا: «أراهن أنه لم يستسلم، أليس كذلك؟».

هزّ كرامب رأسه. «لا، لم تستسلم».

حفّز تشجيع ليديا حماسة كاو فقال: «حسناً، فلنحارب إذاً. نجحت في جمع سرب كامل اليوم. أستطيع التعلم».

قال كرامب: «ليس بسرعة كافية. سوف يقتلونك كاو؛ تماماً مثلما قتلوا أمك».

جاءت الكلمات مؤلمة جداً. «دعني أجرّب!».

نظر كرامب وبيب إلى بعضهما، وهزّ بيب كتفه.

قال كرامب: «اسمع، دعني أريك ما تواجهه. سنخوض أنا وأنت مبارزة؛ اختباراً للقوة. لقد تمرّنت طوال اثني عشر عاماً، ورغم ذلك لا أستطيع الوقوف في وجه جاوبون أو سكاتل أو مامبا. عندما ترى كيف سأتغلب عليك بسهولة، فقد تعيد النظر بالأمر ربما».

قال كاو: «مبارزة؟».

قال بيب: «سيكون ذلك مرحاً».

زمّ كاو شفته، وقال لنفسه: إنهما يضحكان عليّ.

قالت ليديا: «يمكنك فعل ذلك!». وضربته بقوة على كتفه.

أحسّ كاو بنظرة ميلكي العمياء على وجهه، وفي تلك اللحظة عرف أنه لن يتراجع، وقال: «أنا موافق».

الفصل الحادي عشر

وقف كاو وظهره إلى الباب، محدقاً في الممشى الوسطي في دار العبادة.

قال سكريتش: هل أنت واثق من هذا؟ كانت الغربان جاثمة على مقعد خشبي مجاور.

تمتم كاو: «لا، لكن عليّ التجربة».

جلس كرامب في الجهة الأمامية من دار العبادة، تحت الهيكل الأبيض للرمز الديني المفقود. جلس بطريقة مترهلة على طاولة المذبح الفارغة، وجعل ساقيه تتدليان على الجانب. قال المتكلم مع الحمامات: «هل أنت جاهز؟».

صرخت ليديا من الأعلى: «هيا، كاو!».

صرخ بيب من جانبها: «لقّنه درساً كرامب».

قال كاو: «أنا جاهز».

صفر كرامب تماماً مثلما فعل في العش، وسُمع صوت خفقان قوي للأجنحة، فيما هبطت مئات الحمامات من فتحات السقف وحطّت حول قدميه.

قال غلام وهو يميل رأسه: حسناً، كان هذا جميلاً.

قال سكريتش وهو يخبئ عينيه تحت جناحه: لا أستطيع النظر.

مدد كاو ذراعيه، وأمر الغربان بأن تأتي إليه. أحسّ بالدفء نفسه

يتراكم داخل معدته؛ تماماً مثلما أحسّ سابقاً. يستطيع فعل هذا.

مدد كرامب ذراعه اليسرى، وطارت كل الحمامات الموجودة في تلك الجهة دفعة واحدة، وخفقت أجنحتها مثل السوط. طارت مباشرة صوب كاو.

تشتت تركيز كاو، وصرخ عالياً: «أوقفها!».

صرخ سكريتش: جيرانيمو!

طارت الغربان الثلاثة في الهواء، لكن طيور الحمام تغلبت عليها خلال ثوانٍ قليلة. وسط عراك الريش والصيحات، شعر ميلكي وسكريتش وغلام بالعجز الكلي. وأجبرتها الحمامات على الهبوط أرضاً، وملأت ضحكة بيب العالية كل الأجواء.

قالت ليديا: «ليس هذا عادلاً! لم يملك كاو الوقت لاستدعاء غربانه».

كان كرامب لا يزال جالساً على الطاولة، وبدا مرتاحاً جداً.

قال: «هل تظنين أن أتباع الرجل الدوّام سيمنحون كاو الوقت الكافي؟ أنت محظوظة لأنها مجرد حمامات ودودة. كانت كلاب جاوبون ستمزّق هذه الغربان الثلاثة إرباً من دون شك».

استمرت الغربان في مواجهة وزن الحمامات وسط عجز تام. أراد كاو الركض وركل الطيور المزعجة بعيداً، لكنه عرف أن هذا سيعني الاستسلام. لذا، أجبر نفسه على التركيز، لجذب الغربان إليه مجدداً.

قال كرامب: «أنا آسف بشأن ذلك». ووقف على الطاولة محركاً يديه كما لو أن المعركة قد انتهت. «لكن، يمكنك الآن رؤية...».

أحسّ كاو بالقوة تزداد في أحشائه. أحسّ بالغربان تحتشد، وقال لنفسه مع ابتسامة إنها آتية.

انفتح الباب بقوة كبيرة، وأحسّ كاو بالنصر عند رؤيته الصدمة على وجه كرامب. وقف الخارق الأكبر سناً على قدميه، فيما تدفقت عشرات الأشكال السوداء أمام كاو، وتوجهت مباشرة صوب طيور الحمام. انتظر كاو إلى أن وصلت إليها، ثم مدد ذراعه اليسرى صوب كرامب. تحركت الغربان على شكل موجة سوداء لمهاجمة خارق الحمامات، وخفقت أجنحتها صعوداً ونزولاً.

صرخت ليديا: «هيا كاو!».

قال بيب: «انتبه!».

صفق كرامب بيديه معاً، فطارت بقية طيور الحمام على شكل متشابك أمامه. اختفى كرامب تماماً وراء الستارة رمادية اللون.

أدى هجوم الغربان إلى فصل بحر طيور الحمام مباشرة في الوسط، فتبعثرت الطيور في كل الاتجاهات.

ثم وقعت طيور الحمام دفعة واحدة على الأرض.

اختفى كرامب.

قال كاو: «ماذا؟».

«مجرد خدعة». صدح صوت كرامب في أذنه.

استدار كاو حول نفسه ليجد المتكلم مع الحمام واقفاً على المقعد الخشبي قربه.

سأل: «كيف فعلت هذا؟».

أجاب كرامب: «القليل من الخفة، الأمر يستلزم الكثير من التدريبات». فتح سترته وخرجت دزينة حمامات من داخلها. هجمت على كاو، وراحت تنقره وتخدشه، وتدفعه بمحاذاة المقعد الخشبي إلى أن ارتطم أخيراً بالجدار الحجري ولم يستطع التحرك. كانت صيحات الحمام عالية جداً؛ حيث واجه صعوبة في التفكير. حرّك

ذراعيه بطريقة عشوائية، فيما حاول تغطية وجهه وإبعاد الحمامات عنه، لكن عددها كان كبيراً جداً. أراد استدعاء غربانه، لكنه لم يستطع حتى فتح عينيه للبحث عنها. لقد انكمش العالم ليصبح أجنحة خافقة وطيوراً صارخة وخدوشاً مؤلمة في كل مساحات بشرته المكشوفة.

صرخ: «أرجوك... أرجوك، دعها تتوقف!».

بلمح البصر، توقف هجوم الحمام، وانهار كاو على الجدار خجلاً، فيما عادت طيور الحمام إلى الروافد الخشبية. أما الغربان الأخرى فقد اختفت، ولم يبقَ سوى غربانه الثلاثة الوفية جاثمة على المقعد الخشبي، وبدت منزعجة وإنما غير مصابة.

صرخ بيب: «هاهاها! فاز كرامب!».

توجّه كرامب صوب كاو ومدّ له يده قائلاً: «سامحني. لم يكن يجدر بي البدء بالاستعراض».

بالكاد استطاع كاو النظر مباشرة إلى عيني المتكلم مع الحمام، لكنه سمح له برفعه إلى الأعلى. كانت يداه وذراعاه تنزف، لكن الخدوش لم تكن عميقة.

قال سكريتش: محاولة جيدة.

أضاف غلام مع شيء من السخرية: جهد قوي.

اقترب سكريتش من الغراب الأكبر سناً. لقد بذل ما بوسعه.

زمجر كاو قائلاً: «لكن أفضل ما لديّ لم يكن جيداً كفاية». نظر إلى الأعلى، وشاهد ليديا تحدّق فيه، وبدت عيناها مليئتين بالتعاطف.

قال كرامب ببساطة: «لا، لم يكن كذلك. إذا واجهت أتباع الرجل الدوّام الآن فستموت، وكذلك غربانك، وستنتهي سلالتك الخارقة».

نظر كاو إلى سكريتش وميلكي وغلام، وأدرك أنها مستعدة للموت من أجله، لكنها مجرد ثلاثة طيور. ومهما كان عدد الطيور التي نجح في استدعائها اليوم، لا يزال ذلك غير كافٍ.

لذا، سأل كرامب: «كيف استدعيت هذا العدد الكبير؟».

قال المتكلم مع الحمام: «بفضل قوة الإرادة، والكثير من التمرين. أنا خارق منذ وقت طويل أكثر منك، ولطالما عرفت المخاطر التي نواجهها».

قال كاو: «إذاً، علّمني».

قال كرامب: «يستغرق الأمر شهوراً، لا بل سنوات من التدريب المكثف. لا يوجد وقت كافٍ للقيام بذلك».

قال كاو: «أستطيع التعلم بسرعة». محاولاً أن يبدو واثقاً من نفسه أكثر ممّا يشعر به فعلاً.

ابتسم كرامب. «حتى لو استطعت كاو، فأنت لست مقاتلاً. الأشخاص الذين نواجههم وحوش، ولا يملكون أية رحمة».

انضمت ليديا وبيب إليهما عند أسفل السلالم. كانت شفتا ليديا مزمومتين على شكل خط حازم.

قال كاو: «لا نستطيع الاستسلام. لا يمكننا الاختباء فقط!».

قال كرامب: «ألا يمكننا؟ ابق هنا معنا. سنكون بأمان».

قالت ليديا لكرامب بصوت قاسٍ: «سيعثرون علينا». شعر كاو لوهلة أنها الراشدة، فيما كرامب هو الولد.

سأل كرامب بنبرة دفاعية: «وكيف تعرفين ذلك؟ أنا وبيب لم يزعجنا أحد من قبل».

غضبت ليديا. «السبب في ذلك ربما أن أحداً لا يبحث عنكما. يوجد ثلاثة منهم هناك. ومن يعلم؟ فقد ينضم إليهم آخرون أيضاً.

قد تتمكنان من الاختباء لفترة، لكن الأمر بحاجة إلى هفوة واحدة، وسيهجمون بالتأكيد».

ساد الصمت في دار العبادة، وأحسّ كاو بعجز تام.

تمتم كرامب: «سرت أخبار من قبل؛ أخبار عن خارقين أقوياء جداً حيث استطاعوا التحول إلى الحيوانات التي يسيطرون عليها».

سأل كاو: «أهي مجرّد أخبار؟».

أجاب كرامب: «حسناً، لم ألتق يوماً واحداً منهم. أنا أتدرّب منذ أن كان عمري خمسة عشر عاماً ولم أصل إلى هذه المرحلة بعد».

قالت ليديا وهي ترفع ذقنها إلى الأعلى بطريقة متحدّية: «أنت لا تعرف الطريقة ربما».

قال كرامب وقد تورّد وجهه غضباً: «اسمعي، أنت لا تعرفين شيئاً عن هذا. فأنت لم تخسري أصدقاء وأحباباً، أو كائنات عزيزة عليك بقدر عائلتك».

أجابت ليديا: «في الواقع، بلى». للحظة، اختفت الجرأة من تعابيرها. «أفعى مامبا قتلت كلبي بنجي. وقد كان أفضل صديق لي في العالم».

حدّق فيها كرامب، ثم أصبحت نظرته أكثر لطفاً، وقال بهدوء: «آسف لسماع ذلك. لكن الجوهر يبقى نفسه. لا نملك أملاً هذه المرة».

قال كاو: «علينا المحاولة على الأقل».

سأل بيب: «ونتعرّض للقتل!؟ ما الجدوى من ذلك؟».

أجاب كاو: «سنموت في أية حال إذا طاردونا».

قاطعته ليديا: «وهم يعرفون أين أعيش. إنهم يعرفون أين تعيش عائلتي».

قال كاو: «هذا صحيح. إذا لم تساعدنا، فسنكون أنا وليديا في

مواجهتهم بمفردنا».

قال سكريتش وهو يقفز على الجهة الخلفية للمقعد الخشبي: سنرافقك أيضاً!

قال غلام وهو ينظر إليه بارتياب: حقاً؟ ثم خفق بجناحيه. أعتقد أنه يجدر بنا ذلك.

أمسك كاو بيد ليديا وتوجّها صوب باب دار العبادة.

ناداهما بيب: «اسمع، أنت بالكاد تستطيع السيطرة على ثلاثة غربان. ها أنت الآن تتكلم وكأنك فيليكس كوايكر الذي يملك حيوات عدّة!».

تجمّد كاو في مكانه. كوايكر. أحسّ أن ليديا قد أحكمت قبضتها على يده.

قال وهو يستدير: «من هو فيليكس كوايكر؟».

هزّ كرامب كتفه وقال: «خارق القططة. يقال إنه يملك تسع حيوات، وإنه موجود منذ بضع مئات الأعوام».

نظر كاو بسرعة إلى ليديا وقال: «علينا التحدث إليه».

هزّ كرامب رأسه. «لن تحصلا على أية مساعدة منه. فكوايكر العجوز ليس ودوداً جداً. وهو لم يشارك في الصيف المشؤوم، بل حبس نفسه في قصره، ولم يتعاط مع أي من الفريقين».

قال كاو: «لكنه في بلاكستون؟».

أجاب كرامب: «نعم. يعيش في غورت هاوس. إنه مكان كبير جداً في هيريك هيل؛ حيث الأبراج العالية والأبراج الصغيرة وما شابه. وهو يجمع كل ما له علاقة بتقاليد الخارقين؛ أشياء جديرة بالتذكر، كتباً، كل أنواع الأشياء. ويعرف عن تاريخ الخارقين أكثر مما يستطيع معظم الأشخاص تذكره».

قالت ليديا: «أعرف المكان. يقول الجميع إن الرجل الذي يعيش هناك مجنون».

قال كرامب: «ليس هذا بعيداً جداً عن الحقيقة، إذا أردت رأيي».

قال كاو بحماسة: «لكنه يستطيع مساعدتنا ربما».

أجاب كرامب وهو يهزّ رأسه: «ليس مولعاً بالزائرين. من الأفضل لك أن تركز على مهاراتك، وتتعلم الدفاع عن نفسك، وتحول دون إلقاء القبض عليك».

كانت ليديا تراقب كاو وقد عبست قليلاً. عرف بماذا تفكر: لماذا لا تخبره عن ورقة الآنسة والاس؟

هزّ لها كتفه، آملاً ألا يلاحظ كرامب ذلك. لماذا يجدر به إخبار المتكلم مع الحمام كل شيء؟ حسناً، لقد وفّر له كرامب المأوى، لكن الأمر اقتصر عند هذا الحد. كان واثقاً من أن المزيد من الأجوبة موجود مع خارق القططة، المختبئ في هضبته فوق النهر. لقد تعب من المفاجآت، وتعب من الأشخاص الذين يقولون له ما يجدر به فعله، وأراد أن يكون مسؤولاً عن نفسه، ولو لمرة واحدة.

تنهد كرامب. «اسمع، لماذا لا تبقيان الليلة هنا. اختبئا حتى الصباح، ثم يمكننا الحديث مجدداً».

أومأ كاو برأسه موافقاً؛ لكنه في قرارة نفسه كان يخطط لأمور أخرى.

كاو يحلم.

إنه الكابوس نفسه كما في السابق، وإنما ها هو الآن يراقب الرجل الغريب الطويل والشاحب وهو يطرق على باب منزل أهله. لمع ضوء القمر على خاتم العنكبوت في يده.

صرخ كاو: «لا تجيبا». لكن لم يخرج أي صوت من شفتيه، وفُتح الباب وحده.

إنه الرعب الذي حملته غربانه بعيداً عنه. لكن الآن، وللمرة الأولى، أدخلته غربانه إلى الداخل، خلف الرجل الغريب.

خلف الرجل الدوّام.

وانغلق الباب بقوة خلفه.

رأى كاو والديه، يقفان جنباً إلى جنب أمام مائدة غرفة الطعام. ثمة كوبان من الماء نصف ممتلئين عليها، ويجثم غراب واحد قربهما. نظرت والدة كاو إلى الرجل الدوّام من دون أي خوف، والتفّت طيات فستانها الأسود حولها مثل جناحي غراب، كما لو أنها تتحكم في الهواء حولها.

قالت عبر أسنانها المطبقة: «اخرج من منزلي». لاحظ كاو العرق يتلألأ على جبينها؛ كما لو أنها تبذل جهداً كبيراً. «لن أخبرك عن مكانه». ونفض الغراب ريشه دليل موافقة.

صرخ والد كاو: «لا تقترب أكثر». كان واقفاً قرب زوجته، حاملاً قضيباً من الموقد.

اكتفى الرجل الدوّام بالابتسام، وسأل: «وما الذي تنوي فعله بهذا؟». بدا صوته وكأنه آتٍ من القبور. وأومأ في اتجاه القضيب.

نظرت والدة كاو إلى زوجها. «أرجوك، عليك الخروج من هنا الآن. الآن. لا علاقة لك أبداً بهذا».

قال لها: «لن أتركك».

قالت والدة كاو: «أستطيع تدبر أمر هذا الوحش». وأبقت عينيها مركزتين على الرجل الدوّام. إلا أن صوتها بدا متعباً.

قال الرجل الدوّام: «لا أعتقد ذلك. ليس من دون غربانك».

لاحظ كاو برعب شديد أن النوافذ باتت مغطاة بشباك شاحبة: شباك عنكبوت. وعند الإصغاء بتركيز، استطاع سماع خفقان الأجنحة والبكاء اليائس لمئات الغربان التي حاولت اختراق النوافذ.

«إذا لم تخبريني بما أريد معرفته فلن تكوني مفيدة لي أيتها المتحدثة مع الغربان».

ترنّحت والدة كاو، وبات فستانها فضفاضاً عليها. استدارت صوب زوجها وقالت: «اركض حبيبي، أرجوك، اركض».

قال والد كاو وهو يمسك بيدها: «لا. أبداً».

قال الرجل الدوّام: «مثلما تريد. يمكنكما الموت معاً».

رفع يداً وفجأة أظلمت الغرفة كما لو أنه أطفأ الأنوار.

من الزوايا، بدأت ظلال داكنة تزحف. لا، ليست ظلالاً، بل إنها عناكب. المئات منها. خرجت من السقف أيضاً، ونزلت على الجدران وكأنها ستائر سوداء. حاول الغراب التحليق عالياً، لكنه بات مغموراً بالكائنات الزاحفة. اقترب والدا كاو أكثر فأكثر من بعضهما، وتراجعا صوب الطاولة. تحطم كوب ماء على الأرض. أراد كاو الاندفاع إلى الأمام، لكن الغربان منعته، وكان بمثابة شاهد عاجز. هناك مئات العناكب الآن، وتتحرك أرجلها مع بعضها في حركة واحدة. اقتربت من والديه على شكل سجادة من الكائنات السوداء اللماعة. كانت كثيرة جداً؛ لدرجة أنه استطاع سماع أصوات حركاتها.

راقب كاو العناكب فيما زحفت على أقدام والديه، ثم ارتفعت على أرجلهما. حاولا إبعادها عنهما، لكن عددها كان كثيراً. وقع القضيب أرضاً، وهبط بين العناكب بصوت خافت مكتوم. تلوّى والدا كاو وتحركا كما لو أن النار تحرقهما، فيما غطتهما العناكب، وأحسّ بذعرهما في عجزه الخاص. الأصوات الصادرة منهما لم تكن بكاء

الم، وإنما أسوأ. كانت صيحات ذعر قصيرة. زحفت العناكب على صدريهما وأكتافهما وعنقيهما.

أراد كاو النظر بعيداً، لكنه لم يستطع.

ها هما الآن يرفعان ذقنيهما إلى الأعلى؛ كما لو أنهما يغرقان ويبحثان عن الهواء. صرخ والده عالياً، ثم اختنق فيما دخلت العناكب فمه.

مع نفسها الأخير، تحدثت والدة كاو إلى الرجل الدوّام بصوت مكتوم: «لن تربح. سوف ترى». بعد برهة، أسكتتها العناكب. توجهت عيناها إلى كاو للمرة الأخيرة، وبدا أن هواء قوياً خرج منها، واتجه صوبه مثل الريح الهوجاء. استمر الأمر لجزء من الثانية قبل أن تعميها موجة أرجل العناكب و...

استيقظ كاو وهو يشهق. رأى أمامه عليّة دار العبادة، التي كانت مضاءة بالجمر المتوهج للنار في الموقد. اتكأ على مرفقه، وارتجف تحت البطانية البالية. لا يزال الكابوس يطبق عليه، ويتلف أعصابه. أغمض عينيه بقوة، محاولاً محو صور الكابوس.

هل ماتا هكذا فعلاً؟ بذعر مكتوم، مخنوقين بكائنات الرجل الدوّام؟ جثم ميلكي بصمت قربه وأمال رأسه. كانت عيناه الشاحبتان رطبتين. في تلك اللحظة، عرف كاو أنها الحقيقة.

كان كرامب نائماً على ظهره، ويخرج صوت صفير من شفتيه مع كل نفس. أما بيب فكان نائماً تحت البطانيات، مختبئاً بالكامل. عبر الروافد الخشبية، وضعت مجموعات طيور الحمام مناقيرها تحت ريشها السميك.

إذا أراد كاو الهروب فإنه الوقت المناسب.

الفصل الثاني عشر

بأكبر بطء وهدوء ممكنين، دفع كاو البطانية بعيداً عنه، واتخذ وضعية الجلوس. كانت ليديا تواجه الجهة الأخرى غارقة في نومها. كان ينوي إيقاظها، لكن الحلم بدّل رأيه. إذا كان السجناء من أتباع الرجل الدوّام - ذلك الكائن المتوحش - فمن الأفضل لها أن تبقى بعيدة عنه قدر الإمكان. إذا حالفها الحظ، يستطيع كرامب مساعدتها للعودة إلى المنزل.

ما إن وقف حتى بدأ سكريتش وغلام يتحركان في مكانيهما قرب السلالم. وضع كاو إصبعه على شفتيه فبقيا صامتين وهما يراقبانه باستفسار. ارتدى معطفه ومشى على أطراف أصابعه على الألواح الخشبية، ثم نزل السلالم، ولحقت به غربانه.

قال سكريتش وهو يرتجف: لا أفترض أننا عائدون إلى العش، أليس كذلك؟ فيما فتح كاو باب دار العبادة.

همس كاو: «ليس الآن».

في الخارج، ألقى نظرة أخيرة على دار العبادة الصامتة، وتساءل كيف كان شكلها قبل الصيف المشؤوم. كانت مكاناً للفرح ربما؛ حيث تجتمع العائلات والأصدقاء معاً بسلام. لكن الرجل الدوّام دمّر كل ذلك.

زحفت عناكب الكابوس إلى عقله مجدداً، وانتفضت أجسامها

اللامعة، فيما كانت خطواتها خفيفة وهادئة مثل الدبابيس المتناثرة. ارتجف وأجبر نفسه على تجاهل الذكرى.

تسلل كاو عبر الحديقة العامة المهجورة، متذوقاً برد الليل الصامت. كان ينعطف صوب الطريق في اتجاه النهر عندما سمع خطوات مسرعة خلفه.

قال غلام وهو يحلق أمامه: لدينا صحبة. رفع كاو يديه للدفاع عن نفسه فيما استدار.

إنها ليديا. كان وجهها شاحباً، وبدت وكأنها لم تنم لحظة واحدة. قالت: «سوف تبحث عن كوايكر، أليس كذلك؟ حسناً، أنا آتية معك».

أخفض كاو يديه وتنهد، وقال لها: «لست مجبرة على فعل ذلك».

«أعرف. لكني أريد القيام بذلك. أولئك السجناء هددوا عائلتي أيضاً، أتذكر؟».

قال وهو يرفع حاجبيه: «لا أعتقد أنني أستطيع فعلاً إيقافك، أليس كذلك؟».

ابتسمت ليديا ابتسامة عريضة وقالت: «سأعتبر هذا بمثابة دعوة».

تمتم غلام: صحيح. ثم طار إلى الأعلى وبعيداً.

انطلقا معاً فوق القضبان الفولاذية لجسر سكة الحديد الممتد فوق بلاك واتر. في هذا الوقت من الليل، لا توجد قطارات عاملة.

قال كاو: «تملكين سمعاً جيداً. حتى إنّ طيور الحمام لم تستيقظ».

«لا بد أني ورثت هذا من أمي. فهي دوماً تسمعني وأنا أصغي إلى الموسيقى فيما يجدر بي إنجاز فروضي المدرسية. حتى عندما

أضع السماعتين في أذنيّ!».

ابتسم كاو ابتسامة عريضة. بعدما كان واثقاً من أنه يجدر به تركها خلفه، بات الآن مسروراً لأنها هنا. فمع ليديا والغربان إلى جانبه، شعر بالمزيد من الثقة. لقد فعل والداه كل ما بوسعهما لحمايته؛ كي تستمر سلالة خارقي الغربان. سوف يحرص على ألا يذهب موتهما سدى.

قالت ليديا: «يبدو أن والديك كانا شجاعين جداً». كما لو أنها استطاعت قراءة أفكاره. وصلا إلى الجانب الآخر من النهر. «لا بد أنك فخور بهما».

أجاب كاو: «أعتقد ذلك». فيما بدآ المشي بمحاذاة الضفة الشمالية. ثمة قناطر حول السدّ، فيما كانت المتاجر كلها مغلقة في الليل.

آخر كابوس رآه كان بمثابة ظل حاضر دوماً، وبدا بكاء والديه فيما غمرتهما العناكب بمثابة صدى خافت. لا يشعر أنه مستعد لإخبار ليديا عنه، ليس الآن فيما الرعب لا يزال حديثاً جداً. طوال حياته، سمح للاستياء منهما بالنمو داخله. لكن بدا الآن وكأن الغضب قد حلّ مكانه شيء آخر. الرجل الدوّام هو من يستحق غضبه؛ لأنه أخذ والديه بعيداً عنه.

قالت ليديا بهدوء: «أتمنى أن يكون أبي وأمي بخير».

قال كاو بصورة تلقائية: «وأنا أيضاً».

قالت ليديا: «ليسا شخصين سيئين، أتعلم ذلك؟».

نظر إليها كاو بطريقة جانبية.

أضافت ليديا: «أعرف أنهما لم يكونا لطيفين معك».

قال كاو: «هل تقصدين عندما حبساني في غرفة، أو عندما حاول والدك اعتقالي؟». محاولاً الحفاظ على رباطة جأشه.

قهقهت ليديا. «نعم، لكنك سترى. عندما ينتهي كل هذا، ويعود السجناء إلى خلف القضبان، سيتعرفان إليك جيداً. ويمكنك المجيء لتناول العشاء عندنا مجدداً!».

قال كاو: «لم تجر الأمور حينها على ما يرام، أليس كذلك؟».

رغم كل شيء، ابتسم للذكرى. «لا بد أني بدوت مثل حيوان».

فجأة، أبطأت ليديا خطواتها، ثم أسرعت مجدداً. كانت عيناها مثبتتين على شيء ما أمامهما.

سأل كاو: «ماذا؟».

أجابت ليديا: «لا شيء. فلنسرع».

توقف كاو ونظر حوله، ثم وقعت عيناه على كدسة جرائد مربوطة بحبل، وموضوعة على الرصيف خارج كشك مغلق لبيع الجرائد. كشفت الصفحة الأمامية عن صورة كبيرة لوجهه.

قال: «أوه، لا». مشى صوبها، وركع على ركبتيه خلف كدسة الجرائد.

قال سكريتش وهو يقفز على زاوية: شبَه جيد.

لم يكن الشبَه مثالياً؛ فقد كانت الصورة مجرد رسم بالأسود والأبيض، لكنه جيد كفاية. تحت الرسم، ثمة كلمات عدة بخط كبير، بالإضافة إلى صورتين أصغر حجماً - صورتين فوتوغرافيتين - لليديا والآنسة والاس. سألها: «ماذا كتب؟».

نظرت ليديا من فوق كتفه: «لن ترغب في معرفة الجواب».

قال كاو: «أخبريني!».

«يقولون إنك مطلوب لاستجوابك بشأن الجريمة».

أغمض كاو عينيه. «ماذا سأفعل؟ كل المدينة ستبحث عني».

لمست ليديا ذراعه وقالت: «أولئك الأشخاص يرغبون فقط في

بع الجرائد. سوف نشرح لهم الحقيقة. وعندما ينتهي كل هذا...».

قال بشيء من الغضب: «أعرف، أعرف. سيعود كل شيء إلى ما كان عليه قبلاً».

رفع ياقة قميصه وانطلق في المشي مجدداً، فيما ركضت ليديا خلفه. عرف أنها تحاول فقط مواساته، لكنه أدرك في قرارة نفسه أن شيئاً لن يعود مثلما كان قبلاً. إنه يسير في طريق لا مجال فيه للعودة. وفي النهاية، توجد الحقيقة أو الانتقام، أو القدر نفسه الذي لاقاه والداه.

لقد قال ميلكي: العنكبوت يزحف بهذه الطريقة. ونحن لسنا سوى طريدة في شباكه.

حامت الغربان فوق النهر وفوق رأسيهما. لقد تجاوزت الساعة منتصف الليل، لكن الشوارع لم تكن خالية بالكامل. مرّت السيارات بين الحين والآخر، وخرج أشخاص من المطاعم. أبقى كاو رأسه منخفضاً فيما توجها صوب غرب المدينة. كانت بوابات حديقة حيوانات بلاكستون مغلقة، لكن كاو استطاع شمّ رائحة الحيوانات، والإحساس بدفء أجسامها النائمة. لم يدخل يوماً حديقة الحيوانات، لكن الغربان أخبرته أن كل الحيوانات في أقفاصها، وعلّمته أيضاً أسماءها باستعمال كتاب مصوّر في العش. وتساءل في قرارة نفسه إن كان هناك إنسان خارق لكل حيوان. قال كرامب إنه يوجد الكثير، في كل أنحاء المدينة...

دوّت صفارة إنذار في الهواء، وانخفض سكريتش في تحليقه.

قال: سيارة شرطة!

همس كاو وهو يمسك بذراع ليديا: «هسسس!».

لمع ضوء أزرق في المنعطف أمامهما، فتراجعا إلى الخلف،

وسلكا شارعاً مرصوفاً بالحصى؛ حيث الفتحات في جانب مبنى أخرجت هواء ساخناً في الليل. حاول كاو إخفاء نفسه قدر الإمكان بالاستناد إلى الحائط، ونظر عبر بخار الماء المتصاعد. اختفت صفارات الإنذار، لكن الأضواء لا تزال تومض. وببطء، دخلت سيارة الشرطة شارعهما.

تمتم كاو: «لا، لا...». هربا بسرعة بعيداً عن مخبئهما، وهدر محرّك السيارة خلفهما.

قال كاو: «من هنا!». فيما انزلق حول منعطف وتسلّق مجموعة من الدرجات. أمسك بيد ليديا وشدّها خلفه. ركضا عبر حديقة صغيرة، فيما توقفت سيارة الشرطة فجأة. قفزا فوق بعض أحواض الأزهار، ثم اجتازا طريقاً أخرى، وركضا تحت قوس، وبمحاذاة صف من المتاجر المغلقة. النفايات غطّت الأرض، وحرّكها هواء عاصف. سمع كاو صوت خطوات خلفهما، ورأى ضوءاً وامضاً يلمع في العتمة.

صرخ الصوت: «هل رأيت أين ذهبا؟».

صرخ صوت آخر: «لا. تحقق من هذه الطريق».

خرج كاو وليديا من الجهة الأخرى للمحلات. كان كاو يتنفس بسرعة كبيرة، فيما انحنت ليديا إلى الأمام، واضعة يديها على ركبتيها. في الجهة المقابلة من الشارع يوجد مطعم، مع لافتة نيون وامضة فوق الباب.

قال كاو فيما انتصبت ليديا: «أعتقد أننا أضعناهما، لكن يجدر بنا متابعة التحرك».

أجابت ليديا: «حسناً». فيما أبعدت خصلة شعر عن جبينها المتعرّق.

انطلقا راكضين مجدداً. كان كاو لا يزال ينظر إلى الخلف حين ركضا في منعطف وارتطما مباشرة في ثنائي يمسكان يدَي بعضهما بعضاً. تعثر كاو ووقع على ليديا.

تمتم: «عفواً».

قالت المرأة: «هاي أنت!».

كانت تنتعل حذاء عالي الكعب وترتدي معطفاً من الفرو، فيما بدت شفتاها باللون الأحمر الساطع. وارتدى الرجل الذي كانت معه بذلة سوداء، وبدت وجنتاه متوردتين. قال لليديا: «تابعي المشي».

ثم أسرعا بعيداً. سمع كاو المرأة تقول: «حبيبي، أليست هذه هي الفتاة المفقودة التي ذُكِرت في نشرة الأخبار؟».

انطلق كاو يركض سريعاً؛ ممسكاً بذراع ليديا. المطاعم والنوادي والمتاجر الفارغة أفسحت المجال أمام منطقة الأعمال. كانت المنطقة خالية تماماً، وبدت ناطحات السحاب مثل حرّاس على جانبي الشارع. وعكست نوافذها السوداء مئات الظلال لكاو. أرهف السمع لتمييز المزيد من صفارات الإنذار، ولكن صفو الليل لم يعكّره أي صوت.

شهقت ليديا وقالت: «هل نستطيع إبطاء الوتيرة الآن؟ علينا توخي الحذر. وجهانا... باتا معروفين جداً».

أومأ كاو برأسه، وبدا حزيناً.

خلف المباني الفولاذية والزجاجية، ظهرت المدينة على شكل منحدرات أشجار مشتملة على منازل سكنية.

قالت ليديا: «نحن نبحث عن هنري كوايكر، أليس كذلك؟ هيريك هيل من هذه الناحية». وأشارت إلى طريق محاط بالأشجار. «هاي، ما المسألة؟».

توقف كاو على جانب الطريق وقال: «لا شيء. المسألة فقط... هي أني لم أخرج قبلاً أبعد من هنا».

ابتسمت له ليديا، ثم اجتازت الشارع، ولحق بها كاو.

بات المكان هادئاً على نحو غريب بعد أن غادرا صخب وسط المدينة. حتى إن رائحة الهواء كانت مختلفة؛ فقد كانت أكثر نظافة وانتعاشاً. لا توجد مصابيح في الشارع، وبعد فترة وجيزة اختفت الأرصفة أيضاً، فيما سار كاو وليديا على الطريق المؤدية إلى أعلى الهضبة. كانت الغربان غير منظورة تقريباً وهي تحلّق بين أغصان أشجار الصنوبر. حدّق كاو في الأشجار، لكنه لم يستطع أن يرى أبعد من بضعة أمتار قبل أن تبتلع العتمة الجذوع. بين الحين والآخر، مرّا أمام ممشى مؤدٍ إلى منزل مرتدّ كثيراً عن الطريق.

توترت أعصاب كاو، ونظر بشكل متواتر حوله؛ فالذهاب إلى أي مكان جديد يجعله قلقاً، وكلما ازدادت المسافة التي تفصلهما عن حديقة بلاكستون، ازداد قلقه.

سأل: «هل أنت واثقة أن هذه هي الطريق؟». كان صوته منخفضاً ومكتوماً.

أومأت ليديا برأسها وأجابت: «لا يمكنك تفويت غورت هاوس. إنه أحد أقدم المنازل في المدينة. كنا أنا وأبي نأتي أحياناً إلى هنا في عطلة نهاية الأسبوع... نأخذ بنجي في نزهات طويلة في الريف». تجمد وجهها. «أقصد، كنا نأخذ بنجي في نزهات طويلة».

نظر إليها كاو بسرعة، متوقعاً رؤيتها تكبح دموعها. لكنها بدت أكثر عزماً وتصميماً.

ليديا محقة، لا يمكن أبداً تفويت غورت هاوس. أول ما رأياه منه كان حائطاً طويلاً مسيجاً بأسلاك حديدية شائكة، مع بوابة مزدوجة

شائكة. بدا المكان وكأنه كان سابقاً حصيناً مثل القلعة، وهذا هو السبب ربما الذي أبقى كوايكر بمنأى عن أتباع الرجل الدوّام خلال الصيف المشؤوم. لكن، بدا أن خارق القططة قد ترك المكان على حاله منذ ذلك الحين. بعض الأشواك الحديدية في البوابة مكسورة، وتركت وراءها أعقاباً غير مؤذية.

فيما اقتربا أكثر، شاهدا ممراً طويلاً خلف البوابة يؤدي إلى المنزل. انتصب المنزل على أعلى الهضبة، وكان شاهقاً في السماء. ثمة نافورة مغطاة بالطحالب وسط الفناء الأمامي للمنزل، ولمعت المياه مثل الفضة تحت ضوء القمر. تألف المنزل من ثلاث طبقات، مع برج عند كل زاوية، وشرفات في الأعلى. يبدو أنه كان سابقاً مطلياً باللون الأزرق الساطع، لكن الوقت أدى إلى خبو اللون وتشققه، حيث لم يبق من اللون إلا الرمادي الباهت. امتدت نوافذ مقنطرة على ارتفاعات غير متساوية في الجهة الأمامية والجانبين، وغطى نبات اللبلاب الجدران كما لو أنه يحاول خنقها. ثمة نافذة واحدة في الطابق الأول مضاءة بنور خفيف.

قالت ليديا وهي تضع يداً على الدرابزون: «هل ندخل؟».

أومأ كاو برأسه، ودفع ليديا إلى الأعلى، ثم تسلق خلفها.

قالت ليديا: «أنت أقوى مما تبدو عليه». فيما تسلقت بحذر فوق البوابة حيث اختفت الأشواك الحديدية.

تورّد كاو خجلاً، فيما نزلت ليديا في الجهة الأخرى. لحق بها، وهبط في وضعية قرفصاء صامتة.

لم تكن كل أنحاء غورت هاوس مهجورة ومهملة. إذ ثمة حدائق على جانبي الممر المؤدي إلى الجهة الأمامية للمنزل، فيما الشجيرات مقلّمة بدقة على شكل قطط. لاحظ كاو أن النافورة عبارة عن منحوتة

قطط تلعب مع بعضها، فيما المياه تتدفق من أفواهها. انسحقت خطواته على الممر المرصوف بالحصى، ولم يستطع كبح إحساسه بأنهما قيد المراقبة من إحدى النوافذ العديدة الموجودة في مبنى المنزل. تسارع خفقان قلبه، فيما رفع مقرعة الباب الثقيلة التي كانت على شكل مخلب من الحديد.

طق! طق! كان صوت المعدن قوياً جداً.

تراجع كاو خطوة واحدة إلى الخلف وانتظر. كانت غربانه جاثمة عالياً على أحد الأبراج؛ بعيداً عن مرأى الآخرين. قال لنفسه: غريب! البارحة كانت تعارض بشدة القيام بمثل هذه الرحلة. لكنها بالكاد تتفوه الآن بأية كلمة.

بدا وكأنه بعد انكشاف الحقيقة الآن، باتت الغربان راضية عن تلبية طلباته. لا يعرف ما إذا كان ذلك ناجماً عن ازدياد احترامها له، أو إن السبب يعزى ربما إلى عناده فقط.

سمع صوت خطوات من الداخل، ومن ثم صوت مفتاح يبرم. فُتح الباب مصدراً صريراً؛ مجرد سنتيمترات قليلة، وخرجت قطة بعينين خضراوين وتسللت بين رجلي كاو.

نظر كاو إلى سروال أرجواني فضفاض تعلوه كرش كبيرة مغطاة بمعطف أرجواني متناسق ومزين بأزرار كوارتز. ارتدى الرجل سترة صوفية باللون البرتقالي المحمرّ. كان وجهه عريضاً مع وجنتين متورّدتين، وشاربين ممتلئين بلوني الملح والفلفل، مفتولين على الجانبين ليبدوا مثل شاربي القطة. لمعت عيناه الصغيرتان المفعمتان بالشك، وكانت إحداهما تبدو أكبر بقليل بسبب نظارة زجاجية أحادية العدسة متصلة بسلسلة فضية.

عادت القطة التي كانت عند كاحلي كاو إلى الداخل. وبعد قليل،

قفزت إلى الأعلى، واستراحت على كتف الرجل.

سأل كاو: «فيليكس كوايكر؟».

«ومن تكون؟».

تـردد كاو، متمنياً لـو أنه فكّـر أكثر في هذه المسـألة. فكل شـيء يعتمد على ما سيقوله لاحقاً.

صرخ الرجل: «ماذا؟ هل أكلت القطة لسانك؟». وابتسم ابتسامة مخيفة، ولمح كاو سناً صغيرة ناتئة خلف شفتيه.

قال: «اسمي كاو. أنا خارق حيوانات مثلك، و...».

انغلق الباب بقوة.

طرقـت ليديا علـى الباب مجـدداً، وصرخـت عبر البـاب: «نريد التحدث إليك».

قال الرجل من الداخل: «هذا مؤسف جداً عزيزتي. لأني لا أريد أي شيء له علاقة بكما».

قال كاو: «أرجوك. نعلم أنك خارق حيوانات».

«لا أعرف عما تتحدث. سوف أتصل بالشرطة. من الأفضل لكما أن تهربا بعيداً من هنا قبل وصولها».

وجـه كاو نظـرة سـريعة إلـى ليديـا، فهمسـت لـه: «لـن يتصـل بالشرطة. دعنا نعثر على سبيل آخر للدخول».

انتقـلا بأكبر قدر مـن الهـدوء إلى جانـب المنزل. وفـي منتصف الطريق، أطلق غلام صيحة من إفريز ضيق فوقهما.

ثمة نافذة في الطابق الأول. ليست مغلقة جيداً.

همس كاو: «رائع!».

لحسـن الحـظ، كان اللبلاب سـميكاً بمـا يكفي ليحكـم قبضته، ووضع يديـه بعنايـة بين شـرك الأغصـان، وتدبّـر طريقه إلـى الأعلى.

لحقت بـه ليديـا، وبدت غيـر واثقـة. قـال لهـا: «لا تقلقي. سـيتحمل وزنك». فقد سبق له أن تسلّق كتلات لبلاب أضعف من هذه بكثير في الحديقة العامة.

وجـد النافـذة مفتوحـة قليـلاً. كانـت الإطـارات مصنوعـة مـن الرصاص، والزجـاج قديماً جداً حيث تشـوّه شـكله. فتـح كاو النافذة باستخدام القوة. لم يجد الكثير في الغرفة، باستثناء ما بدا علباً زجاجية على الطاولات.

قفز كاو على الإفريز، وتمدد لسـحب ليديا إلـى الأعلى. تمايلت قليلاً، لكنه أبقـى قبضته محكمة على ذراعها، فتسـلّقت بنجاح. حطّت الغربان الثلاثة قـرب كاو، فيما خفقت أجنحتها السـوداء والبيضاء، ثم جثمت على إفريز النافذة.

قال كاو: «من الأفضل أن تبقي في الخارج».

قال غـلام وهو يسـتقر على ريـش بطنـه: إذا توجب علينـا ذلك. لكن، توخّ الحذر.

أجاب: «سأفعل».

حطّ سكريتش قربه. هيا انتقل أيها الريان.

همست ليديا: «هاي، تحقق من هذا!».

دخل كاو الغرفـة، ورآها واقفة قرب إحدى العلـب الزجاجية. لا يوجد شـيء في الغرفة باسـتثناء الطاولات والعلب. لحق كاو بالاتجاه الذي تشير إليه إصبع ليديا وشـهق. داخل العلبة، ثمة يد صغيرة ذاوية، مجعدة وبنية اللون. قال: «هل تظنين أنها حقيقية؟».

هزّت ليديا كتفهـا، وانتقلت إلـى العلبة التالية التـي احتوت على ترس مقـوّس من الزجـاج أو الكريسـتال، أو ربما حتى مـن الألماس، مع شعر مغروز في الداخل. لم يرَ كاو مطلقاً شيئاً كهذا من قبل. العلبة

الثالثة احتوت على قناع مصنوع من رقاقة معدنية رقيقة مقولبة على شكل وجه أسد.

قالت ليديا: «أعتقد أن هذا من الذهب. ما هذا المكان بالله عليك؟».

«قال كرامب إن كوايكر يجمع أموراً لها علاقة بالخارقين. لكن هذا لا يبدو مثل أشياء عتيقة. تبدو هذه الأشياء نفيسة. أتساءل عما يخبئه هنا أيضاً».

ذهب إلى الباب وأنزل المقبض. فُتح الباب بسهولة على ممر مكسو بالسجاد فوق مجموعة من السلالم العالية التي يحدّها درابزون مزخرف من الخشب الداكن. ثمة لوحات عملاقة تزين الجدران، بالإضافة إلى لوحات لرجال ونساء في ملابس تاريخية مختلفة. هل جميعهم من الخارقين؟ هناك تماثيل سوداء لقطط موضوعة على قواعد عند منعطفات السلالم. فجأة، تحرك أحدها وأدرك كاو أنها حية. نزلت القطة السلالم وكأنها ظل.

امتصّت السجادة وقع خطوات كاو فيما خرج من الغرفة. وصل إلى منبسط مؤدٍ إلى مجموعة أخرى من السلالم المتجهة إلى الأعلى. المزيد من العلب الزجاجية زيّنت الجدران في منبسط السلالم الذي تتفرع منه أبواب عدّة، وكانت كلها مغلفة. كان كاو واثقاً من أنه لم يأتِ أبداً إلى هنا من قبل، لكنْ ثمة شيء مألوف في المنزل. وضع قدمه على أول درجة مؤدية إلى الأعلى.

في مكان ما، عزف البيانو بطريقة متنافرة، ثم توقف.

همست ليديا: «إلى أين أنت ذاهب؟ يبدو أن كوايكر في الأسفل».

وضع كاو يده على الدرابزون، وتحرّكت قدماه، وشدّتاه صوب

أعلى المنزل؛ لكنه لم يعرف السبب.

همست ليديا: «هاي، ألا تريد النظر إلى هذه؟». كانت تقف قرب إحدى العلب، وتضغط بأنفها على الجانب. «إنها قلادة عنكبوت!».

ثمة نداءات من دون كلمات تتوسل إلى كاو، وتدعوه للصعود إلى أعلى السلالم.

قالت ليديا خلفه: «اعتقدت فقط - مثلما تعلم - العناكب وكل شيء». وبدا صوتها خافتاً وبعيداً.

صعد كاو السلالم. في الأعلى، لا يوجد أي شيء، بل مجرد منبسط مربع صغير من الألواح الخشبية العارية ومن دون نوافذ.

قالت ليديا بهمس ملحّ: «كاو، عد إلى هنا. لماذا تتصرف بهذه الغرابة؟».

مشى نحو الجدار، ومرّر يديه فوق سطحه غير المستوي. توقع أن يكون بارداً، لكنه لم يكن كذلك. أسرعت ليديا في صعود السلالم خلفه.

سألته: «كاو، هل يمكنك سماعي؟».

وضع راحة يده على الجدار قرب الزاوية اليمنى.

قالت ليديا: «أنت تخيفني. ما الذي يجري؟».

ضغط كاو بشدّة، فانزاح قسم من الجدار، حيث انقلب إلى الداخل. وكان ثمة باب ضيق مخفي انفتح صوب الداخل من دون أن يصدر أي ضجيج. هدأ الدم المتدفق عبر صدغي كاو.

سألته ليديا: «كيف عرفت بوجوده؟».

قال كاو وهو يدخل عبر الباب: «لم أكن أعرف». أو ربما عرف بطريقة ما.

كانت الغرفة مظلمة، من دون أي ضوء. لا بد أنها في أحد الأبراج، لأنها كانت دائرية الشكل، مع نافذة واحدة عالية في الجدار. كانت تشبه الزنزانة أكثر من أي شيء آخر. ثمة كرسي هزاز وخزانة ملابس قديمة فيها، بالإضافة إلى مغسلة متسخة. لكن كل هذه التفاصيل اختفت عندما وقعت عينا كاو على شيء في وسط الغرفة.

كانت هناك علبة زجاجية محتوية على وسادة مخملية حمراء. وعلى الوسادة، استراح سيف طوله متر واحد تقريباً، له نصل أسود ومحنيّ قليلاً، كما أنه عريض عند القاعدة، ومستدق الرأس بشكل مميت. بدا وكأنه سيف قديم تم نبشه من تحت الأرض وصقله إلى أن لمع سطحه. كان مقبض السيف مطوقاً بعدة مخالب معدنية ملتفة، ومغطى بطبقة رقيقة، فبدا مثل الجلد الأسود. وثمة كتابة محفورة على طول النصل.

سأل: «ماذا كتب؟». كان صوته أشبه بنعيب الغراب.

نظرت ليديا عن كثب، ثم قالت: «إنها لغة غريبة، ورموز غريبة. اسمع، ثمة فأس كبيرة جداً في الأسفل. تعال وانظر!».

لكن كاو لم يكن مهتماً في أي فأس. لا يعرف لماذا، لكنه عرف أن هذا السيف مهم. وعرف بطريقة ما ملمسه، ووزنه، من دون أن يمسك به حتى. عرف أن السيف كان يناديه إلى هذه الغرفة. فقد أراد أن يتم العثور عليه. تمدد صوب العلبة.

سألته ليديا: «هل أنت واثق من أنه يجدر بك فعل هذا؟».

قال كاو: «نعم». فيما لمست أصابعه الزجاج، امتلأ رأسه بضوء مبهر، مما جعله يتراجع إلى الخلف. لمعت أمام عينيه صور من كابوسه: فم أمه المفتوح خوفاً، وأصابع والده المتشبثة بحنجرته، وخاتم العنكبوت على إصبع الرجل الدوّام الطويلة.

شهقت ليديا: «كاو! أحدهم آتٍ».

اختفت الرؤيا من عقل كاو. سمع صوت خطوات، ثم دخلت قطط الغرفة وهي تهسهس. فتح الباب الضيق بقوة، ودخل فيليكس كوايكر عبره. بدأ كاو بالقول: «أستطيع أن أشرح...».

أمسكه كوايكر من أذنه وقال: «كيف تجرؤ على الدخول إلى هنا؟ اخرج!».

دفع كاو بقوة في اتجاه الباب، فشعر بالألم في جانب رأسه. أحسّ أن ليديا تلحق به، وقالت: «أرجوك، لا تلحق به الأذى. أردنا فقط التحدث».

سحب كوايكر كاو إلى خارج الغرفة، وجرّه إلى الممر. تعثر كاو أثناء محاولته الحفاظ على توازنه، وانحنى إلى الأمام قدر الإمكان للحؤول دون اقتلاع أذنه من رأسه. تدفقت القططة خلفهم، وكانت تموء طوال الوقت.

صرخ كوايكر: «أيها الحقيران الصغيران! أنوي فعلاً... ما الذي يحصل؟».

سمع كاو صوت خفقان أجنحة، وتراجع كوايكر إلى الخلف، فيما دخل ميلكي وغلام وسكريتش الغرفة بسرعة. قال كاو: «لا، لا تفعلي هذا». فيما هجمت الغربان على خارق القططة. في الوقت نفسه، قفزت قطط عدة في الهواء. جفل كاو حين سحبت القططة الغربان إلى الأرض، وثبتتها بسهولة. سوّى كوايكر معطفه، ولعق شفتيه فيما راقب الغربان.

قال كاو: «أرجوك. الغربان تحاول مساعدتي فقط!».

نظرت القططة إلى سيدها، ولمعت عيونها بمظهر جائع.

قال كوايكر بصوت بارد: «لقد حان الوقت ربما لأدلل أحبتي

بوجبة لذيذة. ففي النهاية، هذا منزلي».

قال غلام، وهو يتلوّى تحت مخلب قطة: افعل أسوأ ما عندك يا خارق القطة.

قال ميلكي بهدوء: كاو، اتركنا، اذهب الآن.

تفاجأ كاو بصوت الغراب الأبيض، وشعر بالشجاعة، فهو لم يقطع كل هذه المسافة ليخذل غربانه. قال: «لن أذهب إلى أي مكان. جئت إلى هنا للتحدث مع فيليكس كوايكر عن والديّ والرجل الدوّام».

قال ميلكي بصوت أكثر إلحاحاً: كاو، عليك الهروب من هذا المكان!

فتل كوايكر طرفي شاربيه، ونظر إلى كاو بفضول. «يعجبني عنادك أيها الصبي، لكن مثلما قلت لك سابقاً، ليس لديّ ما أقوله. والآن، اخرج من...».

فُتح الباب الأمامي في الأسفل مع صوت مدوٍّ. ومن بين الأعمدة العريضة للدرابزون، شاهد كاو ثلاثة كلاب شرسة، يسيل لعابها، تدخل عبر الردهة الأساسية للمنزل. وظهر ظل على السجادة الخارجية، ثم دخل جاوبون الضخم.

الفصل الثالث عشر

تراجع كاو إلى الخلف واختفى عن الأنظار، وقال بهمس: «إنه جاوبون!».

تبدل مظهر كوايكر فجأة، وبدا وكأنه قد تحول من ناسك متطرف إلى مختلس، فتحرّك بمحاذاة الجدار مثل السائل. ألقى نظرة على السلالم، وأصدر صوت طقطقة من حنجرته. وعلى الفور، انتفضت قططه واحتشدت حوله تاركة الغربان. أطلق غلام صيحة ألم، فيما زمجرت الكلاب في الأسفل.

قال جاوبون: «يبدو أنك أصبحت كسولاً مع تقدمك في العمر، كوايكر. لا تريد أن يدخل رجال مثلي مخبأك. والآن، اخرج أيها الهرّ الصغير. أعرف أنك هنا. تستطيع كلابي شمّ رائحتك».

شدّ فيليكس كوايكر أذن كاو إلى شفتيه. «لقد فعلت ما يكفي من الأذى. الآن، اخرج من هنا فيما لا يزال بإمكانك فعل هذا!».

بدأ كاو: «لكن...».

اقترب صوت الكلاب النابحة أكثر فأكثر.

قالت ليديا: «هيا!». وتوجهت صوب الأسفل، إلى الغرفة المشتملة على العلب الزجاجية، ولحق بها كاو مع غربانه.

صرخ جاوبون: «لا تزعج نفسك في الهروب منا كوايكر! ستجعلها أكثر غضباً!».

عند باب الغرفة، توقف كاو. كانت ليديا قد أصبحت عند حافة النافذة، لكن شيئاً ما جعله يرجع قدميه إلى الخلف. السيف؛ إنه يناديه. عليه امتلاكه. صرخ لليديا وهو يستدير: «اذهبي من دوني!».

قالت: «انتظر! إلى أين...».

اختفى صوتها فيما اندفع كاو أمام كوايكر وقططه وصعد السلالم. توجه إلى غرفة البرج. صرخ غلام: كاو، اتركه! وخفق بجناحيه في أرجاء الغرفة.

تأمل كاو العلبة المقفلة باهتياج شديد. لا يوجد شيء لكسرها به... لا بد أن كوايكر يملك المفتاح...

في الأسفل، سمع صراخ القططة فيما هاجمت، علتها أصوات الكلاب المزمجرة والنابحة. صرخ كوايكر: «ستدفع الثمن إذا ألحقت الأذى بأي منها!».

توقف النباح فجأة.

قال جاوبون: «والآن، حان الوقت لبعض الكلام. ظننتَ أنك خدعتنا، أليس كذلك؟ تصرفت مثل رجل عجوز مجنون وضعيف. لكننا نعرف ماذا خبأت بعيداً. جاءت صراصير سكاتل إلى هذا المكان ووجدته». كان صوته هادئاً بشكل خطير. «لذا، لا مزيد من الألعاب بعد الآن. خذني إلى منقار الغراب».

سمع كاو بعض الصدمات القوية، وصرخ كوايكر بعنف: «اخرج من منزلي أيها الوحش الحقير». وامتزج صوته بالألم.

وقعت عينا كاو على السيف. منقار الغراب. هذا السلاح... هذا ما يخبئه كوايكر. تحدثت الكلمات إلى شيء عميق داخله. هذا السيف سيفه، إنه سيف خارق الغربان.

قال جاوبون: «توقف عن المراوغة كوايكر، أو هل يجدر بي استدعاء سكاتل؟ ستدخل الصراصير عبر أذنيك وتأكل دماغك. ستبقى قادراً على الإحساس بها لوقت طويل بعد عجزك عن الصراخ. أو هل أستدعي مامبا؟ لدغة واحدة من أفاعيها وستصبح مشلولاً. أقسم لك كوايكر، إذا توجب عليّ ذبح كل قطة في هذا المنزل، الواحدة تلو الأخرى، فسأفعل ذلك. مهما كلّفني الأمر لجعلك تتكلم».

ساد صمت وجيز، ثم أجاب خارق القطة، وقد أصبح صوته بارداً فجأة: «في الأعلى».

تجمّد كاو في مكانه. لا مكان للهروب. صعد على الكرسي، ثم تمدد صوب النافذة، ولكنها عالية جداً. حتى لو قفز، فلن يتمكن من الوصول إليها.

طار سكريتش نحو خزانة الملابس. لا داعي لأن يتكلم. فهم كاو الأمر. أسرع عبر الغرفة، فيما تصاعدت خطوات جاوبون على السلالم. فتح كاو باب الخزانة بقوة وقفز داخلها. وانزلقت الغربان إلى الداخل أيضاً، ثم أغلق كاو الباب بسرعة، ووضع عينه على الشق.

دفع جاوبون كوايكر بقوة داخل الغرفة، فوقعت النظارة الأحادية للرجل، وهبطت على الأرض مصدرة صوتاً خفيفاً. توقفت الكلاب عند الباب تشمّ الهواء. كان خارق القطة ينزف من منخريه، وبرزت كدمة كبيرة تحت عينه.

قال كاو لنفسه: إذا شمت الكلاب رائحتي فقد قضي عليّ.

لكن الكلاب بدت حذرة؛ لا بل خائفة. وتدلّت ذيولها بين قوائمها، ولم تحاول اجتياز العتبة. وكانت الكلاب الثلاثة تحدق في منقار الغراب.

أحسّ كاو بالخوف حين رأى الدم حول فم أحد الكلاب وعلى شفتيه السوداوين المترهلتين. يبدو جلياً أن الحظ لم يحالف إحدى قطط كوايكر.

تجوّل جاوبون في الغرفة، وطقطقت ألواح الأرضية الخشبية مع كل خطوة خطاها. استدار حول العلبة الزجاجية، وصرخ بقوة: «أين المفتاح؟». ومدّ يده مثل الرفش.

أجاب كوايكر، وهو يمسح الدم عن فمه بواسطة منديل. «إنه في الأسفل في مكتبي. إذا أردته، فبإمكانك البحث عنه بنفسك».

زمجرت الكلاب الثلاثة خلف خارق القططة.

ابتسم جاوبون ابتسامة عريضة، وتحوّل وجهه الموشوم إلى قناع مخيف. أطبق راحة يده المفتوحة على شكل قبضة، ورفعها عالياً فوق رأس كوايكر وكأنها كرة مدمّرة. بالكاد استطاع كاو النظر. هل سيسحق السجين جمجمة الرجل العجوز أمام عينيه؟

إلا أن جاوبون استدار حول نفسه وضرب بيده العلبة الزجاجية، فتحطّم الزجاج، وتناثرت الشظايا في كل أنحاء الغرفة. قال: «يبدو أني لا أحتاج إليه».

فيما مدّ جاوبون يده وأمسك بمقبض منقار الغراب، أحسّ كاو بالغضب الممزوج مع شيء آخر؛ الحسد. عليه منع نفسه من القفز خارج الخزانة ومهاجمة خارق الكلاب على الفور.

برم جاوبون السيف تحت الضوء الخفيف المنبعث من المصباح في السقف، وتأمله عن كثب. لمع المعدن، وبرزت حروف غريبة. قال: «لا يبدو لي مهماً جداً. يبدو وكأنه لعبة ولد صغير».

قال فيليكس كوايكر: «إنه لا يقدّر بثمن. لكن في الأيدي الخاطئة...».

قال جاوبون: «أرجوك، وفّر عليك العناء. أعرف ما هو». وأدخل السيف عبر حزامه، فصرّ كاو أسنانه.

قال كوايكر، وصوته مثقل بالإرهاق: «لقد حصلت على ما جئت من أجله. الآن، غادر».

أومأ جاوبون برأسه، ثم أنزل رأسه صوب الأسفل، وانحنى فوق الأرض، وقال: «ما هذا؟».

وفيما وقف مجدداً، توجهت عينا كوايكر جزءاً من الثانية صوب الخزانة. كان جاوبون يمسك بريشة سوداء.

علق صراخ خوف في حنجرة كاو.

قال جاوبون: «خارق الغربان هنا». لم يكن هذا سؤالاً، بل تصريحاً واضحاً. هزّ كوايكر رأسه.

قال جاوبون: «أنت كاذب سيئ. سيعثر عليها رفاقي سريعاً».

قطّب كوايكر جبينه، وأدرك كاو أنه ارتبك هو أيضاً.

هي؟

قال كوايكر فجأة: «لن تعثر عليها!». دفعه جاوبون بقوة بعيداً عن طريقه، وتوجه مسرعاً صوب الباب، ثم توقف وتحدث من دون الالتفات إلى الوراء.

«يقولون إنكم يا خارقي القططة تملكون تسع حيوات. سوف نرى صحة ذلك الآن».

قال كوايكر وهو يندفع إلى الخلف: «ماذا؟». وصدر صوت انسحاق فيما داس على نظارته الأحادية.

مرّر جاوبون يده على رأس كل واحد من الكلاب. وفيما فعل ذلك، أرجعت الكلاب آذانها إلى الخلف ورفعت ذيولها، فقال لها: «اقضي عليه!». وغادر الغرفة.

صرخ كوايكر: «لا».

دخلت الكلاب باهتياج شديد. رأى كاو فيليكس كوايكر يرفع الكرسي إلى الأعلى ويلوّح به أمامه، وهذا ما جعل الكلاب تنبح بتهديد أكبر.

قال كوايكر، وهو يحرّك الكرسي جيئة وذهاباً: «أوريون، فيسبا، مونتي، أخرجي مخالبك!».

قفز أحد الكلاب على وجهه فتجنّبه كوايكر برشاقة. بعد هنيهة، انغرزت أنياب كلب ثانٍ في كمّه ومزّقت جزءاً منه.

فتح كاو باب الخزانة، وأطلق صرخة لإلهاء الكلاب. في الوقت نفسه، أمر غربانه بالهجوم. طارت الغربان وغرزت مخالبها في عيون الكلاب وطعنتها بمناقيرها. أمسك كاو بكوايكر وسحبه إلى خارج الغرفة. طارت الغربان خلفهما، وما إن خرج الجميع من الغرفة، حتى أغلق كوايكر الباب بقوة.

في الجانب الآخر، سمعا الكلاب تنبح بقوة وترمي بنفسها على الخشب، فاهتزّ الباب في إطاره. أخيراً، صعدت ثلاث قطط السلالم، وهي تهسهس، لكنها توقفت فيما لوّح كوايكر بيده بإنهاك.

قال: «لقد كنت مفيدة أيتها القططة الثلاث».

استجابت القططة بإصدار سلسلة من أصوات الخرخرة الساخطة.

قال كوايكر: «حسناً، يمكن قول ذلك. لحسن حظي أن الغربان كانت هنا». استدار صوب كاو. «ما لا أفهمه هو سبب قول جاوبون عن خارق الغربان هي... فرحتُ بالمشاركة في تضليله، لكن...».

قاطعه كاو: «ليديا! إنهم على الأرجح يعتقدون أن ليديا هي خارقة الغربان! علينا العثور عليها».

قال كوايكر: «انتظر». لكن كاو بدأ ينزل السلالم.

صدح صراخ ليديا في أرجاء المنزل، ما جعل قلب كاو يخفق بقوة. نزل السلالم بمعدل درجتين في كل مرة، تاركاً خلفه غربانه، ومندفعاً بقوة عند منعطف منبسط السلالم، وكأنه خفيف مثل الهواء. أحسّ وكأن ريحاً تحمله، وتعطيه سرعة لم يكن معتاداً عليها.

عند منبسط الدرج، شاهد قطة ميتة وسط بركة من الدماء.

صاح غلام: انتظر.

نزل كاو طابقاً إضافياً بقفزتين اثنتين للوصول إلى الطابق الأرضي، وكان يعدو بسرعة. اندفع عبر الباب الأمامي للمنزل الذي كان منحرفاً على مفصلاته، فيما حلّق سكريتش أمامه وخفق بجناحيه بقوة.

في آخر الممشى، كان جاوبون يمشي بسرعة في اتجاه عربة مقفلة، فيما جلست مامبا على المقعد الأمامي، ودفع سكاتل ليديا عبر باب جانبي منزلق. كانت تركل بجنون، وتصرخ: «اتركني! أبعد عينيك عني!».

أغلق جاوبون الباب خلفهما.

ركض كاو بأسرع ما يمكن، لكن جاوبون كان يجلس على المقعد الأمامي. حتى إنهم لم يروه.

صرخ كاو: «توقف!».

لكن عجلات العربة المقفلة تحركت بسرعة، تاركة وراءها زوبعة من الحصى والدخان. ثم خرجت بسرعة عبر البوابة المفتوحة، ونزلت الهضبة. ركض كاو خلفها، وتبددت آماله، فيما اختفت الأضواء الخلفية للعربة المقفلة بعيداً. اشتعلت النار في صدره، وتوقف فجأة في منتصف الطريق.

قال: «لا... أرجوكم...».

ليس لديا أيضاً.

صفق ميلكي بجناحيه في السماء، وهبط على ذراعه، ثم هبط غلام وسكريتش أيضاً.

قال كاو: «يظنون أنها خارقة الغربان».

أجاب غلام: وسيكتشفون سريعاً أنها ليست كذلك.

سيطر كاو على نفسه. «ماذا سيفعلون حينها؟».

لم يجب غلام لوقت طويل.

قال أخيراً: يجدر بنا العودة إلى المنزل. لا بد أن خارق القططة يستطيع المساعدة.

أومأ كاو برأسه، لكنه لاحظ أن غلام لم يجب عن سؤاله.

عثر كاو على فيليكس كوايكر في الممر، وكان يحمل القطة الميتة بين ذراعيه. نظر إلى الأعلى فيما اقترب منه كاو.

قال كاو بصوت أجوف: «لقد أخذوها. أرجوك... إنها الصديقة الوحيدة التي أملكها. ساعدني على إعادتها».

نظر كوايكر إلى كاو قليلاً، ثم عاود النظر إلى القطة بين ذراعيه، وربّت برفق على شعرها الملطخ بالدماء.

قال: «كان اسمها إيلينا. مضت خمسة عشر عاماً منذ أن عثرت عليها شاردة».

قال كاو: «أنا آسف. أعرف ما تعنيه خسارة أحدهم».

أجاب كوايكر: «نعم، أفترض أنك تعرف».

توسّل إليه كاو: «أرجوك، لا تدعني أعيش التجربة مجدداً. ليديا لا تزال على قيد الحياة. ما زال بوسعنا إنقاذها».

نظر كوايكر إلى الغربان الجاثمة على المقعد الخشبي وقال: «سوف تصمد في الوقت الحاضر. أولاً، علينا التحدث. تعال معي أيها المتحدث مع الغربان».

أطبق كاو قبضتي يديه فيما خرج خارق القططة من الغرفة. أراد الهروب إلى الشارع، والشروع في تعقب السجناء على الفور. لكنه عرف أن كوايكر قد يكون الشخص الوحيد الذي يعرف كيفية العثور عليهم. لذا، ورغم حدسه، لحق به كاو.

كان نباح الكلاب ما زال يصدح عبر المنزل، فيما رافق فيليكس كوايكر كاو إلى مطبخ في القبو. كانت الأرضية مرصوفة بالحصى، وهناك طاولة خشبية بسيطة. دخلت الغربان المطبخ، وجثمت على حافة المجلى. وضع كوايكر القطة الميتة بنعومة على ورقة جريدة أمام موقد عملاق. ظهرت دزينة من القططة الأخرى، واجتمعت حول صديقتها الميتة، وراحت تموء بنعومة. خارق القططة لا يشبه الآن أبداً الرجل الأنيق والمرتب الذي فتح الباب قبل أقل من نصف ساعة. كان معصمه ينزف نتيجة عضّة الكلب، وجفّ الدم تحت أنفه، فيما باتت ملابسه المكوية والنظيفة مجعدة وممزقة.

نظر إلى كاو بعينين مركزتين. «إذاً أخبرني، لماذا يعتقدون أن صديقتك هي خارقة الغربان؟».

قال كاو مدركاً أن ما سيقوله صحيح: «أعتقد... أنه في كل مرة رأوني فيها مع الغربان، كانت موجودة أيضاً. في الواقع، المرة الأولى كانت في الممشى، ولم يروني مطلقاً حينها، بل رأوا فقط ليديا عندما هاجم جاوبون والدها. لا بد أنهم ظنوا أنها هي من نادت الغربان لحمايته.

بعد ذلك في منزل ستريكهام، لا بد أن مامبا رأت غرباني تنتظر

في الخارج... لكنها لم ترني أيضاً. لذا، ظنوا طبعاً أنها غربان ليديا».

أراد الصراخ بسبب الظلم الذي تتعرض له ليديا بسببه؛ فلو أعادها إلى مخبأ كرامب لما حصل أيّ شيء.

قال كوايكر: «فهمت. وكيف وجدتني؟».

أجاب كاو بهدوء: «الآنسة والاس. قبل...».

قال كوايكر: «الحادثة في المكتبة». مرر فوطة تحت مياه الصنبور، ومسح أنفه النازف. «قرأت عنها. إلا أن الشرطة لم تعط أي تفاصيل. هل كنت تعرفها أيضاً؟».

أومأ كاو برأسه وقال: «جاوبون وأصدقاؤه قتلوها».

قال كوايكر وهو يطبق أسنانه الحادة على شكل تكشيرة: «إنهم متوحشون! كانت المسؤولة عن المكتبة امرأة كفوءة. أستخدم المكتبة كثيراً لإنجاز أبحاثي. لم تكن تعرف طبعاً من أكون فعلاً». رمى الفوطة مجدداً في المجلى. «قبل يومين، كنت آخذ بعض الكتب حين رأيت رسماً على مكتبها».

قال كاو: «أهو رسم عنكبوت؟».

نظر إليه كوايكر بحدّة وأجاب: «نعم. كيف...».

قال كاو: «نحن رسمناه. أنا وليديا».

رفع كوايكر حاجبيه قليلاً. «حسناً، لا بد أني جفلت عندما رأيت الرسم؛ لأن المسؤولة عن المكتبة سألتني عما يعنيه لي. لم أشأ أن تكون لي علاقة به طبعاً. لذا، أخبرتها ذلك بوضوح وصرامة، ثم غادرت على عجل».

قال كاو: «لا بد أنها حزرت أنك تعرف شيئاً عنه، فقد كتبت اسمك تحت ذلك الرسم. كانت تمسك به عندما قتلوها».

نظر كوايكر بعيداً كما لو أنه عاجز عن النظر إلى عيني كاو.

أصبح نباح الكلاب أقل تواتراً، ونظر كوايكر إلى الأعلى ثم قال: «سوف تهدأ في النهاية. لم أحب الكلاب يوماً، لكنها مبدئياً غير مؤذية بعيداً عن تأثير خارقها».

كان كاو يريد طرح الكثير من الأسئلة، وبالكاد عرف من أين يبدأ، وكيف يمكن لهذه الأسئلة أن تساعد ليديا.

قال: «إذاً، أتعرف جاوبون؟».

أجاب كوايكر: «صادفت أمثاله في الماضي. لطالما كانت سلالة خارقي الكلاب مزعجة».

قال كاو: «أهناك آخرون؟».

جلس فيليكس كوايكر بكل قوته على كرسي. «ستجد إبريقاً على الموقد مع ماء ساخن، وأوراق الشاي في ذلك الوعاء على الرف. لا أستطيع التحدث عن الخارقين من دون وجود كوب محترم من الشاي في يدي».

على مضض، أحضر كاو الإبريق ووجد كوبين. بدأ يضع بعض أوراق الشاي الجافة فيهما.

قال كوايكر: «توقف! لم تفعل هذا من قبل مثلما أرى. راقب وتعلّم». تراجع كاو إلى الخلف، وجعل خارق القطة يستلم المهمة. وضع الأوراق في شيء معدني فيه ثقوب على الجانب، ثم وضع ذلك الشيء في قدر صغيرة وملأها بالماء المغلي.

قال كوايكر: «أعتقد أني أدين لك بالشكر. كانت كلاب جاوبون ستقتلني لولا مساعدة غربانك».

أجاب كاو: «حسناً، لكنت قد متّ أنا أيضاً لو أخبرته أني كنت في تلك الخزانة».

انحنى كوايكر صوب كاو، وشمّ بعمق، ثم أومأ برأسه. «لم

أتعرف إليك في البداية، لكن كان يجدر بي ذلك. فالشبه واضح جداً».

أحسّ كاو بالوخز في عنقه. «هل عرفتَ والدَيّ؟».

سكب كوايكر السائل الأصفر في الكوبين، ودفع واحداً عبر الطاولة في اتجاه كاو.

«نعم، عرفتهما، جاك».

قال كاو: «جاك؟». وجلس في وضعية أكثر انتصاباً.

أجاب كوايكر: «أفترض أنك لم تعد تستخدم هذا الاسم». ارتشف الشاي، وخرخر دليل رضا. «أذكرك حين كنت طفلاً، جاك كارميكايل، ابن إليزابيت وريتشارد. كانا شخصين ذكيين وشجاعين أيضاً؛ ربما شجاعين كثيراً في النهاية».

جفل كاو وحبس دموعه. وجّه انتباهه إلى كوب الشاي، وارتشف القليل منه، وجعل النكهة الغريبة تستقر على لسانه ثم جفل.

قال كوايكر مبتسماً: «أرى أنك لم تحبه؛ تماماً مثل أمك».

جلس كاو في وضعية أكثر انتصاباً.

قال كوايكر: «حسناً، لا يجدر بنا التفريط به». وسحب الكوب صوبه. ارتشف الشاي مجدداً. «هل تعرف شيئاً؟ ظننت أن سلالة خارقي الغربان انتهت. فبعد أحداث الصيف المشؤوم، ذهبت إلى منزلكم. كنتم قد رحلتم جميعاً، لكن الآثار بقيت موجودة. شباك العنكبوت كانت سميكة جداً، حيث توجّب عليّ استعمال فأس للدخول عبر الباب». هزّ كوايكر رأسه عند تذكره ذلك. «يا لها من موهبة ضائعة! لو أن أمك أبقت نفسها مختبئة في الداخل - مثلما فعلت أنا - لبقيت ربما على قيد الحياة، لكن...».

توقف كوايكر في منتصف الجملة، وبدا أنه لاحظ الصدمة على وجه كاو. وعندما تحدث مجدداً، كان صوته أكثر نعومة. تابع كوايكر

الفـول: «مثلما قلـتُ، كانا شـجاعين». ارتشـف الشـاي مجـدداً. لكن لهنيهة، رآه كاو وكأنه يشعر بالخجل.

سأل كاو: «لماذا ذهبت إلى منزل والديّ؟».

أجاب كوايكر: «لاستعادة منقار الغراب طبعاً».

«ذلك السيف».

أومأ خارق القططة برأسه. «لحسن حظي، خبأته أمك جيداً».

سأل كاو: «ما هذا؟ أهو سلاح؟».

اتسـعت عينا كوايكر قليلاً، ثم ضاقتا مجدداً. «من المؤسف أنك لا تعرف الكثير عن تاريخك جاك».

أحسّ كاو بالتورد في وجنتيه. «إذاً، أخبرني».

«قد يبـدو منقـار الغراب مثـل سـلاح، لكنه فـي الواقـع أداة؛ إنه مفتـاح يتناقلـه خارقـو الغربـان منـذ العصـور الغابـرة، عندمـا كانـت بلاكسـتون مجرد حقول ونهر. منذ خارق الغربان الأول تحديداً؛ بلاك كورفوس أو كورفوس الأسـود. يسـتطيع هذا السـيف قطـع الحجاب الفاصل بين هذا العالم والبعد الآخر».

سأل كاو: «البعد الآخر ؟!».

أطلق ميلكـي صيحة بصوت منخفـض من حافـة المجلى، ونظر إليه الغرابان الآخران بتوتر.

اهتزّ كوب كوايكر فوق صحنه فيما وضعـه على الطاولة، وحدّق ملياً في كاو. وحوّلت القططة الجالسة قرب الموقد عيونها إلى سيدها، بآذان صاغية ويقظة.

أحسّ كاو بانقباض في معدته.

تابع خارق القططة وهو ينظر بسـرعة إلى ميلكـي: «لطالما كانت الغربان مميزة. إنها الكائنات الوحيدة القـادرة على التحرك ذهاباً وإياباً

بين هذا العالم والبعد الآخر».

سأل كاو: «لكن، ما هو البعد الآخر؟».

«ما هو برأيك؟».

انتصبت الشعيرات في عنق كاو. «لا أظنّ أنك جادّ في ما تقوله»

«يمكنك قول هذا إذا شئت».

«ولكن، هذا غير منطقي».

سأل كوايكر: «ألا تصدقني؟ صديقك الأبيض هناك يعرف أن ما أقوله صحيح».

حدّق ميلكي فيهما.

قال كوايكر: «أرى أنه لا يتكلم كثيراً. حسناً، ريشه الأبيض يتولى الكلام عنه. إنه أبيض هكذا لأنه واحد من الغربان القليلة التي زارت ذلك المكان وعادت».

نظر كاو إلى ميلكي بجدية كما لو أنه يسأله: هل هذا صحيح؟

قال بحذر: «لنفترض أني أصدقك. كيف يبدو ذلك المكان؟».

قال كوايكر وهو يشير إلى ميلكي: «من الأفضل أن تسأله».

طار ميلكي وهبط على الطاولة بينهما، ونقر على الخشب بمخالبه.

قال كوايكر: «انظر إلى عينيه. انظر جيداً».

أحنى ميلكي رأسه، وأحسّ كاو بالغرابة فيما كوايكر يراقبه؛ وكذلك فعلت الحيوانات. لكنه في الوقت نفسه حدّق في العين اليسرى الشاحبة للغراب، وقال بهدوء: «ماذا تريد أن تريني، ميلكي؟».

في البداية، لم يرَ أي شيء. بعد ذلك، وفي عمق العين الشاحبة، بدأت الأشكال تدور في دوّامة. حدّق بتركيز أكبر، واختفت بقية الغرفة، فيما بدت العين وكأنها تبتلعه. أحسّ كاو أنه يطفو، ثم يسقط

يسقط في أعماق سماء ضبابية. رأى أشكالاً عبر الضباب؛ أشجاراً وأغصاناً وأرضاً مغطاة بطبقات من الأوراق السوداء.

قال صوت كوايكر من مكان بعيد: «هل رأيته؟».

أومأ كاو برأسه، عاجزاً عن التوقف عن التحديق في ميلكي. شاهد عبر الضباب وجوهاً بين الأشجار، وأشكالاً تتحرك بين الجذوع. استدار اثنان صوبه واقترب أكثر منهما. مدّدا أذرعهما نحوه، وتمتما باسمه بهدوء. «جاك؟».

إنها أمه. لمح وجهها عبر الضباب، ورأى عينيها الكبيرتين والداكنتين، وابتسامتها اللطيفة. ثم لمح والده أيضاً، بقسماته الجدية والعلامة المميزة في ذقنه. لم يكن جسداهما واضحين، لكن وجهيهما ناداياه، وقالا معاً: «جاك، تعال إلينا».

وفيما كان على وشك معانقتهما، ظهر وجه آخر خلفهما. خفق قلب كاو مذعوراً؛ إذ لمح الرجل الدوّام الذي امتدّت يداه العنكبوتيتان إلى أكتاف والدَي كاو لجرّهما بعيداً. كانت عيناه سوداوين ولامعتين، وثبّت نظره على كاو.

تراجع كاو إلى الخلف وهو يشهق، وكاد أن يسقط عن الكرسي. ثم عاد إلى المطبخ مجدداً، وكان ميلكي يراقبه، فيما رأسه لا يزال محنياً.

قال كاو: «الرجل الدوّام، لقد رأيته!».

قال كوايكر بجدية: «إنه ينتظرك».

«أنا! لماذا؟».

قال كوايكر: «لماذا برأيك؟ وحده خارق الغربان يستطيع السيطرة على منقار الغراب».

تابع كاو وكأنه فهم كل شيء: «وإعادته. إذا قطعت الحجاب

الفاصل، فبإمكانه العودة. لهذا السبب، يحتاج أتباعه إلى خارق الغربان».

أومأ فيليكس كوايكر برأسه، وارتشف جرعة أخيرة من الشاي، ثم أعاد الكوب إلى الطاولة للمرة الأخيرة. «خطؤهم مع الفتاة منحك القليل من الوقت، لكنهم سيعودون إليك بعد فترة وجيزة».

قال كاو وهو يقف: «قد يكون ذلك صحيحاً، لكني لا أنوي الاختباء مثلك. شكراً على الشاي، لكن عليّ الذهاب الآن. عليّ العثور على ليديا».

مدّ كوايكر يده لملاطفة قطة سمراء كانت تدور حول كاحليه وقال: «مكاني هنا. ساعدتك بقدر ما أستطيع».

إلا أن طرقاً خفيفاً على الباب جعلهما ينظران إلى الأعلى. كان كرامب يقف على عتبة المطبخ، فيما بيب واقف قربه.

قال كوايكر: «أرى المزيد من المتطفلين».

قال كرامب: «كان الباب الأمامي مفتوحاً. يبدو أنك استقبلت بعض الزوار غير المرغوب فيهم. رغم اعتقادي أن جميع الزوار غير مرغوب فيهم هنا». نظر إلى كاو والغربان وازدادت ملامح وجهه قساوة. «أين ليديا؟».

قال كاو بحزن: «لقد أخذوها. إنهم يعتقدون أنها خارقة الغربان».

لم يكشف وجه كرامب عن الكثير من العاطفة؛ باستثناء انتفاخ بسيط في منخريه، لكن بيب دفعه جانباً وأشار بغضب إلى كاو.

قال: «كان يجدر بكما البقاء معنا أيها الغبي. قلنا لكما إنكما غير مستعدين!».

أجاب كاو خجلاً من الكلمات اللاذعة للصبي الصغير: «وكنت

محقاً. لكني سأعوّض عن ذلك».

قال بيب: «وكيف ستفعل هذا؟».

قال كاو لكرامب: «عليك تعليمي كل ما بوسعك وبسرعة. أرجوك، عليك مساعدتي. لا بد أن يساعدني شخص ما». نظر كاو إلى كوايكر، لكن خارق القططة لم يحرّك نظره قط، فكرّر كاو: «أرجوك كرامب. حياة ليديا ترتبط بك».

بدا كرامب غارقاً في أفكاره، فيما ثبّت عينيه على الأرض. وحبس كاو أنفاسه. أخيراً، نظر إليه خارق الحمام مجدداً وقال: «جيد جداً يا خارق الغربان. لكني أحذرك، سيكون ذلك مؤلماً».

الفصل الرابع عشر

في الساعة السابقة للفجر، عادت بلاكستون إلى الحياة مثل الكائن الذي ينفض عن نفسه شبح النوم. تحركت الباصات في الشوارع، ناقلة الركاب من أعمالهم الليلية أو إلى أعمالهم الباكرة. تناثرت النفايات في الممرات، واختبأ المشردون في البيوت الكرتونية البالية، تحت الجسور وفي الممرات؛ للاستفادة من آخر ساعات النوم غير المضطرب، فيما رفع أصحاب المحلات أبواب متاجرهم بصخب عنيف.

شعر كاو بالألم من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، فيما نزلوا هيريك هيل ودخلوا المنطقة المالية التي لم تعد مدينة الأشباح المصنوعة من الفولاذ والزجاج مثلما كانت الليلة الماضية، وإنما باتت تضج بالرجال والنساء في بذلاتهم الرسمية، الذين يتحركون مثل الحشرات لدخول المباني العملاقة والوصول إلى مكاتبهم. بدوا جميعاً مشغولين جداً، حتى إنهم لم ينتبهوا إلى الأشخاص الثلاثة الغرباء الذين يمشون وسطهم - الرجل الحقير والولدين - أو إلى المجموعة الغريبة من الطيور المحلقة فوق رؤوسهم.

بدت عظام كاو منهكة ومطقطقة، فيما الأوتار بين عضلاته تأوهت ألماً مع كل خطوة، وملأت الخدوش كل جزء من بشرته المكشوفة. إلا أنه لا يستطيع التذمر؛ فقد طلب بنفسه من كرامب

تعليمه، وكانت الدروس مؤلمة، تماماً مثلما أنذره. لقد تمرّنا في الحديقة الخلفية الكبيرة لفيليكس كوايكر. وافق خارق القطة على الأقل على المساعدة في هذا الشكل البسيط. وطوال ساعات عدة، كانت المواجهة بين كاو وكرامب، والغربان والحمامات. أنجز الخارقان وطيورهما المعركة تحت ضوء النجوم.

تعلم بعض الأمور بسرعة - يستطيع الآن استدعاء مئات الغربان بمجرد فكرة واحدة - لكن كرامب متفوق عليه دوماً. الأمر أشبه برقصة لا يعرف كاو خطواتها، وهو منهمك جداً في الاستماع إلى الإيقاع حيث تتعثر قدماه ببعضهما بعضاً. لقد كان خارق الحمام عديم الشفقة في اعتداءاته، مبعداً الغربان جانباً، ومرسلاً طيوره للانقضاض على كاو بمخالبها ومناقيرها. في مرحلة معينة، رفعت طيور الحمام كاو عن الأرض ودفعته في أجمة. وها هو الآن يملك رضة بحجم راحة يد تحت ضلوعه لتذكيره بذلك.

راقب كوايكر وبيب المعارك من الخطوط الجانبية بمزيج من الاستمتاع الظريف وتكشيرات التعاطف بين الحين والآخر. ومشهد الفئران والقطة الجالسة قرب بعضها بعضاً كان غريباً فعلاً. لكن الخارقيْن نجحا في إبقاء حيواناتهما تحت السيطرة. عرف كاو ما يفكر فيه كوايكر؛ وهو أنه عديم المنفعة، ومجرد ظل باهت لأمه وقدراتها.

تقبّل خارق القطة ببطء، لا بل ببطء شديد، فكرة اجتياحهم خصوصيته، وراح في النهاية يخبرهم قصصاً عن بلاك كورفوس، أول خارق غربان. يبدو أنه كان قوياً جداً لدرجة أنه استطاع السيطرة على مجموعات عدة من الغربان دفعة واحدة، وحتى - حسب بعض المصادر القديمة - التحول إلى غراب هو نفسه. قال كرامب إن هذا هراء، وتناقش مع كوايكر عن الخرافات والحقائق التاريخية لعشر

دقائق كاملة. على الأقل منح ذلك كاو استراحة من القتال.

قال خارق الحمام فيما وصلا إلى طريق مهجور ممتد بين أرصفة قديمة قرب النهر: «ارفع ذقنك إلى الأعلى».

تمتم كاو: «من المؤلم إبقاء ذقني عالياً. لقد أوقعتني على رأسي، ألا تذكر؟».

قهقه بيب. «كان هذا مؤلماً فعلاً».

قال كرامب: «لا شك في أنك تحسنت. فعندما أنهينا لم تكن تبكي بصوت عالٍ مثلما فعلت في البداية». أشار إلى جسر حجري ممتد فوق الشارع. «نحن سنذهب إلى هناك».

سأل كاو: «ماذا يوجد هناك؟».

تشارك كرامب وبيب نظرة معبّرة. «سترى قريباً».

استدعى حمامتين إلى ذراعه. «انتبها إلى أطراف الشارع. في حال ظهور الشرطة، أنذرانا».

هدلت الحمامتان للإجابة على طلبه، وطارتا في اتجاهات مختلفة.

قال كرامب: «الحقا بي».

تسلقوا بعض الدرجات في محطة مهجورة للسيارات الكهربائية، نصف مطوّقة بمظلة معدنية ثابتة تغطي السكك. احتشدت مقطورات قديمة على خط جانبي، صدئة، مع نوافذ محطمة. جثمت غربان كاو الثلاثة على أعلى كشك لبيع التذاكر. ورغم أن الشمس المشرقة كانت غير مرئية بين المباني، إلاّ أن نورها الصباحي ملأ الهواء بضوء دقيق وشبه متلألئ.

قال سكريتش: لا بأس في بعض الاستراحة. أقسم إن ريشي يؤلمني.

قال غلام: وأنا أيضاً. تلك الحمامات أقوى مما تبدو عليه.

قال كرامب: «جيد. فلنرَ ما تعلمته».

قال كاو: «مجدداً؟».

توجه كرامب إلى الطرف البعيد، وقال بجدية: «ركز يا خارق الغربان».

جلس بيب بعيداً عنهما على حافة السكك الحديدية المطلة على الشارع، مع فأرة على كل كتف وقال: «حاول القتال على الأقل. لقد سئمت من رؤيتك تتأذى».

حدّق فيه كاو بغضب، وغمزه خارق الفئران.

قال كاو لنفسه: سأريك. أغمض عينيه واستدعى الغربان. وخلال ثوان قليلة، امتلأ الهواء بالغربان. ملأت ذراعيه والأرض حوله. وبإشارة من يده، فصلها إلى قسمين - واحد للهجوم، والآخر للبقاء قربه والدفاع عنه - تماماً مثلما علّمه كرامب.

قال كرامب: «جيد!». بعدها، ومن دون إنذار، فتح يداً فنزلت حماماته على شكل موجة.

دفع كاو أول مجموعة من غربانه للقائها. اصطدمت المجموعتان في الهواء ضمن كتلة مشوّشة من الريش الرمادي والأسود، وهي تصرخ وتصيح بجنون. وبعدما أصبح محجوباً عن الأنظار، ركض كاو إلى الجانب، واختبأ خلف كشك مائل، وأرسل بقية غربانه في دوّامة هائلة على أمل مهاجمة كرامب من الجانب. غير أن كرامب كان مستعداً. فقد ارتفع حائط من حماماته عن الأرض، مع مخالب ظاهرة. تدحرج الخارق الأكبر سناً خلف ستارة الحمام، ووقف في الجهة الأخرى وقال: «ليس سيئاً كاو. كاو؟».

ابتسم كاو ابتسامة عريضة راضياً عن نفسه، فيما حدق خارج

مخبئه. لم يره كرامب.

إلا أن هديلاً ناعماً جعله ينظر إلى الأعلى. ثمة حمامة جاثمة على أعلى الكشك، تحدق فيه.

قال كرامب: «آه، ها أنت هناك. شكراً بوبين».

بسرعة، استدعى كاو المزيد من الغربان؛ انفصل عدد قليل منها عن المجموعة المتعاركة مع الحمام. إلا أنه رأى في الوقت نفسه جيشاً من طيور الحمام الجديدة التي تهبط من سقف مجاور.

هبطت صوب الأسفل، مباشرة نحوه.

يظنّ أنه نال مني، لكنه مخطئ.

رفع كاو يده اليمنى، فارتفعت الغربان الاحتياطية التي كانت مختبئة تحت الجسر على شكل سحابة سوداء، ووجّهها لاعتراض موجة الحمام. في الوقت نفسه، أشار إلى سكريتش وغلام وميلكي لتأتي من خلف كرامب، ورآها تحطّ على ظهره، وتخفق بأجنحتها أمام وجهه وتفقده توازنه. نعم! ركل يده في الهواء.

صرخ كرامب مصدوماً، فيما ارتطمت ركبتاه بالأرضية، وطارت مجموعات الحمام بشكل فوضوي. حلقت دزينة منها مباشرة فوق رأس كاو، وكانت على علو منخفض. لكنّ كاو تجنّبها بمهارة، ثم لاحظ الكارثة. كانت طيور الحمام متوجهة مباشرة صوب بيب. استدار الصبي الصغير وصرخ عالياً، فيما دفعته طيور الحمام بقوة وجعلته يدور حول نفسه ويفقد توازنه. أحسّ كاو بنوبة ذعر عندما رأى إحدى ساقي بيب تنزلق خارج السكة. تحركت ذراعا بيب بعنف في محاولة لاستعادة توازنه، ثم سقط عن الحافة وأطلق صرخة عالية.

صرخ كرامب: «بيب!».

نادى كاو: «ساعديه». ومدّد ذراعه لاستدعاء أي غراب يسمعه.

وصلت الغربان إلى السكة الحديدية وكأنها موجة سوداء حالكة، فحبس أنفاسه منتظراً النتيجة.

مرّت ثانية، ومن ثم أخرى.

وفي الثانية الثالثة، ارتفعت الغربان فيما بيب يتلوّى بين مخالبها. وضعته بعناية على الأرضية. كان وجه الصبي أبيض اللون عندما وقف لتسوية ملابسه.

أسرع كرامب صوب خارق الفئران، فيما طارت الحمامات بعيداً في كل الاتجاهات. أمسك ببيب وشدّه إليه، ثم وجّه نظرة سريعة إلى كاو وأومأ برأسه، وعيناه مليئتان بالارتياح. قال: «أعتقد أن المبارزة قد انتهت بيننا. لقد أثبت نفسك يا خارق الغربان».

صرخ سكريتش: برافو كاو!

قال غلام: أبليت حسناً.

تورّد كاو خجلاً، فيما خفق قلبه بقوة نتيجة المعركة. أبعد بيب نفسه عن كرامب وقال وهو ينفخ وجنتيه: «ظننتُ أني سأموت حتماً. شكراً لك كاو».

ابتسم كاو وقال: «اشكر الغربان».

أجاب بيب: «لا، كنت أنت». ثم أخفض نظره، وبدا خجلاً. «آسف لأني شككتُ فيك سابقاً».

هزّ كاو كتفه، وشعر بالغرابة. لكن بعد اختفاء صخب اللحظة، استوعب جيداً جدية ما ينتظره وقال: «الآن، كيف نعثر على جاوبون والآخرين؟».

نظر كرامب إلى الأعلى ومن ثم إلى الأرضية. الحمامتان اللتان تركهما عند طرفي الشارع طارتا صوبه وهما تصدران صوت هديل ناعم.

قال: «ليس بعد. لم نجتز كل هذه المسافة للتمرن فقط».

قفزت أمامه حمامة باهتياج شديد وهدلت.

قال كرامب: «بقدر ما يستغرق الأمر، بوبين».

عندئذ، أسرعت فأرتان بنيتان على الأرضية، فيما انحنى بيب لرفعهما إلى الأعلى، ومرّت فأرة ثالثة مسرعة بين قدمي كاو. وضعها بيب كلها على كتفيه. رفعت إحدى القوارض الصغيرة رأسها صوب أذنه.

أشرقت عينا بيب وقال: «إنهم آتون».

سأل كاو: «من الآتي؟». لكن فيما تكلّم، أحس بوجود شخص خلف ظهره، فاستدار.

كانت ثمة امرأة عجوز مقوسة الظهر مع قضيب في يدها تتجه صوبهم، وتجرّ قدمها قليلاً. انتعلت جزمة مطاطية، وارتدت طبقات عدة من الملابس، وغطت رأسها بشال قطني مخطط، لكن بعض الشعيرات البيضاء تطايرت من تحته. ثمة خطب في عينيها؛ فقد تحركتا في محجريهما في اتجاهين مختلفين كما لو أنها لا تستطيع أن تحسم وجهة نظرها. استرخى كاو. قد تكون مجنونة، لكنها ليست مصدر خطر كبير على الأرجح.

لكن، عندما استدار مجدداً صوب كرامب، قفز قلبه في مكانه. ظهرت ثلاثة أشكال أخرى في الجهة الأخرى. الأول رجل شاب أسود البشرة وقوي البنية قليلاً، يرتدي بذلة رسمية داكنة، ويضع نظارة شمسية داكنة، ويحمل حقيبة. وضع جريدة تحت إبطه، وشاهد كاو صورة وجهه على الصفحة الأمامية المطوية، فتراجع إلى الخلف، وراء كرامب.

قال خارق الحمام: «لا تهرب، فأنت لا تريد أن تروّعهم».

قرب الرجل المرتدي بذلة رسمية، ظهرت امرأة شابة في بداية

العقد الثاني من عمرها تقريباً. وكانت جالسة على كرسي متحرك. انسدلت تموجات بنية داكنة على جانبي وجه دقيق الملامح ولافت مع عينين مرتفعتين في الزاويتين. دفعها رجل قوي البنية ومربع الفكين، كان يرتدي بذلة من قطعة واحدة، كما لو أنه قد عاد للتو من ورشة بناء. أصبح شعره البني رمادياً على الصدغين، ولاحظ كاو أن يديه عملاقتان وقويتان. اقترب الزوار الأربعة الجدد من كاو وبيب وكرامب بصمت.

قال خارق الحمام: «أهذا كل شيء؟ أملت في المزيد».

هزّ بيب كتفه وقال: «أرسلت الكثير من الفئران. قال كوايكر إن كيله قد طفح بعدما حصل في منزله. أعتقد أنه خائف، وربما الآخرون خائفون أيضاً».

رفعت الفتاة المعوقة يدها لإلقاء التحية، ومن الياقة المفتوحة لمعطفها خرج سنجابان متردّدان بعض الشيء؛ أحدهما أحمر، والآخر رمادي. استدار واحد حول ظهرها وجلس على كتفها، فيما استقر الآخر على ذراع كرسيها، وحدّقا في كاو.

شهق كاو: «إنها خارقة».

تمتم كرامب: «كلهم خارقون».

استدار كاو صوب السيدة العجوز فيما زحفت فوق معطفها ثلاث «أم أربع وأربعين» عملاقة، طول كل منها متر كامل، وهي عريضة بقدر إصبع كاو. اختفت اثنتان منها تحت كمّيها، فيما دخلت الثالثة جزمتها المطاطية.

قال سكريتش وهو يطقطق منقاره: مم، لذيذة.

لم يستطع كاو أن يرى أيّ حيوانات مع الرجلين الآخرين. ثم

تقدم الرجل المرتدي بذلة رسمية، ووضع حقيبته أرضاً وفتحها، فخرجت منها مجموعة من النحل وارتفعت على شكل دوّامة في الهواء. أحسّ كاو بابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه.

قال كرامب: «شكراً لقدومكم».

قال الرجل الذي دفع الكرسي المتحرك بصوت أجشّ: «لماذا دعوتنا إلى هنا؟». بدا مستاء، أو ربما غاضباً. تأملت عينا كاو جسمه، فيما تساءل عن نوع الكائنات المختبئة بين ملابسه.

قال كرامب: «أنت تعرف السبب راكلن. لا بد أنك أحسست بالأمر».

قال الرجل وهو يبرم رأسه قليلاً: «كلانا أحسسنا». وبرم رأسه قليلاً. لحق كاو باتجاه نظراته، وخفق قلبه فجأة بقوة كبيرة. على الأرضية، مختبئاً بين الظلال، ثمة كائن رمادي كبير وضخم. لم يرَ كاو سابقاً ذئباً في المدينة. تأملهم جميعاً بعينيه الصفراوين، ثم اختفى عن الأنظار.

قالت الفتاة الجالسة على الكرسي المتحرك: «الرجل الدوّام». وهي تعيد لفت انتباه الآخرين إلى الموضوع الرئيس.

قال كرامب: «هذا صحيح مادلين. بالمناسبة، كيف أحوالك؟».

أحنى سنجابا الفتاة رأسيهما، وحرّكا منخريهما. لم يكن كاو واثقاً تماماً، لكنه أحسّ أنه رأى شيئاً في النظرة التي تشاركها كرامب معها؛ إنّه ولع ربّما. لا بد أنهما بالعمر نفسه، حسب اعتقاده.

قالت: «كنت بحال جيدة. حتى هذا الصباح».

لوّح خارق النحل بيده، فبرمت مجموعة النحل حوله على شكل إعصار صغير. «لقد رأينا جميعاً إشاراته كرامب. لكن الرجل الدوّام مات ورحل».

أومأ كرامب برأسه وقال: «رغم ذلك، لا يزال أتباعه طليقين في المدينة. والآن... إنهم يملكون منقار الغراب».

انتصب الخارقون كلهم، ونظروا إلى بعضهم بعضاً بعصبية. كانت خارقة الأم أربعة وأربعين أول من بادر إلى الكلام. كان صوت المرأة العجوز أجش وضعيفاً، لكن عينيها متقدتان بالحماسة. قالت: «منقار الغراب مجرد أداة عديمة الفائدة. لا يوجد خارق غربان يمكنه استخدامه الآن ببراعة بعد أن ماتت المسكينة ليزي».

قال كاو لنفسه، وقلبه يخفق بقوة: ليزي. أمي.

وضع كرامب يداً على كتف كاو، وقال: «ثمة خارق غربان على قيد الحياة إميلي. إنه ابنها».

تفاجأت خارقة الأم أربعة وأربعين وقالت: «هذا الصبي... خارق غربان؟!».

قالت الفتاة الجالسة على الكرسي المتحرك: «مستحيل!».

ضحك خارق النحل. «كرامب، لقد مات ولد كارميكايل مع والديه. هذا الصبي يخدعك ويبدد وقتك. عليّ الذهاب إلى المحكمة. أراكم لاحقاً».

أرسل مجموعة النحل إلى الحقيبة مجدداً وأغلقها بقوة، ثم استدار للذهاب؛ تماماً مثلما فعل الآخرون. قال بيب: «انتظروا!».

هزّ خارق النحل رأسه وقال: «ابق بعيداً عن المشاكل يا خارق الفئران».

نظر بيب إلى كاو وقال له: «أرهم!».

مدّ كاو يديه بسرعة إلى صدره، وخلال ثوانٍ قليلة، احتشدت حولهم ثلاث مجموعات من الغربان، ثم التفت على شكل دوامات سوداء وطوّقت كل واحد من الخارقين. احتاج كاو إلى كل تركيزه

لإبقاء الغربان في تلك الوضعية، لكنه نجح. تجمد الخارقون في أماكنهم، وحدّق خارق الذئاب في كاو، وهو يقطب جبينه، ثم قال: «جاك كارميكايل؟».

قال كاو: «يمكنك مناداتي كاو». وصرف الغربان بتلويح من يده، فطارت الغربان بعيداً عن المحطة.

نظرت الفتاة الجالسة على الكرسي المتحرك - مادلين - إلى كاو ببرودة وقالت: «الأفضل لو أنك متّ». آلمته كلماتها في الصميم. «أنت هدف لهم». ثم استدارت صوب كرامب. «أرسله بعيداً عن بلاكستون إلى الأبد. طالما بقي هذا الصبي بأمان، فلن يملك الرجل الدوّام أي أمل في العودة».

ملأ الغضب صدر كاو. كيف يجرأون على التكلم عنه وكأنه ليس موجوداً؟! قال: «لن أذهب إلى أي مكان».

أمسكت مادلين بعجلتي الكرسي ودفعت نفسها إلى الأمام، ثم توقفت مباشرة أمام قدمي كاو، وصرخت في وجهه:

«هل تظن أني كنت هكذا دوماً؟ لا. الرجل الدوّام هو من وضعني في هذا الشيء».

حاول كاو النظر إلى عينيها مباشرة وقال: «أنا آسف. لم أكن أعرف».

قالت، وقد انخفض صوتها قليلاً: «أنت لا تعرف شيئاً».

نظر كاو إلى كرامب وقال لنفسه: نحن نخسرهم. «اسمعي، صحيح أني لم أحارب خلال الصيف المشؤوم، لكن والدَيّ فعلا. علينا القيام بشيء ما».

قال راكلن، خارق الذئاب: «هذا عناد كارميكايل القديم قد انتقل إليك. لم يوافق والداك على الهروب أيضاً، وانظر إلى ما حصل لهما».

كادت كلماته أن تثبط عزيمة كاو، ولكنه قال: «قبل بضعة أيام، لم أكن أعرف حتى أنه يوجد خارقون آخرون. لكني عرفت بعدها بأمر الصيف المشؤوم. لقد فزنا آنذاك، أليس كذلك؟».

هزّ خارق الذئاب رأسه وقال: «كانوا مجرد خاسرين في تلك الحرب».

قال كاو: «أرجوكم، علينا أن نواجه. أتباع الرجل الدوّام احتجزوا صديقتي. إنهم يظنون أنها خارقة الغربان، لكنها ليست كذلك. إنها مجرد فتاة».

قالت خارقة السناجب: «لا يهمنا ذلك». وبرمت كرسيها بعيداً وتوجهت صوب الطرف الآخر.

قالت المرأة العجوز: «مادلين محقة. كرامب، لقد هزمنا الرجل الدوّام، لكن عليك أن تعرف أننا لا نستطيع فعل ذلك مجدداً. كنا أكثر عدداً في ذلك الحين، كما كنا أصغر سناً وأكثر قوة».

قال كرامب: «أنا أكثر قوة الآن. كنت أتدرّب».

وجهت إليه خارقة الأم أربعة وأربعين نظرة متألمة، ومدّت له يدها المجعدة وقالت: «كرامب، لطالما كنت ولداً شجاعاً. لكن أرجوك، لا تطلب مني هذا. تعرف جيداً ما عانيته». وبدأت تحبس دموعها. «لقد خسرت... خسرت... أولاداً». اهتزت كتفاها فيما عانقها كرامب، ووضع ذقنه على رأسها. بعد لحظات قليلة، استجمعت قواها وجففت عينيها بمنديل. «تنتهي سلالتي معي كرامب». وانتقل نظرها إلى كاو. «إذا كنت حساساً يا خارق الغربان، فستهرب بعيداً كي لا تلاقي المصير نفسه». ومررت يدها برفق على وجنة كرامب قائلة: «انتبه لنفسك ساموبل».

أومأ كرامب برأسه وراقبها وهي تذهب.

لم يتحرك خارق النحل قط عندما وصلت إلى جانبه.

قال كرامب: «وأنت آلي؟ هل ستساعدنا؟».

زمّ خارق النحل شفتيه، ثم أرجع نظارته الشمسية على أنفه، ورفع حقيبته مجدداً وقال: «كرامب، لقد واجهنا بعض الأوقات العصيبة آنذاك، لكن الأمور كانت مختلفة. كانت المخاطر كبيرة. ضحّت نحلاتي بحياتها في تلك الحرب».

قال كرامب: «والمخاطر كبيرة الآن».

قال آلي: «ليس بالطريقة نفسها يا صديقي. منقار الغراب مجرد خرافة؛ ذلك الشيء الذي يسعى وراءه المجنون كوايكر. ومن يقول إن السيف يعمل أصلاً؟».

بدأ يبتعد بدوره.

سأل بيب: «ماذا لو كنت مخطئاً؟».

قال خارق النحل من دون النظر إلى الخلف: «سوف أجازف».

صرخ بيب: «جبناء!». لكن خارقي الحيوانات ابتعدوا بهدوء؛ تماماً مثلما وصلوا.

قال كرامب: «عذراً كاو. يبدو أننا بقينا نحن الثلاثة فقط».

تنهد كاو، وأحسّ فجأة أن كل ألم يشعر به بات أكثر عمقاً وإيلاماً ممّا كان عليه سابقاً.

قال صوت امرأة: «نحن الأربعة».

في تلك اللحظة، أشرق شعاع الشمس فوق حافة الأرضية، فعكس نوراً متلألئاً في عيني كاو، فيما خرجت قامة طويلة من إحدى مقطورات السكك الحديدية.

قال كاو لنفسه وهو يطرف بعينيه لرؤية وجهها: لا بدّ أنها كانت تراقبنا طوال الوقت.

جفل كرامب، وتراجع خطوة إلى الخلف وطرف بعينيه: «فيلما؟! هل هذه أنت؟».

فيما تقدمت المرأة إلى الأمام نحو ظل المظلة الشمسية، شهق كاو. انسدل شعرها بطلاقة وعشوائية حول وجهها، وبدت عيناها أكثر إشراقاً من قبل. كان معطفها الطويل ملتصقاً بجسمها باللون البرتقالي الداكن، ومرقشاً بالأبيض. لكن، لا يمكن عدم تعرّف وجهها.

قالت السيدة ستريكهام: «مرحباً كاو».

الفصل الخامس عشر

بدأ كاو القول: «لكن... كيف؟».

سأل كرامب مقطباً جبينه: «هل تعرفان بعضكما؟».

قالت السيدة ستريكهام: «لقد كبرت كرامب. أتمنى لو أننا التقينا في ظروف أفضل».

لهنيهة، بدا كرامب عاجزاً عن الكلام. النظرة في عينيه كانت مزيجاً من الدهشة وعدم التصديق؛ تماماً مثل الطفل المذهول.

كانت تنزلق صوبهم. «سمعت أنك دعوت إلى لقاء. ونظراً لأزمتي الحالية، رأيتُ أنه من الأفضل المشاركة».

وجَّه كاو نظرة مذنبة إلى كرامب الذي كان يهزّ رأسه. قال خارق الحمام: «أنت آخر شخص توقعت رؤيته. ظننتُ أنك غادرت المدينة بصورة نهائية».

بالرغم من تعبيرها الصارم، ارتجفت شفة السيدة ستريكهام. «لقد أخذوا ابنتي، أليس كذلك؟».

تحوَّل وجه كرامب المقطب إلى وجه مصدوم. «ليديا هي...».

أجابت السيدة ستريكهام: «نعم. عندما لاحظت أنها ليست معكم خشيت الأسوأ. ويبدو أني كنت محقة. إنها لا تعرف أي شيء عن... ماضيّ. لا بدّ أنها خائفة جداً. أنا...». بدأ وجه السيدة

ستريكهام ينكمش ألماً، لكنها سرعان ما سيطرت على نفسها وقالت بصوت أجش منخفض: «أنوي إعادتها. مهما كلّف الأمر».

قال كاو: «أنت خارقة!».

وجهت السيدة ستريكهام نظرة ثاقبة إليه، وأحسّ أنه مثل فريسة صغيرة أمام حيوان مفترس. «نعم، يا خارق الغربان».

لم يصدق كاو ذلك. ثم قال أخيراً: «إنها غلطتي. يظنون أن ليديا هي خارقة الغربان. لكنهم يريدونني أنا!».

قالت السيدة ستريكهام مع ابتسامة حزينة: «لم تحب ليديا يوماً تنفيذ ما يطلب منها».

قال بيب وهو ينفخ صدره: «سوف نجدها».

قالت السيدة ستريكهام: «أوه، خارق الفئران». ونظرت إلى الفأرة الزاحفة على كمّ بيب. «عرفتُ والدك أيها الشاب، أنت تملك عينيه». توقفت، ولاحظ كاو كم تبدو مخيفة؛ فقد وقفت بشكل منتصب أكثر من قبل، فيما التف شعرها الأحمر الطليق حولها مثل لهب النار في الهواء. «لقد مات بشجاعة».

امتلأت عينا بيب بالدموع، لكنه أخفاها بسرعة وقال: «أعرف. أخبرني كرامب».

قال كاو: «ماذا الآن؟ كيف سنجد ليديا؟».

وجهت السيدة ستريكهام نظرها الثاقب إليه. «إذا كان جاوبون معهم، فبإمكاننا تجربة الشبكة الموجودة تحت المدينة». وأشارت إلى السكك الحديدية. «خلال الصيف المشؤوم، قيل إنه اختبأ هناك مع جماعته».

قال كرامب: «لكن الشبكة ممتدة على مسافة أميال عدّة. حتى لو كان موجوداً في الأسفل، كيف سنجده؟».

قال بيب: «ربما أستطيع المساعدة».

شحب وجه الصبي فيما استدار كرامب والسيدة ستريكهام للنظر إليه. إلا أن كاو وجّه إليه ابتسامة، فاستجمع قواه قليلاً، وشرح قائلاً: «توجد فئران هناك. الكثير من الفئران!».

سأله كاو: «هل تستطيع الطلب منها؟».

أومأ بيب برأسه، وركع على الأرضية، وسطّح يديه عليها، وأغمض عينيه. وثب كاو على السكك الحديدية، ولاحظ أن الفئران نزلت صوب النفق الأسود المؤدي إلى السواد.

لا شيء.

أخيراً، أخرج كائن بني صغير رأسه من النفق، لحقه كائن آخر وآخر. وبعد قليل، خرجت موجة هائلة من الفئران، فتدفقت من طرفي النفق، ونزلت من السقف.

مرّت الفئران أمام كاحلي كاو، وصعدت إلى الأرضية، واحتشدت حول بيب على شكل سجادة بنية، وصاحت كلها متحدّثة معه. فتح الصبي عينيه بدهشة، وأشرق وجهه بابتسامة عريضة.

قال بفخر: «لم أنجح سابقاً في استدعاء هذا العدد الكبير!».

قالت السيدة ستريكهام بصرامة: «جاوبون، أين هو؟».

قال بيب: «عذراً». وأصغى مجدداً إلى الفئران، ثم جلس منتصباً وقال: «لقد رأت الفئران رجلاً كبيراً مع وشم على وجهه». لم يكن هناك انتصار في صوته، وإنما فقط رعشة خوف. «إنه يأتي ويذهب، مع كلاب دوماً بصحبته. سوف ترشدنا الفئران إلى ذلك المكان».

خفق قلب كاو بقوة لمجرد التفكير في أن الخارق الشرير قريب جداً منهم.

قال كرامب: «ماذا ننتظر إذاً؟». وقفز إلى السكك الحديدية.

انطلقوا معاً. مشى بيب في المقدمة، مع عدد هائل من الفئران أمامه، فيما استراحت بعض الفئران على كتفيه وذراعيه وفي طيات ملابسه. مشت السيدة ستريكهام مباشرة خلفه، والتف المزيد من الفئران حول قدميها. أما غربان كاو فحلّقت فوق رؤوسهم وتوقفت عند مدخل النفق. حتى إن ميلكي لم يكن واثقاً من فكرة دخول النفق.

سأل سكريتش وهو ينظر إلى النفق: هل هذه الفكرة جيدة؟ أقصد، إنه وكر العدو، أليس كذلك؟

سأل غلام: هل أنت خائف سكريتش؟

أجاب سكريتش: لا، بل أنا حذر فقط. هذا كل شيء.

قال غلام: حسناً، أنا مذعور.

نفض ميلكي ريشه بصمت.

ركّز كاو جيداً، واستدعى المزيد من الغربان. وعندما استدار، شعر بالامتنان لدى رؤيته مجموعة من الغربان محتشدة خلف ظهره. ومن مظهر الحمامات المختلطة مع الغربان، حزر كاو أن كرامب قد فكّر بالطريقة نفسها. إنهم متوجهون صوب المجهول...

طلب كاو من غربانه: «ابقي بالقرب منا».

سأل بيب: «ماذا عن القطارات؟».

أجاب كرامب: «لم يتم تشغيل الخط منذ عقد من الزمن. ولكن، توخوا الحذر على الدوام؛ فهناك بعض الكائنات الخطيرة في الأسفل التي لا ترغب في أن يعثر عليها أحد».

فيما ابتلعتهم الظلمة، أجهد كاو عينيه، محاولاً اختراق العتمة. إذا كان جاوبون فعلاً هنا، فمن يعرف ما هي الأفخاخ التي نصبها ربما؟

طقطقت السيدة ستريكهام بلسانها، فسمع كاو صوت خطوات

خفيفة، ثم رأى شكلاً مكسواً بالفرو ينزلق بين الفئران ويمشي إلى جانبها مع أذنين منتصبتين. وعندما تكيّفت عينا كاو مع العتمة، أدرك هوية ذلك الشكل. تذكر الكائن البرتقالي الذي اختبأ وراء الأجمات في منزل ستريكهام ليلة العشاء الكارثي.

قال: «أنت خارقة الثعالب».

انضم ثعلب آخر إلى الثعلب الأول، وأصدر صوت طقطقة للإجابة على السيدة ستريكهام.

قالت للثعلب مع ابتسامة ماكرة: «أنت محق. إنه بطيء قليلاً».

تورّد كاو خجلاً، وسرّ لوجود العتمة.

سألها: «لماذا لم تقولي ذلك قبلاً؟».

أبقت السيدة ستريكهام نظرها مثبتاً أمامها وأجابت: «لأني أقدّر خصوصيتي. عرفتُ من تكون لحظة رأيتك جاك. لا أريد أن تختلط ابنتي مع خارقين آخرين. أفترض أنك وجدتني فظة جداً».

أجاب كاو: «لا بأس».

قالت: «لا. لأني أخفقت». استدارت لمواجهته فيما تابعت المشي. «كنت ساذجة ربما حين اعتقدت أني أستطيع حماية ليديا من عالم الخارقين... أردتها أن تعيش طفولتها، هل تفهمني؟ مثل فتاة عادية. لقد حرمتني أمي من ذلك ما إن أصبحت كبيرة كفاية لفهم ما يحصل، وصرت ألعب مع الثعالب. عرفتُ من سن الرابعة أني سأحصل يوماً ما على تلك الموهبة».

سألها كاو: «ألا تعرف ليديا ذلك أبداً؟».

هزّت السيدة ستريكهام رأسها. «كنت حريصة جداً. بعد الصيف المشؤوم، نادراً ما تواصلت مع ثعالبي؛ رغم أننا عانينا الكثير معاً».

تمتم كرامب من أمامهم: «هذا تصريح مكبوح».

قال كاو: «أنا آسف لأن ليديا تورطت في المسألة».

أجابت فيلما ستريكهام ببساطة: «نعم، وأنا أيضاً». أسرعت في خطواتها، وأصبحت متقدمة عليهم، فيما ركضت ثعالبها للحاق بها.

قال سكريتش وهو يمشي قليلاً ويطير قليلاً قرب كاو: لا أعتقد أنها تستلطفك كثيراً.

قال كرامب وهو يتراجع إلى الخلف ليصبح قربه: «لا تقلق بشأنها. لطالما كانت... متحفظة».

قال كاو: «إنها تكرهني. ولا ألومها».

قال كرامب: «تصرفت بطريقة مماثلة معي، في البداية». وبعد صمت وجيز، أخفض صوته: «بالمناسبة، ثمة شيء يجب أن تعرفه بشأن فيلما ستريكهام. هي التي قتلت الرجل الدوّام في النهاية».

أطلق بيب صفيراً منخفضاً في العتمة.

حدّق كاو في شكل السيدة ستريكهام، فيما انعطفت حول الزاوية. لقد ثأرت إذاً لموت والدَيّ. وهذا ما يجعل الأمور أسوأ؛ إنه يدين لها.

رويداً رويداً، استطاعت عيناه رؤية المزيد من النفق الذي أمامهم؛ الحجارة القرميدية المفتتة، والسكك الرمادية الممتدة في البعيد. لا دليل على وجود أي كائن آخر، ولا تلوح أية كلاب في الأفق. بالإضافة إلى صوت خطواتهم، سمع صوت تقطر الماء، وهسهسة الفئران، وخفقان أجنحة الطيور بين الحين والآخر.

قد تكون السيدة ستريكهام محقة. لقد فرح كثيراً بالعثور على صديقة، ولذلك أصبح أنانياً. كان بوسعه الطلب من ليديا البقاء في دار العبادة أثناء توجهه إلى غورت هاوس، إلا أنه لم يفعل ذلك. تماماً مثلما كان أنانياً عندما ورّط الآنسة والاس. لم يكن يعرف حينها ما

يواجهونه، أو ماذا بإمكان أعدائه فعله.

إلا أنه يعرف الآن، ولن يجازف أكثر مع جاوبون والآخرين. لا شك في أن وجود خارقة قوية مثل والدة ليديا إلى جانبه يجعله يشعر بارتياح أكبر، حتى لو لم يكونا صديقين.

توقفت السيدة ستريكهام فجأة وتمتمت: «ما هذا؟».

ثم أحسّ كاو بذلك أيضاً؛ وخز خفيف في قدميه.

قال بيب بعصبية وهو ينظر إلى طرفي النفق: «يبدو أنه قطار. اعتقدت أن الخط لم يعد يعمل!».

قال كرامب: «إنه لا يعمل».

إلا أن الارتجاجات ازدادت كل ثانية، ثم لمع ضوءان ساطعان باللون الأبيض على الزاوية خلفهما.

صرخ كرامب: «اركضوا!».

تجاوزته غربان كاو، وحلّقت داخل النفق في الاتجاه نفسه الذي سلكته السيدة ستريكهام. ركض كاو خلفها، فيما ركض بيب إلى جانبه، وتناثرت الفئران في كل الاتجاهات.

صرخت والدة ليديا: «من هنا. توجد أرضية في الأمام».

ملأ الضوء كل النفق، وألقى بظلال طويلة، فيما ملأ هدير القطار أذني كاو. لم يجرؤ على النظر إلى الخلف، وراقب بدل ذلك السكك الحديدية وهي تطير تحت قدميه. إذا زلّت قدمه، فسينتهي أمره. ألقى بعدها نظرة سريعة إلى الأعلى، لرؤية جدران محطة القطارات والأرضية المرتفعة على مستوى صدره. ومضت الأضواء فوق رأسه. قفز خلف السيدة ستريكهام، ثم قام مع كرامب بسحب بيب إلى الأعلى إلى مستوى آمن. وصل القطار بصوت هادر على السكك خلفه.

صرخ كرامب: «اختبئوا!».

ركضت السيدة ستريكهام صوب كشك تذاكر قديم، وجلسوا القرفصاء خلفه، فيما أصدرت فرامل القطار صوتاً قوياً عند توقفه. كانت ثمة لافتة على الجدار، لكن كاو لم يستطع قراءتها.

همس بيب، وهو يلحق نظراته: «شارع مايسون».

قال كرامب: «لا أفهم. لا يفترض أن يوجد تيار كهربائي هنا».

توقف القطار فجأة، وجثمت الغربان والحمامات على سقفه، حيث لا يراها أحد. لم يستطع كاو رؤية ثعلبي السيدة ستريكهام في أي مكان.

همست: «لا بد أن أحدهم قد أعاد وصل الأسلاك الكهربائية. وأظن أني أعرف من يكون».

فتح بابا القطار مع صوت هسيس، وخرج كلبان يسيل لعابهما وآذانهما منتصبة، ووقفا على الأرضية. ثم لحق بهما جاوبون، ونظر أولاً إلى اليسار، ثم إلى اليمين.

تمتم خارق الكلاب: «انتظرا هنا يا صغيريّ. لن أحتاج إليكما حيث أنا ذاهب».

شمّ الكلبان الهواء وزمجرا، فرفع جاوبون رأسه الضخم وزمّ عينيه قائلاً: «لدينا زائر هنا، أليس كذلك؟ أرني نفسك!».

شعر كاو بالألم في عنقه فيما جلس القرفصاء. أغمضت السيدة ستريكهام عينيها كما لو أنها تركز بشدة. وعندما فتحتهما، شاهد عزمها. بدأت تنتصب مستعدة للمعركة...

ومن دون تفكير، اندفع كاو إلى الأمام، ورمى نفسه في العلن أمامها.

همست: «عد إلى هنا كاو!».

لكن الوقت كان قد فات. استدار الكلبان بلمح البصر، وكشّرا عن أنيابهما.

قال جاوبون مبتسماً: «هل أنت بمفردك أيها القزم؟».

سأله كاو: «أين ليديا؟ ماذا فعلتم بها؟».

أجاب جاوبون: «خارقة الغربان بأمان حيث هي. المؤسف أني لا أستطيع قول الشيء نفسه عنك. حان موعد العشاء أيها الصغيران».

ركض الكلبان على الأرضية بسرعة مذهلة. قال كاو في قرارة نفسه: تعالي إليّ أيتها الغربان. ومدّ ذراعاً صوب الكلبين، فهبطت دزينتان من الغربان عن سقف القطار، مع غلام وسكريتش وميلكي في الطليعة.

صرخ جاوبون فيما توقف الكلبان فجأة. انحرفت الغربان وهبطت على ظهرَي الكلبين بمخالبها المسننة. جنّ جنون الكلبين، وراحا يتلوّيان ويقفزان ويتمايلان للتخلص من الطيور التي تهاجمهما. وقعت بعض الغربان، فيما صمد بعضها الآخر. أطلق أحد الغربان صيحة الموت بعدما تم قذفه من فم كلب على جدار.

ثم جاءت الثعالب، كانت تسعة أو عشرة تهدر وتزمجر. خرجت من مصاعد مهجورة عند حافة الأرضية، وثبتت أنيابها في قوائم الكلبين، مما جعلهما يصرخان ألماً.

تراجع جاوبون إلى الخلف، وبدت الدهشة والألم على وجهه الموشوم والفظ.

عندها، طارت الحمامات صوبه ودفعته أكثر إلى الخلف، ونجحت في رفعه بضعة أمتار عن الأرض، ثم رمته على الأرضية. سقط جاوبون على ركبتيه، وبدأ يزحف صوب بابي القطار

المفتوحين. هرب كلباه في النفق، ولحقت بهما الثعالب والغربان.

صرخت السيدة ستريكهام: «أوقفوه!».

نجح خارق الكلاب تقريباً في الوصول إلى القطار، لكنه بقي مغطى بخفقان طيور الحمام ونقرها وطعنها. مدد ذراعاً ملطخة بالدماء، فيما كان الباب ينغلق بصوت مدوٍّ.

تأوه جاوبون ألماً، وتدحرج على الأرضية، وارتطم بالجدار ومن ثم بعلبة معدنية. وقع الغطاء الصدئ عن العلبة، كاشفاً عن كتلة من الأسلاك والألواح الكهربائية في الداخل. لم تفلته طيور الحمام. ولاحظ كاو أن وجه كرامب كان مشحوناً بالغضب. أدرك أنه يرى جانباً جديداً من شخصية كرامب. إنه المحارب القديم من الصيف المشؤوم، الوحشي والحاقد.

خرجت مجموعة صغيرة من الفئران من تحت القطار وأسرعت على الأرضية في اتجاه معلمها.

قال بيب: «لقد فعلتها! لقد أغلقت الباب!». وفيما تسلقت الفئران ساقيه، استدار صوب الآخرين. «لقد قضمت الأسلاك الكهربائية».

تقدم كرامب صوب جاوبون رافعاً ذراعه، فخفقت حماماته أجنحتها وابتعدت عن جسم السجين.

جفل كاو حين رأى ما فعلته طيور الحمام. كان وجه جاوبون مغطى بالخدوش والجروح، وسال الدم على الأرضية. كما كانت يداه مخدوشتين ومغطّاتين بالدم أيضاً.

بدت السيدة ستريكهام غير متأثرة بالمشهد المؤلم. وفيما اقتربت، دفع جاوبون نفسه إلى الخلف صوب الجدار وقد اتسعت عيناه. أدرك كاو أنه خائف منها. قال خارق الكلاب: «أنتِ! أنت التي قتلت سيدي!».

صرخت السيدة ستريكهام: «أين ابنتي؟ ماذا فعلتم بها؟».

قطّب جاوبون جبينه وقال: «ماذا؟».

قالت السيدة ستريكهام: «تعرف تماماً عما أتحدث!». وفيما تكلمت، اقتربت ثلاثة ثعالب مزمجرة.

ازداد عبوس جاوبون. «لا... أفهم. أنت خارقة الثعالب. ليست ابنتك».

قال كاو: «لقد أمسكتم بالشخص الخطأ. أنا خارق الغربان». جاء غلام وسكريتش للاستراحة على كتفيه. «أنا الشخص الذي تريدونه».

لم يقل جاوبون أي شيء، وإنما اشتعلت عيناه بغضب يائس.

تسلق أحد الثعالب صدر خارق الكلاب، وجعل خطمه بالقرب من وجهه.

قالت السيدة ستريكهام: «الفرصة الأخيرة. أين هي؟».

أحسّ كاو بالذعر. هل هي جادة؟ مهما تكن الأشياء المريعة التي فعلها ذلك الرجل، لا يستطيع كاو تحمل فكرة أن تؤذيه هذه الثعالب أكثر فأكثر.

لكن، قبل أن يتمكن من قول أي شيء، تدحرج جاوبون على جانبه قاذفاً الثعلب بعيداً. استدار راكضاً لكنه تعثر ووقع. مدّ يده لتثبيت نفسه، وأمسك بالشيء الوحيد المتوافر؛ كتلة الأسلاك المكشوفة داخل العلبة المعدنية المفتوحة.

صدر صوت قرقعة عالٍ، وفتح فم جاوبون في صراخ صامت. ارتجّ جسمه ثم تجمد، وانتفضت الأوردة في عنقه وكأنها ديدان تحت بشرته، ثم تصاعد الدخان من محجري عينيه، وانهار على الأرض بالقرب من العلبة المعدنية، وارتطم رأسه بالأرضية.

الفصل السادس عشر

قالت السيدة ستريكهام: «تخلص جيد».

وقف كرامب صامتاً ومحدقاً في جثة خارق الكلاب. كان بيب يرتجف، فوضع كاو يداً على كتفيه، فيما كان هناك سؤال يشغل باله.

قال: «كيف سنجد ليديا الآن؟».

قالت السيدة ستريكهام: «فتش في جيوبه».

جلس كاو القرفصاء قرب جثة جاوبون المتفحمة. إن فكرة لمس الجثة جعلته يرتعد، لكنه لا يريد أن يبدو ضعيفاً أمام الآخرين. تلمّس سترة الخارق وقال: «لا شيء».

قالت والدة ليديا: «تحقق من الداخل».

إلا أن جيوب جاوبون لم تكن تحتوي على أي شيء باستثناء سكين ذي مقبض أسود ونصل على شكل ناب مسنن. رفعته السيدة ستريكهام. «كان هذا سلاح جاوبون المفضل خلال الصيف المشؤوم. لا بدّ أنه قد عاد إلى هنا لاستعادته. هذا مضحك؛ لم أظنه يوماً إنساناً عاطفياً». رمت السكين على الأرض، فأحدث صوت قعقعة.

قال سكريتش وهو ينفض منقاره: انتظر! انظر إلى حذائه. أرى شيئاً يلمع!

تأمل كاو الجهة السفلية من جزمة جاوبون السوداء، ورأى شيئاً

فضياً يلمع هناك. أخرج ذلك الشيء من النعل المطاطي بواسطة أصابعه. إنه إبرة خياطة فضية.

تذكر كاو: «حملت مامبا واحدة مثلها في المكتبة». وخفق قلبه بقوة عندما فكر في الغرض الذي استخدمت فيه الإبرة. «وانظروا إلى الأغلال في سروال الجينز!».

اقترب كرامب والسيدة ستريكهام أكثر. ثمة خيوط متعددة الألوان عالقة في أسفل جينز جاوبون.

قال كرامب: «إبر وخيوط. هذا غريب».

تمتمت السيدة ستريكهام وهي تقطب جبينها مفكرة: «أقمشة».

نبح أحد ثعالبها مرتين.

قالت السيدة ستريكهام: «هذا هو بالضبط ما كنت أفكر فيه روبي. ثمة مصنع خياطة قديم في المنطقة الصناعية. إنه مهجور منذ أعوام عدة. يسمع زوجي دوماً أخباراً عن نشاط للشرطة في تلك المنطقة. إنه مكان مثالي للاختباء».

شعر كاو بالقشعريرة. يستخدم أتباع الرجل الدوّام مصنع خياطة كمقرّ رئيس لهم. إنه منطق غريب ومخيف.

سأل: «هل تظنين أن ليديا هناك؟». لم يكن بإمكانه أن يصدق كم يبدون هادئين بعد ما حصل للتو.

قالت السيدة ستريكهام: «ربما، وربما لا. لكنه الخيط الوحيد الذي نملكه، فلنذهب».

استدارت صوب المخرج.

سأل بيب بهدوء: «ماذا عنه؟». فيما أشار إلى جثة جاوبون.

لم توقف السيدة ستريكهام خطواتها. «اتركوه للجرذان».

وجدوا كلبَيْ خارق الكلاب الميت يستريحان بخنوع عند مدخل المحطة، وقد وضعا ذيليهما بين قوائمهما.

قالت السيدة ستريكهام: «إنهما غير مؤذيين الآن». فيما لاطفت أحد الكلبين خلف أذنيه. كان الباب المعدني مقفلاً، لكن بيب فتحه سريعاً بمجموعة مفاتيح موجودة في معطفه.

بدأ المطر ينهمر فيما كانوا يتقاتلون تحت الأرض. وغمرت المياه شوارع بلاكستون كما لو أن السماء رمادية اللون تفرغ محتوياتها. ركض الخارقون الأربعة تحت المطر الغزير، واحتموا بالأغطية المتوافرة عندما أمكن. في مثل هذه الأيام سابقاً، كان كاو يغطي العش بالقماش المشمّع ويحاول النوم، لكنه مضطرب الآن. تضاءلت شيئاً فشيئاً صدمته بفظاظة الخارقين؛ إلى أن أصبح يفكر الآن في ليديا فقط. ماذا لو لم تكن في مصنع الخياطة؟ ماذا سيفعلون حينها؟ حاول تجاهل شكوكه، لكن هذا ليس سهلاً.

لم يكن هناك الكثير من الأشخاص فيما توجهوا إلى المنطقة الصناعية. كان بيب يعيد سرد مجريات المعركة مع جاوبون طوال الطريق؛ بالتفصيل الممل. بات شعره الأشقر المتسخ ملتصقاً برأسه نتيجة المطر، لكنه بدا غير مبالٍ بذلك.

قال للسيدة ستريكهام: «ثعالبك مذهلة! كم يمكنك الاستدعاء دفعة واحدة؟».

حملت السيدة ستريكهام مظلة، وتدفق الماء عن جوانبها بشكل مستمر. قالت: «لا أعرف بالضبط».

قال بيب: «أراهن أنه يمكنك استدعاء الكثير!».

قالت السيدة ستريكهام بصوت منهك: «لم أحتج إلى فعل ذلك منذ زمن طويل».

قال كرامب: «اترك فيلما وشأنها».

غاص بيب في صمت متجهم.

وصلوا سريعاً إلى المباني منخفضة الارتفاع في المنطقة الصناعية؛ مصانع ساكنة ومستودعات فارغة منتشرة حول شبكة من الشوارع مع مراتب سيارات موزعة بينها. نمت الأعشاب الضارة في الممرات بين المباني. طارت غربان كاو قبلهم، فقد طلب منها الانتباه إلى أي شيء مريب؛ أي أفاعٍ أو صراصير مختبئة في الظل. حطّ سكريتش على مصباح شارع ونفض الماء عن ريشه، فيما تقطّر المزيد من الماء من منقاره.

أسرع كاو في خطواته إلى أن أصبح قرب والدة ليديا. كان وجهها خالياً من التعابير، وعيناها شاردتين.

ناداها: «سيدة ستريكهام».

استفاقت من شرودها، ولوّحت بيدها بتململ، وقالت: «فيلما. بما أن الظروف قد أجبرتنا على التواجد معاً، قد لا نكون غريبين في النهاية».

أومأ كاو برأسه، لكنه لم يستطع إقناع نفسه بمناداتها باسمها الأول. تابع القول بتردد: «هل صحيح أن بعض الخارقين يستطيعون تحويل أنفسهم إلى حيواناتهم؟».

أجابت وهي تنظر مباشرة أمامها: «هذا ما يُقال. رغم أني لا أعرف أي خارق حيّ يستطيع فعل ذلك».

«إذاً... أنتِ لا تستطيعين، أليس كذلك؟».

استدارت صوبه مجدداً مع نظرة قاسية وصرخت: «لا، لا أستطيع. ولو كنت مكانك، لركزت على ليديا وأوقفت أحلام اليقظة الشبيهة بالخرافات التي ينطق بها فيليكي كوايكر».

توقفت أمام مفترق شارعين، وأشارت إلى مبنى رمادي خالٍ من النوافذ. «ها قد وصلنا».

قال كرامب: «سوف نتحقق». ونظر إلى فيلما التي أومأت له برأسها.

قالت والدة ليديا: «أنتما الاثنان انتظرا خارجاً».

قال كاو: «ماذا؟».

قالت السيدة ستريكهام: «ليست معركتك. إنهما عدوّانا القديمان، وهما يحتجزان ابنتي».

بدأ كاو القول: «والداي...».

قال كرامب: «والداك قتلهما الرجل الدوّام. وطالما أنك لا تسيطر على منقار الغراب، لن يستطيع الرجل الدوّام العودة. نفّذ ما تقوله لك فيلما».

قال كاو: «لا! أنتما بحاجة إلينا».

قال بيب: «إنه محق!».

تقدم كرامب خطوة إلى الأمام، ووضع يديه على كتفي كاو، ونظر مباشرة إلى عينيه قائلاً: «كاو، لست جاهزاً. الأمر بهذه البساطة». ثم انحنى أكثر وتكلم بصوت منخفض. «بالإضافة إلى ذلك، إذا لم أعد، فأنا أحتاج إلى شخص ما للاهتمام ببيب الصغير».

أراد كاو مناقشته، لكنه كبت إحباطه على طرف لسانه وتمتم: «حسناً».

عندما أفلته كرامب، لاحظ كاو أنهم محاطون بدزينة ثعالب وسرب حمام. اجتاز الراشدان الطريق، ومشيا جنباً إلى جنب.

سأل بيب بغضب: «هل ستسمح لهما بالذهاب هكذا؟».

أجاب كاو منتبهاً جيداً إلى كل كلمة يتلفظ بها: «سوف نراقب. قد يملك الرجل الدوّام أتباعاً في الجوار».

اتكأ بيب على جدار.

قال غلام، وهو يحطّ قربه: قرار جيد. دع الخبيرين يهتمان بهذه المسألة. سوف يعثران على ليديا خلال وقت قصير.

سار كرامب والسيدة ستريكهام بمحاذاة جانب مصنع النسيج وتوجها صوب باب معدني، فيما لحقت بهما كائناتهما مباشرة خلفهما. توقف المطر أخيراً.

وفي اللحظة التالية، اختفيا داخل المبنى.

قال بيب: «لا أصدق أننا لا نشارك في ذلك». وبدا على وشك البكاء.

قال كاو: «لا، ليس صحيحاً». وبدأ يلحق بكرامب والسيدة ستريكهام.

قال سكريتش وهو يحلق في الهواء: لا؟

صرخ بيب وهو يركض خلفه: «انتظر! ظننتُ...».

قال كاو: «أنا لم أشأ فقط التشاجر معه. لا مجال أبداً لأن أبقى هنا في الخارج فيما ليديا في خطر».

طار غلام وهبط على الطريق أمامهما. كاو، لقد سمعت ما قاله كرامب. ليس هذا...

قاطعه كاو: «لا جدوى من الكلام في هذا الموضوع. لقد اتخذتُ قراري. يمكنك البقاء خارجاً إذا أردت».

تنهد غلام، ثم لحق بهما.

وصلا إلى الباب الذي كان لا يزال مفتوحاً جزئياً. كان المكان معتماً في الداخل، فانزلق كاو عبر الباب، ولحق به بيب على الفور.

وفيما تكيّفت عيناه مع العتمة، رأى مئات المكاتب والكراسي المنتشرة بعيداً. توجد على كل مكتب آلة خياطة. غطى الغبار الأرض، مما سهّل عملية اللحاق بخطوات كرامب والسيدة ستريكهام. لا تزال هناك كومات من الأقمشة بالقرب من بعض الآلات.

همس بيب: «آلات خياطة».

حطّ ميلكي وسكريتش وغلام على أقرب طاولات. كانت الغرفة الكبيرة هادئة جداً، حيث استطاع كاو سماع خفقان أجنحتها.

في منتصف الغرفة، ثمة باب مغلق قرب جانب المصنع. وكانت الأرض مليئة بالأوراق، وثمة مجسّمات عارضات بلاستيكية مصفوفة على حائط، مع أقمشة ملتفة فوقها. عرف كاو أن لا أحد عمل في هذا المكان منذ زمن بعيد. ربما منذ الصيف المشؤوم.

آثار الخطوات فوق الغبار اتجهت صوب الزاوية البعيدة في المبنى. تقدمت بعض الفئران ببطء بمحاذاة الحائط المجاور.

وقال لها بيب بصرامة: «وفري لي الدعم».

ابتسم كاو، رغم أنه لم يستطع أن يتخيل نوع المساعدة التي يمكنها أن توفرها هذه القوارض الصغيرة. في الزاوية، شاهد مجموعة من السلالم المعدنية لولبية الشكل المؤدية إلى الأسفل صوب قبو.

قال بيب: «هل يمكنك سماع هذا؟».

أحنى كاو رأسه للإصغاء جيداً. كان ثمة صوت إيقاعي آتٍ من الأسفل. قال: «يبدو وكأنه إنشاد». لكنه لم يستطع فهم الكلمات.

نزل السلالم، فيما خفق قلبه بقوة، ووضع كل قدم بعناية شديدة.

وقبل أن يصل كاو إلى الأسفل، امتلأ الهواء بأصوات متنافرة امتزجت بين العواء والصراخ. أسرع صوب الأسفل نحو ممر فارغ في نهايته ضوء بعيد. ارتفعت أكثر فأكثر أصوات الحيوانات، فانطلق

راكضاً. وعندما وصل إلى نهاية الممر، شاهد بابين مزدوجين مع نوافذ زجاجية صغيرة. كان الضوء والأصوات المريعة آتية من الجهة الأخرى خلف البابين.

اقترب أكثر فأكثر، ونظر عبر النوافذ الزجاجية.

أول ما رآه كان حلقة من الثعالب المحيطة بالسيدة ستريكهام لحمايتها، وقد نفشت فروها وكانت تزمجر بشدة، وإنما بدت مترددة، كما لو أنها خائفة من التقدم. بدت طيور الحمام بحال مماثلة وهي متحلقة على شكل دائرة حول كرامب.

دفع كاو الباب وفتحه قليلاً، وحرص على أن يبقى مختبئاً. شاهد مستودعاً كبيراً، مليئاً بالقش والأقفاص، ومضاء بنور شموع عكس أشكال مكيفات الهواء الفضية في السقف. احتلّ سكاتل ومامبا وسط الغرفة، ووقفا بعيدين عن بعضهما بضعة أمتار. كانا غير مسلحين حسبما رأى كاو، فيما وقفت ليديا بينهما وهي تحمل منقار الغراب وترتجف، وثمة قلنسوة فوق رأسها وعنقها. وقرب قدميها على الأرض، تم رسم أشكال غريبة بمادة سوداء سميكة.

قالت السيدة ستريكهام: «لا تجرؤا على إيذائها!».

قالت ليديا: «ماما. ماما، هل هذه أنت؟».

قال سكاتل: «محاولة جيدة عزيزتي. لكننا نعرف أنها ليست أمك. إنها خارقة الثعالب الكريهة».

قالت السيدة ستريكهام: «لا تقلقي ليديا. سيكون كل شيء على ما يرام الآن». وكان صوتها مشحوناً بالقلق.

قهقه سكاتل.

قالت مامبا: «لا أعتقد ذلك. ليس قبل أن يفعل كل واحد ما أقوله بالضبط. أولاً، دعونا نتخلص من تلك الثعالب، أليس كذلك؟».

وأشارت إلى قفص كبير مفتوح على الجانب. «من الأفضل وضعها هناك».

نظرت والدة ليديا بتعاسة إلى ابنتها، ومن ثم إلى الحيوانات الرابضة عند قدميها. وبنقرة من يدها، ركضت الثعالب من دون تردد صوب القفص، وحشرت أجسامها فوق بعضها بعضاً كي يتسع لها القفص. فأسرعت مامبا إلى القفص وأغلقت الباب، وحبست الثعالب في الداخل.

قال سكاتل: «الحمامات أيضاً. إلى الخارج».

تردد كرامب قليلاً قبل أن يرفع يده، فطارت حماماته، وتراجع كاو عن البابين فيما اندفعت طيور الحمام عبرهما، وطارت بعيداً على شكل مجموعة واحدة، ثم اختفت عند منعطف الممر. وهكذا، أصبح كرامب وفيلما من دون أي دفاع.

قالت مامبا وهي تركز انتباهها على ليديا: «والآن، استخدمي منقار الغراب».

قالت السيدة ستريكهام: «هيا ليديا. اقطعي الحجاب الفاصل!».

قالت ليديا: «أخبرتهما ألف مرة. لا أعرف كيف. وهما يستمران في مناداتي بخارقة الغراب. ماذا تفعلين هنا ماما؟».

بدت خائفة، وبدا صوتها مخنوقاً تحت القلنسوة.

رفع سكاتل قدميه ووجّه نظرة متوترة إلى مامبا، فقالت خارقة الأفاعي: «هذا يكفي! لم نأتِ إلى هنا لتخدعونا بحيلة سخيفة. نعرف أن أمك الحقيقية قد ماتت قبل زمن بعيد يا خارقة الغربان. والآن، نفذي ما أقوله!».

قالت ليديا: «ماما، أرجوك، أخبريهما الحقيقة! قولي لهما إني مجرد فتاة عادية!».

قالت السيدة ستريكهام: «أصغي إليّ حبيبتي. نفذي ما تطلبه منك السيدة. ارفعي السيف واسحبيه من جانب إلى آخر».

«لكن...».

قالت السيدة ستريكهام بصرامة: «افعلي ذلك».

فجأة، فهم كاو ما تحاول السيدة ستريكهام فعله؛ إذا أدرك مامبا وسكاتل أن ليديا عديمة الفائدة بالنسبة إليهما، فسيقتلانها على الفور.

بدأت مامبا تنشد مجدداً بصوت خفيف.

همس بيب، وقد امتلأت عيناه بالخوف: «إنها تناديه. تلك الأشكال على الأرض وتلك اللغة الغريبة؛ إنها مخصصة للتحدث مع الأشخاص في البعد الآخر. لقد شرح لي كرامب الأمر ذات مرة. لا بدّ أنها تطلب من الرجل الدوّام... الاستعداد».

لوّحت ليديا بمنقار الغراب فلم يحصل أي شيء.

قالت السيدة ستريكهام: «جربي مجدداً ليديا!». وتقدمت خطوة إلى الأمام، فنقر سكاتل بأصابعه واستدار صوبها. عندها، تدفقت الصراصير من داخل ملابسه ونزلت على الأرض، فطقطقت قشورها لدى اصطدامها ببعضها. قال: «توقفي هناك!». فيما تحلقت الصراصير على شكل دائرة حول كرامب والسيدة ستريكهام. «وإلا ستنهش لحمك عن عظامك!».

همست مامبا: «إنه لا يعمل».

صرخ سكاتل: «إذاً، ربما كانت الفتاة الصغيرة تقول الحقيقة فعلاً. قد تكون خارقة الثعالب أمها فعلاً، مما يعني...».

قال كرامب، وهو يحاول المراوغة: «الفتاة خائفة فقط. أعطِها فرصة أخرى».

قالت مامبا: «لا نملك الوقت لذلك». وتقدمت صوب ليديا،

وزمّت عينيها، ثم مدّت يدها ونزعت القلنسوة عن رأسها.

شهقت السيدة ستريكهام: «لا!».

توقف قلب كاو خوفاً، إذ ثمة أفعى سوداء ملتفة بشكل محكم حول عنق ليديا. ارتفع رأسها قليلاً إلى أن تمايل قرب أذنها، وجفلت ليديا عندما حرّكت الأفعى لسانها.

قالت مامبا: «هذه الأفعى صغيرة جداً، لكن عضتها تقتل فتاة صغيرة مثلك في أقل من دقيقة. سوف تموتين مثل كلبك، وأنت تتألمين. وعندما يرى والدك جثتك، ستكون قد انتفخت كثيراً لدرجة أنه لن يتعرف عليك. لقد انتهى وقت اللعب. اقطعي الحجاب الفاصل خلال الثواني الثلاث التالية، وإلا فسينفد صبري. واحد...».

توسّلت إليها السيدة ستريكهام: «أرجوك».

«اثنان...».

قال كرامب: «لا تفعلي ذلك».

«ثلاثة...».

اندفع كاو عبر الباب مع غربانه وبيبب خلفه. صرخ عالياً: «توقفي، أنا خارق الغربان!».

قال سكاتل بسخرية: «إنه الولد الحقير من المكتبة. لكن، كيف استطاع...».

أطبقت مامبا قبضة يدها وضربت بها اليد الأخرى وقالت: «طبعاً إنه هو! لا بد أنه كان في منزلها حين انتظرت الغربان في الخارج. عندما قتلت الأفعى الكلب الصغير».

ألقى كاو نظرة سريعة على السيدة ستريكهام التي تصلّب وجهها نتيجة الخوف. إذا استطاع صرف انتباههما لوقت طويل كفاية، فقد تتمكن ليديا من الخروج من هنا حية. قال كاو: «عرف جاوبون ذلك

أيضاً؛ قبل أن يموت».

برم سكاتل عينيه صوب مامبا، ومن ثم صوب كاو، وطرف بهما بسرعة وقال: «ميت؟! أنت تكذب».

قال كرامب: «هذا صحيح. حتى إنّ كتلة من اللحم مثل جاوبون لم تستطع تحمل قوة 20000 فلط».

زمّ سكاتل عينيه، وتحركت الصراصير المحيطة بالسيدة ستريكهام وكرامب نحو كاو لتطويقه. قال خارق الصراصير: «لست خائفاً، أليس كذلك؟ يجدر بك الخوف. لن يبقى منك أي شيء سوى العظام وبقايا الملابس إذا أعطيتُ الأمر بقتلك. لا يستطيع أصدقاؤك الغربان فعل أي شيء حيال ذلك».

قال كاو: «أنت تحتاج إليّ. أنا الشخص الوحيد القادر على استعمال منقار الغراب».

قالت ليديا: «كاو، لا تفعل!». فوجهت إليها مامبا نظرة غاضبة، فيما ضغطت الأفعى الملتفة حول عنقها بقوة أكبر قليلاً، فتمايل رأسها من جانب إلى آخر. بدأت عينا ليديا تنتفخان، فيما أصبح وجهها أكثر دكنة.

قالت مامبا: «بالكاد تستطيع الفتاة المسكينة التنفس. المزيد من الضغط وستنفجر أوعيتها الدموية».

تقدم كاو بضعة إنشات إلى الأمام، وتحركت معه الصراصير، فدفعته بالقرب من صديقته. لاحظ بذعر أن الأشكال السوداء على الأرض لم تكن مرسومة، بل كانت عبارة عن عناكب - المئات منها - مسمّرة في مكانها. شكّلت مع بعضها دائرة مشوّهة مع ثماني أرجل معقوفة.

قال كاو يائساً: «اتركها وشأنها».

قال سكاتل: «أنت تعرف ماذا نريد. أنت تحمل المفتاح».

نظر كاو إلى السيدة ستريكهام وكرامب. كان فك خارق الحمام مطبقاً، فيما أغمضت السيدة ستريكهام عينيها ببطء، إما دليل استسلام، أو لأنها لا تستطيع تحمّل المشهد. ما الذي يعنيه ذلك؟ ماذا يفترض به أن يفعل؟

قال كاو: «حسناً، سأفتح الباب المؤدي إلى البعد الآخر. اتركها أرجوك!».

قالت مامبا: «اقطع الحجاب، ثم سنفلتها».

قال كرامب: «لا. يجب ألا يعود أبداً».

أجاب كاو: «لا يوجد خيار. إنه السبيل الوحيد».

نظر إلى السيدة ستريكهام. أصبحت عيناها مفتوحتين مجدداً، وتضاربت العواطف فيهما.

قال كرامب وهو ينظر بتوسّل إلى والدة ليديا: «إذا عاد، فسنموت جميعاً». وبدا مثل ولد صغير مذعور جداً.

قال غلام: خارق الحمام محق. لا يمكنك فعل ذلك.

قال سكريتش: أرجوك، أصغِ إلى غلام يا كاو.

نظر كاو إلى ميلكي طلباً للتوجيه. لم يقل الطائر الشاحب أي شيء، لكن شيئاً في عينيه منح كاو الشجاعة، وبدا وكأنه يقول له إن الخيار الذي اتخذه قلبه هو الخيار الصحيح.

فيما اقترب كاو من دائرة العناكب، توقفت الصراصير، كما لو أنها خائفة من اجتياز الدائرة. دخل كاو وسط الدائرة، وأحسّ بالغثيان في معدته، وشعر أن العالم مال قليلاً.

قال كاو: «أعطيني منقار الغراب يا ليديا». مهما كلّف الأمر، لن يسمح بأن تموت ليديا. عليه إنقاذها.

قال كرامب: «كاو، لا تفعل ذلك. لم تكن هنا قبل ثمانية أعوام. لا يمكنك أن تفهم ما الذي تفعله».

كانت السيدة ستريكهام صامتة، وذقنها مرفوع قليلاً دليل تحدي، لكن بشرتها بدت شاحبة جداً.

امتلأ وجه ليديا بالدموع فيما أعطت كاو منقار الغراب. ثبتت عينيها على عينيه، وقد امتلأتا بالخوف، فيما أطبق أصابعه على الجلد البارد. تفاجأ كاو بمدى خفّة السيف؛ إذ بدا وكأنه مصنوع من القطن وليس من المعدن. انطبقت كيف يده على السيف تماماً.

قالت مامبا فيما ارتخت قبضة الأفعى حول عنق ليديا: «جيد».

قال سكاتل: «قف في الوسط».

صرخ كرامب بغضب: «توقف كاو! إن كنت تحب والديك، فضع منقار الغراب أرضاً».

نظرت ليديا إلى كاو ومن ثم إلى أمها، فيما بدأت مامبا تنشد مجدداً.

تحركت الغربان الثلاثة في الغرفة من دون أي أمر من كاو. فجأة، تراجع غلام وسكريتش إلى الخلف.

قال غلام: لا نستطيع العبور!

قال سكريتش: كاو، اخرج من هناك!

وحده ميلكي حطّ على كتفه.

قال كاو: «هل جئت لتبقى معي؟».

طرف ميلكي بعينيه، وشاهد كاو انعكاس صورته في العين الشاحبة للغراب.

رفع كاو منقار الغراب وقال لمامبا: «تذكري اتفاقنا».

حرّك السيف في الهواء، وأحسّ بمقاومة خفيفة كما لو أنه يقطع

قماشاً. إلا أن وميض ضوء مفاجئاً جعله يستدير بعيداً.

قال سكاتل: «إنه يعمل. تابع القطع».

إلى جانبه، لاحظ كاو أن كرامب وقف مفتوح الفم. حتى إن السيدة ستريكهام كانت ترتجف.

قالت ليديا: «أنا آسفة كاو. أنا آسفة جداً».

حرّك منقار الغراب على شكل قوس. غير أن الضوء القوي أعمى بصره، وأصبح عاجزاً عن رؤية أي شيء خلف الباب الساطع غير المألوف.

قالت مامبا وقد امتلأ وجهها بالحماسة: «والآن تراجع إلى الخلف. يبقى الباب مفتوحاً لبضع لحظات فقط».

تراجع كاو خطوة واحدة إلى الخلف، ثم أحس بضغط قوي على يده. وحين استدار رأى ليديا قربه، وتمتمت بصوت مخنوق وأجش: «لقد أنقذتني مرات عدة، وقد جاء دوري الآن لإنقاذك».

قالت السيدة ستريكهام بصوت ملح: «ليديا...».

لكن، قبل أن يدرك كاو ما يحصل، أخذت ليديا منقار الغراب من يده وقفزت نحو الباب، فيما الأفعى لا تزال ملتفة حول عنقها.

صرخت مامبا: «لا!». وخلال جزء من الثانية، انغلق الباب، وانطفأت الشموع، وابتعدت كل العناكب المحيطة بقدمي كاو، واختفت في العتمة.

لقد اختفت ليديا.

الفصل السابع عشر

انهـار كاو علـى الأرض مصدومـاً. فجـأة، أصبـح الهواء بـارداً، واسـتطاع عبر الضجيج في رأسه سـماع فيلما سـتريكهام تبكي بشدة. وعندما نظر إلـى الأعلى، كانت مامبا راكعة علـى ركبتيها وهي تنتحب وتضع يديهـا على فروة رأسـها. كان سـكاتل يحدّق في المـكان الذي ظهر فيه الباب، ويهزّ رأسه متمتماً: «لا، لا، لا...».

قالت مامبا: «لماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟».

قال كاو لنفسـه: لمنع الرجل الدوّام من العودة. فمـن دون منقار الغـراب، لا يسـتطيع أحد العـودة. ولا حتى ليديـا. أحسّ كمـا لو أن أحدهم قد أخـذ قلبه منـه واسـتبدله بالرصـاص. لقد ضحّـت بحياتها لإنقاذنا.

صرخت مامبا في خارق الصراصير: «لماذا لم توقفها؟».

صرخ سـكاتل: «ولماذا لم تفعلي ذلك أنتِ؟ تلك الفتاة الحقيرة أخذت منقار الغراب معها!».

صرخت مامبا في الرجل محـدّب الظهر: «أنت من كان يثرثر عن عالم الموت أمام الفتاة طـوال الوقت. لولاك أنت، لمـا خطر في بالها أبداً أن تفعل ذلك!».

قال كرامب: «وما الفرق الآن؟ لقد انتهى الأمر».

نظـرت إليه مامبـا بعينيـن غاضبتين وقالـت: «ليس بهذه السـرعة

يا خـارق الحمـام». وتحرّكـت أصابعهـا الطويلة، فتسـللت عـدة أفاعٍ من الأقفـاص الموجـودة في جانب الغرفـة، وتوجهت مباشـرة صوب كرامب والسيدة ستريكهام، فيما توجهت أفعى أخرى صوب بيب.

مدّ كرامب يده، فظهرت حمامتان من إحـدى الزوايا المعتمة في الغرفة، وتوجهتا مباشـرة صوب الأفعى الأقرب إلى بيب. لكن الأفعى تحرّكـت بعنـف، وأمسـكت بإحـدى الحمامتين بيـن فكّيها ثـم التفت حولها في ثانية واحدة.

قال كرامب: «اهرب بيب!».

كانـت الأفاعـي الملتويـة تحاصـره فـي الزاويـة. توجـه خـارق الفئـران صوب البـاب، وتوقف قليـلاً للسـماح لمجموعة مـن الفئران بالخروج من ساقي سرواله. لكن في اللحظة التالية، تدفقت موجة من الصراصير خلفه، وقضت على الفئران بسهولة.

رأى كاو السـيدة سـتريكهام تـركل أفعـى جانبـاً، وتـدوس علـى أخرى قبـل أن تتوجـه صوب مجموعـة من الأقفـاص. تأملـت عيناها المليئتـان بالدمـوع كل الغرفـة، ثـم اندفعـت صـوب أحـد الأقفـاص وسحقت المزيد من الأفاعي، وبعد ذلك قفزت على الأرض وركضت صوب المخرج نفسـه مثل بيـب. اهتزّ قفـص الثعالب، فيمـا زمجرت الحيوانـات التـي كانت أسـيرة فـي داخلـه، وهي عاجـزة عن مسـاعدة سيدتها.

وقف كاو على قدميه وركض أيضاً، وإنما أحسّ بضربة قوية على الجهة الخلفية لعنقه دفعته إلى التعثر ورؤية النجوم. ورغم ألمه الكبير، أمر غربانه بالرحيل.

قـال سـكريتش وهـو يخفـق بجناحيـه فـوق سـاحة العـراك: لن نتركك.

صرخ كاو: «اذهبي، نفّذي ما أقوله!».

أخيراً، خرجت الغربان الثلاثة من الغرفة، فيما استلقى على الأرض محاولاً تصفية ذهنه. رأى كاو الصراصير تقترب منه، وأصبحت على مسافة سنتيمترات قليلة من أنفه، وبدا له أنها تشعر بالجوع.

قال سكاتل وهو يقف فوقه: «لا تحركات مفاجئة».

وضع كاو يديه بعناية على الأرض ودفع نفسه إلى الأعلى، وتعثر قليلاً. كان كرامب واقفاً قرب جدار، محاصراً بأفاعي مامبا والمئات من صراصير سكاتل.

الحمامتان اللتان هاجمتا الأفعى كانتا ممدّدتين على ظهريهما، محاطتين بالريش. الأولى ماتت، فيما رجلا الثانية تنتفضان قبل الموت.

قال سكاتل: «هل نقتلهما الآن؟».

حدّقت مامبا في كاو بغضب، وقد ظهر الغيظ واضحاً على وجهها الداكن. بعد ثوانٍ قليلة، هزّت رأسها وقالت: «ليس الآن. ثمة طريقة أخرى ربما... قد يستطيع خارق الغربان مساعدتنا، سواء أحب ذلك أم لا. خذهما إلى غرفة الترميم فيما أفكر في المسألة».

نقر سكاتل بأصابعه، فتحركت الكائنات الموجودة عند قدمي كاو دفعة واحدة، وأجبرته على التحرك صوب البابين. لحق به كرامب محاطاً بالأفاعي. إذا قام أي منهما بخطوة واحدة، فسيموت الآخر حتماً. لا مجال للفرار. على الأقل، يبدو أن بيب والسيدة ستريكهام قد هربا.

أخذهما خارق الصراصير إلى باب في الممر الرئيس. في الداخل، ثمة غرفة صغيرة خالية من النوافذ، ومضاءة فقط بمصباح عارٍ

خفيف، ومليئة بآلات خياطة مكسورة ومكدّسة فوق بعضها بعضاً.

قال سكاتل مع ابتسامة عريضة: «اجلسا هنا. سوف نلقي القبض على صديقيكما». ثم غادرت الأفاعي والصراصير الغرفة، وانغلق الباب بقوة. سمع كاو مفتاحاً يدور في القفل.

سأل: «ماذا الآن؟».

اتكأ كرامب على الجدار، ثم هبط صوب الأسفل إلى أن أصبح جالساً وركبتاه محنيّتان. بدا منهكاً، وقال: «أنا آسف كاو. لكننا انتهينا».

كان دم كاو لا يزال يغلي نتيجة المعركة. لن يستسلم، ليس فيما ليديا لا تزال عالقة في البعد الآخر. بالإضافة إلى ذلك، نجحت السيدة ستريكهام في الفرار مع بيب، وقد يتمكنان من تدبّر شيء ما معاً. تأمل الغرفة. «نستطيع ربما كسر القفل».

قال كرامب: «مامبا ليست غبية. ستكون هناك ثلاثون أفعى مميتة في انتظارنا خارج هذا الباب».

أحسّ كاو بنوبة غضب كبيرة، لكن قبل أن يتمكن من الإجابة، أحسّ بدغدغة صغيرة في يده. نظر إلى الأسفل، ورأى عنكبوتاً صغيراً يدبّ على معصمه. نفضه بعيداً، فتدلّى هنيهة من خيط رفيع نازل من السقف. تتبّعت عينا كاو خيط الحرير نحو الأعلى. ثمة فتحة تهوئة تغطيها أسلاك مشبكة مفتوحة قليلاً في الأعلى قبالة الباب.

وعندما نظر إلى الأسفل مجدداً، كان العنكبوت قد اختفى.

خفق قلبه بقوة، ورمى جانباً هيكل آلة خياطة، وصعد إلى الطاولة. ورغم مدّه يده قدر الإمكان، بقيت بعيدة مسافة ذراع كاملة عن الأسلاك المشبكة. ثنى ركبتيه ثم قفز، لكنه لم يصل إليها. جرّب مجدداً وحصل على النتيجة نفسها.

قال: «انهض وساعدني».

زمجر كرامب: «لماذا؟».

ازداد غضب كاو وقال: «لا يمكننا الجلوس هنا هكذا!».

قال كرامب: «فيلما وبيب هما أملنا الوحيد». بدا منهاراً ومهزوماً. «وهذه مسألة طويلة. وفّر طاقتك إلى حين عودة سكاتل. على الأقل، سنموت حينها ونحن نقاتل».

«لكن ليديا في خطر!».

ثبّت كرامب عينيه على عيني كاو. وللحظة، عادت النار إلى عينيه وقال: «ليست في خطر. لقد ماتت». زعزعت كلماته كل كيان كاو، ثم أضاف كرامب بنعومة: «أو ما شابه. الرجل الدوّام يملكها الآن. لقد أخذت منقار الغراب معها، وبالتالي لا مجال للعودة. وحده خارق الغربان يستطيع السيطرة عليه. بالإضافة إلى ذلك... افتح عينيك كاو». وأشار إلى الأعلى. «الفتحة عرضها أقل من نصف متر وارتفاعها أقل من ذلك. لا يمكنك المرور عبرها».

نظر كاو إلى الفتحة في الأعلى وفكّر أن كرامب محق؛ فهي صغيرة جداً بالنسبة إليه.

تمتم: «لكنها ليست صغيرة بالنسبة إلى غراب».

قال كرامب: «ماذا تقصد؟».

أجاب: «الغراب يستطيع العبور عبر هذه الفتحة».

قال كرامب: «لا أستطيع رؤية أي غراب. وحتى لو نجحت بطريقة ما في استدعاء غراب من الجانب الآخر، فستبقى أنت مسجوناً هنا». وبدا الحزن في عينيه. «أنا آسف كاو».

قفز كاو عن الطاولة، وشعر بخفة غريبة. «ماذا لو كنتُ أنا غراباً؟».

لـوّح كرامـب بيـده رافضاً الفكـرة وقـال: «أخبرتـك أيهـا الولد، حتى لو تمرّنت طـوال حياتك، فلن تتمكن من فعـل ذلك. ثق بي، لقد حاولت القيام بذلك سابقاً».

قـال كاو: «لكني لم أحـاول». برم كرامـب عينيه، وهـذا ما جعل كاو أكثر تصميماً.

قال خارق الحمام: «لن تنجح».

اسـتدار كاو بعيـداً عن كرامـب، وجلس فـي منتصـف الأرضية، متشـابك السـاقين. قبل يومين، لم يكـن يتصوّر أنه يسـتطيع اسـتدعاء المزيد من الغربان، وليـس بالطبع أن يطلب منها حملـه. أغمض عينيه وركّـز؛ متذكراً إحسـاس الخفة الغريب الـذي انتابه في منـزل فيليكس كوايكر، عندما حدّق في عيني ميلكي وغاص في وعي الطائر.

ركّز على ذلك الشـعور، وتـرك تنفّس كرامب يخبو فـي الخلفية، ثم فكّر في عين ميلكي، وكيف سمح لنفسه بأن يغوص في أعماقها...

سأل كرامب: «هل من احتمال؟».

قال كاو: «اهدأ!».

ركّز مجـدداً، وبعد ثوانٍ قليلـة، أحس بالمزيد مـن القوة. زحفت دغدغة من الطاقـة ببطء على طـول ذراعيه؛ كما لو أن الـدم في عروقه أصبح فجـأة أكثر سـخونة بدرجة أو درجتين. إنه الشـعور نفسـه الذي أحسّه في العشّ؛ عندما اسـتدعى الغربان من كل زوايا الحديقة العامة؛ قوة كامنة تنتظر من يطلقها. لكـن، هذه المرة لم يشـأ كاو إطلاقها، بل أراد اسـتخدامها لنفسـه؛ لقلبها نحو الداخل. أخذ نفسـاً عميقـاً، وفيما فعل ذلك، ركّز على سحب الطاقة إلى ذراعيه وصدره. ارتفعت حرارة دمه مجدداً، وأصبحت مزعجة.

تمتم كرامب: «لا يمكن...»، وكان صوته بعيداً.

صرّ كاو أسنانه. مهما كان ذلك الشيء الذي يتدفق تحت بشرته، ويملأ عروقه، فقد بدا أشبه بالنار أكثر من الدم. كانت كل أطراف أعصابه تصرخ لتطلب منه التوقف، ومع مرور كل ثانية لم يفعل فيها ذلك ازداد الألم. تراكمت كتلة كبيرة من الألم في صدره، وازداد شعوره بالألم مع كل نفس أخذه. كل ما هو موجود كان الألم الذي ازداد شيئاً فشيئاً، تاركاً بقية جسمه ضعيفاً. يمكنه التوقف في أية مرحلة، لكنه إذا فعل ذلك فسيضيع كل شيء سدى، وليديا تحتاج إليه. تحمّل الألم بقوة الإرادة، وحال دون فراره منه.

من مكان بعيد جداً، نادى صوت كرامب: «لا تتوقف! أنت تفعل ذلك!».

أحسّ كاو أن وجهه يطفو بعيداً.

لم يعد يشعر بساقيه، وبدت عظامه وكأنها جوفاء، وأصبحت ذراعاه قويتين جداً، كما لو أنه يستطيع رفع بنايات بكاملها بواسطتهما.

حان الوقت. زفر الهواء، فتدفقت القوة عبره، وتركت أطراف أصابعه لتنتقل إلى يديه، ومن ثم لتمتد عبر كل ذراعيه إلى أن أصبحتا من دون وزن.

حرّكهما صعوداً ونزولاً...

وأحسّ بجسمه يرتفع.

عندما فتح كاو عينيه، كان يحلّق في الهواء، وينظر إلى كرامب في الأسفل. بدا العالم محنياً، وأدرك كاو أنه يستطيع رؤية ما يوجد خلفه أيضاً. فتح خارق الحمام فمه مذهولاً وقال: «كاو!».

ضحك كاو، وسمع صوته على شكل نعيق غراب.

لقد فعلتها!

خفق جناحيه قليلاً، وارتفع صوب فتحة التهوئة وهاجمها

بمنقاره، فأزاح الأسلاك المشبكة، وأوقعها على الأرض. تدفق الهواء البارد إلى الداخل، وتغلغل عبر ريشه. ألقى نظرة أخيرة على كرامب الذي كان يفتح فمه مذهولاً، ثم خرج من الغرفة ومنها إلى الليل.

لا يحتاج ذلك إلى أي عناء. مجرد فكرة واحدة ويحمله جناحاه إلى الأعلى. حلّق كاو فوق المصنع، وشاهد بلاكستون تتلألأ تحت النجوم. ارتفع كاو أكثر فأكثر إلى أن استطاع رؤية الهضاب إلى الغرب، فيما اختفت بلاكستون بين الحقول في الشرق.

أمال رأسه، وشاهد المباني الممتدة قرب بعضها، والرقعة المربعة للحديقة العامة قرب السجن. بدا العالم - أو حياته القديمة - صغيراً جداً.

بمجرد تحريكه جناحيه، انحرف وهبط وانزلق، واندفع بمساندة ريح قوية. حلّق فوق الأسطح المموجة في المنطقة الصناعية، ثم حلّق فوق الكابلات الفولاذية لجسر ممتد فوق النهر. لحقت السيارات مساراتها المستقيمة تحته.

زاد كاو سرعته، وتفاجأ بمدى سرعة طيرانه. كان جسمه قوياً وخفيفاً في الوقت نفسه، واستسلم الهواء لرغباته كما لو أنهما كيان واحد.

في اللحظة التالية، حلّقت ثلاثة غربان معه، اثنان باللون الأسود وواحد باللون الأبيض.

قال سكريتش: كاو؟ هل هذا أنت؟!

أجاب كاو: هذا أنا! أصبحت واحداً منك الآن.

قال غلام: لا أصدق ذلك!

قال سكريتش: لطالما عرفتُ أنه يستطيع فعل ذلك. لطالما قلتُ إنه مميز، أليس كذلك؟

طرف ميلكي بعينيه ببطء، كما لو أنه غير متفاجئ البتة، ثم اندفع إلى الأمام وحلّق قبلهم. ومن دون قول أي شيء، قادهم الغراب الأبيض شمالاً في سماء الليل. لهنيهة، ظنّ كاو أن ميلكي عائد إلى العشّ، فزاد سرعة خفقان جناحيه وتجاوز غلام وسكريتش.

قال غلام: يا له من استعراض!

حلّق كاو بالقرب من ميلكي وقال له: أرجوك. أريدك أن تخبرني عن طريقة تمكنني من العبور إلى البعد الآخر. لا بدّ من وجود طريقة أخرى.

أمال ميلكي رأسه قليلاً إلى الجانب.

قال كاو: أعني ذلك فعلاً! لقد كنت هناك، وأنت تعلم!

حرّك ميلكي جناحيه، وطار صوب الجهة الشمالية الشرقية.

نادى سكريتش: إلى أين نذهب؟

أجاب غلام: لا فكرة لديّ.

سأل كاو وهو يتعقبه: هل هذه نعم؟

لكن الغراب الأبيض اكتفى بالطيران.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يبدأ ميلكي بالهبوط. حلّقت الغربان مباشرة عند أطراف بلاكستون، ثم أصبحت فوق الحقول، وبعد ذلك حلّقت على علوٍّ منخفض صوب مجموعة من المنازل غير المضاءة حول مدفن. حدّق كاو مدهوشاً في المنظر الممتد تحت جناحيه.

حلّق ميلكي بمحاذاة ممرّ ضيق مؤدٍّ إلى بوابة حديدية. كانت الهضاب الصغيرة الخضراء في المدفن مليئة بألواح حجرية من كل الأشكال والأحجام. حام ميلكي مرة واحدة فوقها، ثم استراح فوق

أحدها، وكان عبارة عن لوح رخامي مائل قليلاً، ومحاط بالأعشاب الضارة.

هبط كاو، وقفز على رجلي الغراب النابضين، متسائلاً عن كيفية تمكنه من العودة إلى الشكل الإنساني. ركّز بشدة مثلما فعل سابقاً، وركّز على إطلاق تلك القوة التي عمل بكدّ لحشدها. بدا الأمر سهلاً مبدئياً مقارنة مع تحوّله الأول، وأشبه بإطلاق نفس عميق عميق. خلال لحظات، عاد إلى كيانه مجدداً، وأحسّ أن جسمه ثقيل وغير عملي، مع أطراف غير متوازنة. تعثر قليلاً، ووضع إحدى يديه على حجر قبر. وبعد عدة أنفاس، عادت الأمور إلى طبيعتها.

سأل: «ما هذا المكان؟». فيما لفحه هواء الليل البارد. ثمة فكرة خطرت في أطراف وعيه، لكنه طردها سريعاً.

نقر ميلكي برجله على اللوح الرخامي.

لم يستطع كاو قراءة الكلمات، لكن حين اقترب أكثر، تمكّن من رؤية شيء واضح جداً؛ صورة غراب محفورة في الحجر. أحسّ بانقباض في حنجرته. «هذا قبر والدَي، أليس كذلك؟».

قال ميلكي بصوت شبيه بالهمس: نعم، هذا هو. القبور أمكنة مميزة، حيث الفاصل بين هذا العالم والبعد الآخر في أضعف حالاته.

قال غلام: ثمة هذر هنا!

وضع كاو يده على الحجر البارد، وتساءل عمّن دفن والديه هنا. أهو فيليكس كوايكر؟ أم خارق آخر، حليف من الحرب خلال الصيف المشؤوم؟

أحسّ كاو بالدموع تتلألأ في عينيه عندما فكّر في أمه وأبيه. لكن بعد قليل، أبعد تلك الدموع. إنّه لا يملك الوقت للأسئلة أو الحزن، فعليه إنقاذ ليديا.

سأل كاو: «كيف أعبر؟».

قال ميلكي: عليك تسخير قوة الغربان، وطلب إذنها.

تسارع خفقان قلب كاو؛ حتى من دون منقار الغراب، ثمة طريقة للعبور.

أغمض عينيه ونادى غربانه إليه. تخيّل نفسه عالياً فوق المدفن الصغير، فوق القرية، ونشر نداءه في كل بلاكستون؛ جاذباً الغربان إلى قنوات طاقته، وشاعراً باتصاله بكل واحد من الغربان كما لو أنها متصلة ببعضها بخيط غير منظور.

وجاءت؛ الواحد تلو الآخر، ومن ثم في مجموعات أكبر وأكبر. امتلأت السماء ببقع سوداء متجهة بثبات صوب المدفن. جثمت الغربان على القبور، على البوابة الحديدية، على أسطح السراديب الرخامية التي تحرسها تماثيل. احتشدت على العشب، واحتك ريشها ببعضها بعضاً؛ على شكل سجادة سوداء. مسح كاو عينيه، وفغر فمه مذهولاً.

لكن، ماذا الآن؟

قال ميلكي: تحدث إليها. كما لو أنه استطاع سماع أفكار كاو.

أدخل كاو يديه في جيبيه كي لا يرى أحد أنهما ترتجفان، وتحدث بصوت عالٍ إلى الغربان المحتشدة.

قال: «شكراً لكِ على تلبية ندائي!». راقبته الغربان بعيونها الصغيرة، وأحسّ بثقته تتداعى تحت نظراتها الانتقادية. «أنا كاو، خارق الغربان، وهذا قبر أمي، خارقة الغربان قبلي. معظمك لا تعرف من أكون. لكني أحضرتك إلى هنا لسبب خاص». توقف قليلاً وأخذ نفساً عميقاً. «عليّ السفر إلى البعد الآخر».

امتلأت أذنا كاو فوراً بآلاف أصوات الغربان الهجومية. ورغم

صعوبة فهم كل الكلمات، كانت النبرة واضحة. أبداً... مستحيل... خطر... مجنون... أحمق.

نظر كاو إلى ميلكي الذي رفع منقاره قليلاً.

قال كاو: «هل توجد هنا غربان حاربت خلال الصيف المشؤوم؟».

صدرت بعض الصيحات.

قال كاو: «لقد حاربتِ من أجل أمي، بالترافق مع خارقين آخرين. ولماذا؟».

من أجل حياتنا. قال غراب عملاق كان يقف قرب قدمي كاو. ولاحظ كاو أنه يملك رجلاً واحدة فقط، وكان منقاره مكسوراً في النصف، وحوافه غير حادة.

قال كاو: «فقط من أجل حياتك! أو ربما من أجل بلاكستون؛ المدينة التي حضنتك دوماً أنتِ وعائلاتك، والخارقين؟ أو ربما لأن ذلك كان الشيء الصحيح الواجب القيام به؟».

صمت الغراب المحارب. بدأ كاو يشعر بعودة الثقة إليه.

«لقد ساعدت شجاعتك على إرسال الرجل الدوّام إلى البعد الآخر. لكنه لم يهزم بعد، وهو يحتجز صديقتي».

قال غلام بهدوء: مهمتنا هي حمايتك.

قال كاو: «وعليّ حماية ليديا. لا يمكننا دوماً الهروب والاختباء. أتباع الرجل الدوّام لن يتوقفوا قبل أن يعيدوه بطريقة أو أخرى».

قالت غرابة نحيلة: إنه عالق هناك. نحن بأمان.

فكّر كاو في سرّه بتعاسة: أنا أخسرهم.

قال: «ليديا ليست فقط صديقتي، بل إنها ابنة خارقة الثعالب».

انتشرت همسات مندهشة بين الغربان، وحرّكت العديد من

الغربان رؤوسها ونظرت إلى بعضها بعضاً. أحسّ كاو بتبدّل في الأجواء، فقال: «هذا صحيح. ليديا هي ابنة المرأة التي دفعت بالرجل الدوّام إلى البعد الآخر. نحن ندين لفيلما ستريكهام بإنقاذ ابنتها».

سألت الغرابة وهي تنظر إلى غربان كاو: هل هذا صحيح؟

أجاب سكريتش: أخشى ذلك. وحرّك جناحه بطريقة غير مبالية.

سأل كاو: «هل ستساعدينني؟ من أجل أمي التي ماتت على يده، ومن أجل خارقة الثعالب التي أنقذتكِ منه؟».

صمتت الغربان، وفكّرت في كلماته.

كان الغراب المحارب العجوز أول غراب قفز في الهواء، ثم لحقت به الغربان الأخرى، ولامست كتفي كاو بأطراف أجنحتها. حلّقت كلها بعيداً عن المدفن، وامتدّت أجسامها على شكل شريط أسود في السماء.

قال كاو: «لا». ووجّه نظرة يائسة إلى ميلكي. «لا يمكنها الذهاب!».

طار ميلكي وسكريتش وغلام أيضاً من دون التفوه بكلمة، وانضمت إلى الغربان المحلقة. ركع كاو على ركبتيه قرب قبر والديه، ووضع رأسه على الحجر.

قال: «أنا آسف». وهو غير واثق ممّا إذا كان يتحدث إلى أهله، أو ليديا، أو السيدة ستريكهام، أو نفسه. «لقد حاولت».

وفيما جلس القرفصاء هناك واليأس يملأ قلبه، تحرّك الهواء حوله، وأحسّ برياح تلفح معطفه. نظر إلى الأعلى، وشاهد مجموعات الغربان تحلّق فوقه. لقد عادت. اتخذت الطيور شكل عمود من الريش الدوام.

ماذا يجري؟!

ازداد تماسك الدوامة ببعضها، فيما حلّقت الغربان في دوائر أسرع وأسرع، إلى أن أصبح كاو عاجزاً عن رؤية طيور فردية في الدوامة. بدأت الطيور تنزل صوبه، على شكل أسطوانة حلزونية جامدة وسوداء اللون. تطايرت ملابس كاو وشعره في التيار. كان خائفاً ومبتهجاً فيما التفّ عمود الغربان حوله، حاجباً كل الرؤية؛ باستثناء بقعة دائرية من السماء فوقه.

أحسّ بقدميه ترتفعان عن الأرض، فيما طارت الطيور أسرع فأسرع. لم يعد يعرف ما إذا كان الليل أو النهار، ثم فقد كل حواس الاتجاه لديه؛ الأعلى والأسفل والشمال واليمين لم تعد تعني أي شيء. مدَّد ذراعيه إلى الأعلى ورفع ذقنه، وسلّم نفسه لدوامة الريش.

أمسك شيء ما بجسمه عديم الوزن، وسيطر عليه السواد بالكامل.

الفصل الثامن عشر

ساد الصمت فجأة، كما لو أن باباً انغلق على أصوات العالم. فتح كاو عينيه، ووجد نفسه واقفاً على عشب مرج متمايل يصل إلى ركبتيه. امتدت سحابة رقيقة في السماء الزرقاء. في الأمام، ارتفعت الأرض قليلاً لتكشف عن غابة ذات اخضرار مذهل، احتكت أوراقها بخفة ببعضها بعضاً.

نظر كاو حوله، وضيّق عينيه أمام نور الشمس الضبابي. لاحت المزيد من الحقول في ذلك الاتجاه، وامتدت على كل المسافة وصولاً إلى الأفق. لم يرَ شيئاً بهذا الجمال من قبل. الهواء النظيف ملأ رئتيه وجعله يتنهد برضى.

لقد اختفت كل الغربان، باستثناء غراب واحد.

قال ميلكي: لقد وصلنا.

كان الغراب العجوز الشاحب جالساً على كتفه، لكن شيئاً تغير.

قال كاو: «عيناك!».

لقد اختفى غشاء العمى الشاحب الموجود في العالم الحقيقي، وكانت عينا ميلكي عبارة عن كرتين سوداوين عكستا وجه كاو.

قال الغراب: في البعد الآخر، يعود إليّ نظري.

سأل كاو: «إلى أين نذهب الآن؟».

طار ميلكي وحلّق في اتجاه الغابة. لحق به كاو ساحقاً بقدميه

العشب في خطوات طويلة. طوال الوقت، أحسّ بالشمس تدفئ ظهره. لـم يتخيـل أن المكان هنا سـيكون علـى هذا النحـو. أحـسّ برغبة في الاستلقاء والاسـتمتاع بالمكان. فالعشـب الطري سـيكون مكاناً مثالياً للتمدد وإراحة جسمه. يستطيع التفكير في الأمور الأخرى لاحقاً...

ليديا. ثمة صوت ملحّ صدر من أعماق عقله.

هزّ كاو رأسه لتصفية ذهنه. لهذا السبب جاء إلى هنا؛ للعثور على صديقته.

كان ميلكـي ينتظره علـى غصن منخفض عنـد حافة الغابـة. فيما دخل كاو العالم المظلـل تحت الأشـجار الزمردية، شـاهد المزيد من الغربـان تطير بيـن الأغصـان الملتفـة، وتحلّق أمـام الجـذوع الملتوية آتية صوبـه. كانت كلهـا بيضاء مثل ميلكـي. جاءت على شـكل كرات ثلجية، مدفوعة بتيار هوائي قوي، وحطّت علـى الأغصان فوقه إلى أن أصبحت على شكل نصف دائرة، فيما كاو في الوسط.

قالـت كل الغربـان بصوت واحـد: أهـلاً ميلكي، وأهـلاً بصديق ميلكـي. وكان صوتها مثل همـس عميـق آتٍ من الهـواء والأرض في الوقت نفسه.

قال كاو وهو يلوّح بيده: «مرحباً. أنا كاو».

قالت الغربـان: نعرف من تكون يا خارق الغربان. لسـت أول من يعبر الحدود. لكن السؤال هو لماذا جئت إلى هنا؟

نظـر كاو إلى ميلكي، ثـم تكلّم: «لقـد جئت لإنقـاذ صديقتي من الرجل الدوّام».

بدأت الغربان تهزّ رؤوسـها وتحنيها، وتتحدث إلى بعضها بعضاً بصوت هادئ، ثم ساد الصمت.

قال ميلكي: وافقت على أن تكون دليلك.

قالت الغربان: اتبعنا. سوف نأخذك إلى حيث تريد.

طارت مجموعة الغربان البيضاء وحلّقت أمامه، حيث ابتعد كل غراب مسافة بضع أقدام عن الغراب الآخر، وشكّلت معاً مساراً شاحباً في الغابة. لحق بها كاو عبر أوراق النباتات المحدثة حفيفاً. كانت الأرض ناعمة ومليئة بالطحالب والعشب والأزهار الصغيرة؛ المكان رائع.

سأل: «ما هذا المكان؟».

قال ميلكي: إنه العالم في شكله الصادق قبل تأسيس مدينة بلاكستون.

سأل كاو: «لكن أين الجميع؟ إذا كان هذا هو البعد الآخر، فأين الذين انتقلوا إليه؟».

قال ميلكي: إنهم موجودون حولك. بعد فترة من الوقت، تصبح أرواحهم جزءاً من الغابة؛ تماماً مثلما تتحلل الجثة في عالمك.

قال كاو: «ولكن، ليس الجميع. ليس الرجل الدوّام».

قال ميلكي: في النهاية، يختفي الجميع. لكن هناك بعض الكائنات التي تستغرق وقتاً أطول من غيرها؛ تلك التي تحتفظ برابط عاطفي قوي مع عالمك: كراهية، حب، توق. حتى إن بعضها يصبح أقوى لبعض الوقت؛ إذا كانت رغبتها شديدة كفاية. انظر عن كثب وستتمكن من رؤيتها.

نظر كاو حوله في الظلام، حيث ابتلعت العتمة الأشجار المنكمشة. استطاع رؤية أشكال تطفو وتطير بين الجذوع. لكن كل واحد منها ظهر هنيهة فقط قبل أن يختفي مجدداً. أحسّ بعدم الارتياح وبألم الحزن في قلبه.

توقف رتل الغربان أمام قاعدة شجرة عملاقة، جثمت طيور

عـدة علـى جذورهـا المكشـوفة. ثمة شـيء مألـوف في الأشـكال في اللحاء...

قال كاو: «إنها شجرتي من الحديقة العامة. ماذا تفعل هنا؟».

قال ميلكي: عالم البعد الآخر يعكس عالمنا، وأحياناً بطرائق غير متوقعة.

لحقت عينا كاو بالجـذع صعوداً إلى الأعلى، وشـاهد عشـه بين الأغصان في الأعلى. خفق قلبـه فجأة بقوة كبيرة، ثم أحـسّ بثقل كبير فيه.

تمدد للإمساك بالدعامات المألوفة، لكن نعيق ميلكي جعله ينظر حوله.

قال: علينا الذهاب. تذكَّر سبب مجيئنا إلى هنا.

قطّـب كاو جبينه، وأحسّ بتشـويش فـي تفكيره فيمـا كافح لفهم كلمات الغـراب. تذكر بغمـوض أن الوصول إلى هنـا كان صعباً جداً، لكنه لم يعرف السبب. قال كاو: «عليّ إلقاء نظرة. لن أتأخر».

قال ميلكي: يسهل الضياع في البعد الآخر.

قال كاو: «أحتاج إلـى دقيقتين فقـط. أوصلتني الغربـان إلى هنا. تذكر ذلك».

لم يقل ميلكي أي شيء.

تسلق كاو بسـرعة، وشـعر بالقوة أكثر من أي وقت مضى. أحسّ أن العش يجذبـه إلى الأعلى، ويشـدّه صوبه أكثر فأكثـر. تاق للوصول إليه أكثر مـن أي وقـت مضى. أصبحـت الغربـان أصغـر فأصغر على الأرض تحتـه، مثل كرات ثلـج متناثرة على العشـب الأخضر. وعندما وصل إلى الباب الأفقـي، وضع يده على البلاسـتيك، وأدرك أن شـيئاً في الداخل ينتظره؛ شيئاً مهماً.

لم يشعر بالخوف وهو يدفع رأسه عبر الباب الأفقي.

انحبست أنفاسه في حنجرته، وبدا أن الوقت قد توقف. ثمة طاولة منخفضة مع ثلاثة أكواب ساخنة وقالب حلوى على طبق متشقق، مع بضع شرائح ناقصة منه. لكن الشخصين الجالسين إلى جانبي الطاولة هما اللذان لفتا انتباه كاو.

قال والده وقد تجعدت عيناه عند زاويتيهما: «مرحباً بنيّ».

قالت أمه: «جاك! ها أنت هنا أخيراً! اشتقنا إليك كثيراً». وارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتيها.

امتلأت عينا كاو فجأة بدموع ساخنة. «ماما؟ بابا؟».

قال والده: «أرجوك ادخل. انضمّ إلينا».

كانا فعلاً هنا، قريبين جداً منه حيث بإمكانه لمسهما، وكانا مسترخيين ويرتديان الملابس نفسها كما في كابوسه - ارتدت أمه الفستان الأسود، فيما ارتدى والده السروال المخملي والقميص المفتوح. رائحتهما المريحة والمألوفة ملأت العش.

لكن كاو تردد. فجأة، عاد إليه الغضب القديم الذي بقي مدفوناً داخله لوقت طويل جداً. كيف يجرؤان على التصرف كما لو أن شيئاً لم يحصل، وكما لو أنهما كانا ينتظرانه طوال ذلك الوقت؟

قال: «لقد تخليتما عني، تخلّيتما عني. كان عمري خمسة أعوام فقط لكنكما أرسلتماني بعيداً!».

تشارك والداه نظرة ألم في ما بينهما، كما لو أنهما توقعا ردة الفعل هذه. أخذت أمه نفساً عميقاً، ثم نظرت إليه بعينيها الدائريتين والداكنتين، وثبّتت نظرها على عينيه الدامعتين وقالت: «صدّقني، كانت تلك اللحظة هي الأكثر إيلاماً في حياتنا. ألم خسارتنا ابننا كان أسوأ من كل ما حصل لاحقاً».

قال والده: «لم يكن لدينا أي خيار جاك».

قال كاو: «بلى. جعلتماني أظن أنكما لا تباليان. كان يجدر بكما إخباري».

قالت أمه بصوت قويّ ذكّر كاو بصوت فيلما ستريكهام: «أنخبرك أننا على وشك التعرض للقتل فيما أنت في الخامسة من عمرك؟! فكر جيداً جاك، هل كنت سترغب في أن تعرف ذلك أثناء نموك؟ هل كان ذلك سيساعدك؟».

نظر كاو إلى الأسفل تائهاً في أفكاره وقال: «كان ذلك أفضل من عدم معرفة أي شيء على الإطلاق». لكن، فيما غادرت الكلمات فمه، أدرك أنها غير صحيحة ربما.

قالت أمه: «عرفتُ أن الغربان ستعتني بك. آخر شيء طلبته منها هو ألا تخبرك أبداً بما حصل. خشيتُ أن تحاول العثور على الرجل الدوّام».

قال والده: «أردناك فقط أن تكون بأمان. أملنا ودعونا كثيراً كي تنسى ذات يوم».

أجاب كاو: «حسناً، لم أنسَ». كيف يمكن لأي كان أن ينسى كيف حملته الغربان بعيداً عن نافذة غرفة نومه؟ «حلمت بذلك كل ليلة».

قالت أمه: «نحن آسفان جداً جاك. أنت لا تستحق ذلك».

نزلت دمعة واحدة من عين أمه، ولان قلب كاو. لقد فهم الأمر الآن. قرارهما بإرساله بعيداً لم يفسد حياته فقط، وإنما أفسد أيضاً حياتيهما.

اختفى غضبه وتركه فارغاً. لقد انتهى الماضي، ولديه الآن فرصة للتحدث إلى والديه اللذين خسرهما سابقاً. دخل العش ببطء وقال:

«يمكننا أن نكون معاً الآن. عائلة مجدداً».

حطّ ميلكي على زاوية العش وقال له: جئنا إلى هنا لسبب معين، أتذكر؟

وجّه كاو نظرة انزعاج إلى الغراب الأبيض العجوز. عمّ يتحدث؟

قال: «اتركني مع والدَيَّ». تمدد للإمساك بأحد الأكواب الخزفية، لكن أمه حالت دون ذلك؛ إذ عبرت يدها في يده مثل ملمس الحرير الأكثر نعومة.

قالت وهي تمسح الدموع عن وجهها: «ميلكي محق يا جاك. هذا العالم ليس موطنك».

قال كاو: «لِمَ لا؟ أحببت المكان هنا».

قال والده: «ما زال لديك الكثير لفعله في عالمك الحقيقي. صديقتك ليديا تحتاج إليك».

قال كاو: «ليديا؟». هذا الاسم يعني شيئاً، لكنه لا يعرف ماذا بالضبط.

قالت والدة كاو: «الرجل الدوّام يحتجزها، وأنت فرصتها الوحيدة». انحنت نحوه، ووضعت يدها على وجنته وقالت: «أتذكر؟».

عند إحساسه بلمستها الدقيقة، تحرر دماغه من الضبابية المسيطرة عليه وقال: «ليديا! طبعاً! كيف نسيتها!؟».

ترك وجنته ترتاح على راحة يد أمه، لكنه لم يشعر بأي شيء. وعندما نظر إليها بتمعّن أكبر، لاحظ أنها ليست موجودة فعلاً، ولا والده. كان جسماهما مثل الضباب المتلاشي والذي لا يمكن لمسه. هبّة رياح قوية وسيختفيان معاً. هل هذا ما قاله ميلكي؟ إن أولئك الذين يملكون رابطاً عاطفياً قوياً مع عالمه يحتاجون إلى وقت أطول

للاختفاء. هل هذا ما أبقى والديه هنا؛ ارتباطهما به؟ وإحساسهما بالذنب لتركه وحيداً؟

كان والداه يبتسمان له بشيء من الحزن. وهمس والده: «نحن فخوران بك جداً جاك».

فيما تمتمت أمه: «ربما لم نكن معك دوماً، لكنك ستبقى دوماً ابننا».

عرف كاو ما يجدر به قوله. عليك إفلاتهما.

قال: «أنا أحبكما... وأسامحكما».

اختفى الحزن تماماً من ابتسامتي والديه، واختفيا بدورهما بلمح البصر.

حبس كاو دموعه، وهمس للعش الفارغ: «إلى اللقاء».

وفيما نزل عن الشجرة، لاحظ أن الهواء أصبح أكثر برودة ممّا كان عليه من قبل، وأن السماء باتت تتحول إلى الشفق. لكن، لم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي تبدّل. فقد اختفى أيضاً اخضرار الغابة، وحلّت مكانه ألوان الخريف؛ ألوان برتقالية وقرمزية محروقة وبنية. بدأت أولى الأوراق تتساقط فيما وصل إلى قاعدة الشجرة. لقد تبدّل الموسم خلال دقائق معدودة، واختفت كل الغربان؛ كلها باستثناء ميلكي. بدت الغابة مهجورة من دونها.

قال كاو: «أين هي؟».

قال ميلكي: لا يمكنك التحكم في الغربان هنا. إلا إذا أرادت هي ذلك. نظر الغراب العجوز إلى كاو، وبدا خنوعاً قليلاً.

«ما الأمر؟».

انتفض ميلكي كما لو أنه محرج، ونظر بعيداً. تلك الغربان الأخرى هي صديقتي يا خارق الغربان. أنا الوحيد الذي بقيت مع

والديك عندما جاء الرجل الدوّام إليهما. كاد البعد الآخر أن يناديني. وربما كان يجدر به ذلك.

تذكر كاو الغراب الذي رآه في كابوسه، الغراب الذي حاول حماية والديه، وكان مطموراً بالعناكب. لم يتعرف إلى ميلكي؛ ميلكي صاحب الريش الأسود حينها. قال: «لقد كنت رفيقاً مخلصاً طوال الوقت. عندما ينتهي كل هذا، ومهما كانت النهاية، يجدر بك البقاء هنا».

قال ميلكي وهو يحني منقاره: شكراً. والآن، هل أنت مستعد؟

وضع كاو يده على اللحاء الخشن لشجرته، وأحسّ بطاقة والديه تتغلغل في أطراف أصابعه، بعد أن أصبحا الآن جزءاً من الغابة في هذا العالم، وينعمان بالسلام.

قالا: نحن فخوران بك.

لن يخذلهما.

قال: «أنا مستعد. فلنعثر على الرجل الدوّام».

الفصل التاسع عشر

كانت الأوراق تتساقط بسرعة من الأشجار فيما اجتاز كاو الغابة، وسرعان ما أصبح يدوس على سجادة بنية اللون. بدل التحليق إلى الأمام، كان ميلكي جاثماً على كتف كاو، فيما مشى هذا الأخير بين الجذوع الضخمة. لا يحتاج كاو إلى الغربان لإرشاده الآن؛ إذ بدت قدماه وكأنهما تعرفان الطريق.

سأل كاو: «هل أنت خائف؟».

قال ميلكي: وحده الأحمق لا يخاف مما ينتظرنا.

بعد فترة وجيزة، أصبحت الأشجار عارية تماماً، وجذوعها ملتوية وسوداء وذاوية. ارتفعت أشكالها الشبيهة بالهيكل العظمي من الأرض، وتشبثت بسماء الليل اللامتناهية والخالية من النجوم. وتحوّلت الأوراق المتساقطة إلى مهاد كريه الرائحة علق في قدمي كاو.

هبّت الرياح الباردة عبر الأشجار مثل همس خافت ألحّ عليه للالتفاف والعودة، والركض فيما الفرصة لا تزال متاحة. دغدغت الرياح بشرته، وأحكمت قبضتها حول قلبه، وعصرته مثل قبضة باردة. إلا أنه تجاهل تحذيراتها.

علق نفَس كاو في حنجرته عندما رأى شكلاً يظهر بين جذعين. إنه جاوبون. قسماته الضخمة رمادية مثل الرماد، ومغطاة بالندوب؛

آثار إصاباته في العالم الحقيقي. كانت ابتسامته على شكل فتحة غير سعيدة في وجهه الموشوم، لكن عينيه كانتا مريعتين أكثر من أي وقت مضى؛ إذ بدتا كنقطتين صغيرتين سوداوين في قزحيتين شاحبتين مثل الجليد.

قال ميلكي: لا تخف. إنه ضعيف جداً وغير قادر على إيذائك في هذا المكان.

زاد كاو من عزيمته، ومشى مباشرة صوب خارق الكلاب. لمعت عينا جاوبون وقال: «مرحباً يا خارق الغربان».

قال كاو: «أنا أبحث عن الرجل الدوّام».

قهقه جاوبون واستدار، ومدّ يده ليظهر له الطريق. «إنه يتحرق شوقاً لرؤيتك».

وفيما مشيا جنباً إلى جنب، أحسّ كاو بكائنات أخرى تتحرك في العتمة بين الأشجار، وتلحق بهما. شاهد أشكالاً مبهمة وأحسّ بالكراهية في نظراتها.

قال ميلكي: أتباع الرجل الدوّام. أولئك الذين ماتوا في الصيف المشؤوم.

قال جاوبون: «تبدو خائفاً أيها الصبي. أي نوع من الخارقين أنت فيما تملك غراباً واحداً فقط ليحميك؟».

أجاب كاو: «واحد أقوى من كل كلابك».

تجمّد وجه جاوبون وقال: «أتظن أنك شجاع بقدومك إلى هنا؟ لقد ارتكبت خطأ يا خارق الغربان. سيجعلك الرجل الدوّام تسيطر على منقار الغراب، وسيعود في النهاية إلى العالم الحقيقي».

قال كاو محاولاً أن يبدو واثقاً من نفسه: «إلا إذا منعته». عرف تماماً مخاطر المجيء إلى هنا، لكن سماع تهديدات جاوبون جعل

الأمر أسوأ بعشر مرات.

قهقه جاوبون. «كنت طفلاً خلال الصيف المشؤوم، أما أنا فكنت هناك. رأيت العديد من أمثالك يموتون عالقين في شباكه. وكان كل واحد منهم خارق حيوانات أعظم منك. لا يملك الرجل الدوّام أية رحمة».

قال كاو: «لا أتوقع أية رحمة. جئت لإعادة صديقتي».

قال جاوبون: «الفتاة خارقة الثعالب؟! أوه، لقد أصبحت بسرعة محببة لدى سيدي. لن يطلق سراحها».

قال كاو: «إذاً، سأحاربه».

أجاب جاوبون: «وسوف نشاهد. أتمنى أن يسمع والداك صراخك حين يملأ هذا المكان».

شاهد كاو ضوءاً خافتاً إلى الأمام بين الأشجار.

قال جاوبون ووجهه مليء بالرعب: «لقد وصلنا». وتوقف في مكانه فيما تابع كاو المشي بمفرده.

تضاءلت الأشجار على الجانبين لتكشف عن مساحة خالية في الغابة. كان الضوء صادراً من شبكة معقدة من خيوط سميكة مضيئة ممتدة من الأغصان المحيطة، التقت ببعضها في الوسط لتشكّل شبكة عنكبوت.

ثبّت كاو ساقيه، وأمرهما بعدم الارتجاف. على مقعد الخيوط الحريرية المتشابكة جلس الرجل الذي رآه في كابوسه وارتدى من عنقه إلى قدميه رداء أسود ملتفاً بإحكام حول جسمه. لم تظهر إلا بشرة يديه ووجهه، وكانت بيضاء وممددة جداً فوق هيكله العظمي، حيث استطاع كاو رؤية كل مفصل وعقدة في أصابعه الطويلة، وكل عظمة من عظام وجهه. كانت أظافره السوداء مثل المخالب.

وقد وضع في إحدى أصابعه الخاتم الذهبي الضخم الذي حُفرت عليه صورة العنكبوت. وفي اليد الأخرى، حمل منقار الغراب مثل الصولجان. كان أكبر سناً مما بدا في كابوسه، وملأت الندوب وجهه الذي يذكر كاو أنه كان ناعماً. وثمة خطوط بيضاء في خصلات شعره الأسود. في عالم الظلمة هذا، بدا قوياً وحقيقياً أكثر من أي شيء آخر حوله.

قال الرجل الدوّام: «مرحباً جاك. كنت أنتظرك». بدا صوته ناعماً وبارداً.

سأل كاو: «أين ليديا؟». ومال الخوف والغضب إلى السيطرة عليه، لكن كلماته كانت صارمة.

أجاب الرجل الدوّام: «الصبر. لقد انتظرت ثمانية أعوام كاملة هذا اليوم. ثمانية أعوام في هذا المكان، وبصحبة هذه الظلال الحزينة والمقرفة؛ محاولاً استجماع القوة لعودتي. لا بدّ أنك أحسست بذلك، حتى في عالمك. جاوبون أحسّ بذلك. وكذلك مامبا وسكاتل. أتساءل يا كاو، هل حلمت بي؟».

أجاب كاو: «ستبقى هنا إلى أن تتحول إلى عدم! أين صديقتي؟».

ابتسم الرجل الدوّام، فاختفت صورة الابتسامة البيضاء الساحرة التي كانت عالقة في ذهن كاو؛ إذ كانت أسنانه سوداء ومستدقة.

قال: «تشبه أمك كثيراً. لكنها اختنقت خوفاً عندما ماتت».

قال كاو: «اصمت! لا تتحدث عن أمي!».

لوّح الرجل الدوّام بيده الطويلة وقال: «أنت محق جاك. الماضي يبقى ماضياً. المستقبل هو المهم الآن. فلنتحدث عن المسألة التي تهمنا».

تمدد للإمساك بخيط من شبكة العنكبوت واقتلعه. ارتجف

خيط الحرير على طوله، ولحقت بـه عينا كاو. وصل الخيط إلى غصن شـجرة، حيث تدلت شـرنقة بيضاء سـميكة. شـهق كاو مذعوراً عندما شاهد جسماً عالقاً داخل الشرنقة. كان وجه ليديا مرئياً عبر طبقة رقيقة من الحرير، وكانت عيناها مفتوحتين ومليئتين بالخوف.

صرخ كاو: «ليديا!».

ارتجفت الشرنقة الشبكية فيما تحركت.

قال الرجل الدوّام: «يا لهـا من مفاجأة! ابنة المرأة التي أرسـلتني إلى هذا المكان. تسـتطيع عناكبي جعلها تعاني كثيراً». وابتسـم بمكر. «حتى في هذا العالم، توجد دوماً معاناة».

قال كاو: «اتركها وشأنها!».

قال الرجل الدوّام: «طبعاً». وانحنى إلى الأمام وهمس: «بشـرط واحد». عرف كاو الشـرط قبل أن ينطق الرجل الدوّام بالكلمات. «عُد بي إلى العالم الحقيقي».

قال كاو: «أبداً».

أجاب الرجل الدوّام: «تبدو واثقاً جداً. ماذا لو أقنعتك؟».

سـمع كاو صوت طقطقة ونظر إلـى الجانب. كانـت أرض الغابة تتحرك عنـد طرفهـا. ارتعد خوفاً حيـن أدرك طبيعـة ما ينظر إليـه. إنها عناكب بيضاء من كل الأحجام والأشـكال تتحرك صوبه، وتقترب منه أكثر فأكثر. وثمة عناكـب أخرى قفزت على خيوط الشـبكة العنكبوتية وزحفت في اتجاه ليديا.

«تملك خيارين، جاك كارميكايل. إما أن تقطع الحجاب الفاصل وتعيدنا؛ أنت وأنا والفتاة، أو نبقى هنا، وتعيشان كلاكما العذاب طوال الدهر».

طوّقت العناكب شرنقة ليديا.

وقال الرجل الدوّام فيما زحف عنكبوت على البشرة المكشوفة من وجه ليديا: «لقد انتظرت ثمانية أعوام. أنا الآن أقوى أكثر من أي وقت مضى، ولن أنتظر أكثر».

ركّز كاو على صديقته، محاولاً إبقاء عينيه بعيدتين عن الوجه الشاحب للرجل الدوّام. ماذا كانت أمه ستفعل؟ لقد ضحّت بحياتها لإنقاذ حياة كاو. لكن، هل كانت ستسمح بتعذيب ليديا بهدف إنقاذ العالم الحقيقي؟ أم إنها ستجازف وتسمح بعودة الرجل الدوّام؟

فكّر كاو في السيدة ستريكهام، وكرامب، وبيب، وفيليكس كوايكر. فكّر في الخارقين القلائل الذين جاءوا للاستماع إلى توسلاته للمساعدة، لكنهم تركوه ورحلوا. لن يجازفوا أبداً بعودة الرجل الدوّام. سوف تسود أوقات الظلم مجدداً، وسيعود الدم للتدفق في بلاك واتر ولتلطيخ الشوارع. ستهلك بلاكستون نتيجة لذلك.

ألقى نظرة سريعة على ليديا. قد يكون هذا الثمن يستحق العناء. لا، إنها لا تستحق أياً من هذا.

لكن، ثمة طريقة أخرى ربما. خطرت فكرة في باله، وكافح لعدم تشتتها.

قال بهدوء: «سأفعل ذلك».

أجاب ميلكي: كاو، لا!

ابتسم الرجل الدوّام ووضع منقار الغراب على الأرض. وضعه برفق على ظهور العناكب التي حملته صوب قدمي كاو. انحنى كاو لرفعه إلى الأعلى. كان السيف خفيفاً في يده.

قال ميلكي: إذا قطعت الحجاب الفاصل، فسيضيع كل شيء. سيعيد الرجل الدوّام الذعر إلى العالم الحقيقي.

قال الرجل الدوّام: «اقطعني بالسيف الآن وسوف تشعر صديقتك بلدغات عناكبي بلمح البصر. ستعاني من الألم أكثر مما يفوق التصور، فيما أنت تراقبها».

قال كاو: «أنا آسف ميلكي. لا أملك أي خيار».

قال الرجل الدوّام: «هيا، افعل ذلك!».

أغمض كاو عينيه، وتحدث إلى ميلكي بعقله بدل صوته. قلت إني لا أستطيع التحكم في الغربان هنا، لكنها ستصغي إليك. أحتاج إليها الآن.

أحسّ كاو بضغط خفيف على كتفه فيما طار ميلكي. من دون كلمة وداع، اختفى الغراب الأبيض في العتمة بين الأشجار.

قال الرجل الدوّام: «هه، حتى صديقك القديم تخلى عنك. والآن، اقطع الحجاب».

رفع كاو منقار الغراب، وامتدّت قوته على طول ذراعه. أحسّ بالحجاب الفاصل بين البعدين ينجذب صوب سيفه فيما نظر إلى ليديا. كانت تهزّ رأسها، فيما عنكبوت يقف قرب وجنتها. لحقت عينا كاو بالخيط الذي يربطها. شدّ قبضته على مقبض السيف، وأحسّ بقلبه يخفق بسرعة أكبر.

وثب في الهواء، وقفز جانبياً، وأنزل السيف على خيط الحرير فقطعه بضربة واحدة.

زمجر الرجل الدوّام بعينين مصدومتين: «لا!». وقبل أن يستطيع التحرك، انهار ما كان متوازناً بدقة بواسطة الشبكة، وغطاه بالخيوط المتشابكة. في الوقت نفسه، انهارت شرنقة ليديا، ووقعت على الأرض ودفعت العناكب بعيداً في كل الاتجاهات. ركض كاو صوبها، وداس على الأجسام الصغيرة. مزّق الشبكة العنكبوتية عن وجهها، ثم

نزع المزيد من الخيوط عن القسم العلوي من جسمها.

صرخت: «كاو، انتبه!».

استدار فيما زحفت العناكب على جسمه وذراعيه، وبدأت تلدغه وتجعله يتلوى ويصرخ. ووقع منقار الغراب من يده.

صرخ الرجل الدوّام وهو يقف على قدميه: «لقد حذّرتك».

انهار كاو أرضاً، فيما غطت العناكب كاحليه وساقيه. لقد أصبح كابوسه حقيقة - مصير والديه ينتظره - وكلما انغرزت أنياب العناكب في جلده، أحسّ بالسم يدخل دمه.

بدأت الغابة تدور حوله، ورأى بشكل متقطع وجه ليديا، والرجل الدوّام، والأشجار في زوايا غريبة. وقع على الأرض، وملأ رأسه صراخ ليديا الذي امتزج مع بكائه اليائس. كان الأمر مريعاً أكثر من أي شيء حلم به. أحسّ بالعناكب تسير على شعره، وتحاول الزحف إلى داخل فمه ومنخريه وأذنيه. حاول إبعادها عنه، لكنه كلما فعل ذلك، غطى المزيد منها جسمه، وازداد ضعفه كل ثانية. حاولت العناكب فتح عينيه المطبقتين، وعرف أنه لن يتمكن من منعها لوقت طويل. وأحسّ بضباب أبيض يغشي عينيه.

ثم داعب شيء ما بشرته.

إنها ريشة.

وبعدها ريشة أخرى.

صرخ الرجل الدوّام: «ماذا؟!».

بدأ كاو يحسّ بضربات خفيفة على كل جسمه. والنعيق الذي ترافق معها كان أروع ما سمعه في حياته. إنه نعيق الغربان.

فتح عينيه، ولم يرَ سوى أشكال مغطاة بالريش الأبيض تحلّق فوق جسمه مع مناقير منقضّة، فيما هجمت الغربان على العناكب

ومزّقتها إرباً ورمتها بعيداً. نجح في الوقوف والتحرك جانبياً، فارتطم بليديا. لا تزال خيوط سميكة من الحرير تتدلى من جسمها، لكنها أصبحت طليقة. شكّلت الغربان دائرة حولهما، وانقضّت على كل العناكب التي اقتربت منهما.

وقف الرجل الدوّام قبالتهما وقال: «لا بأس بالنسبة إلى مبتدئ. لكن، هل يمكنك فعل هذا؟».

لمع برق في السماء، تلاه رعد قوي جداً، حيث اهتزت الأشجار. انشطرت الأغصان وتصدعت، فيما ركع الرجل الدوّام على ركبتيه وهو يصرخ عالياً. تلوّى جسمه تحت ردائه الداكن، وأحسّ كاو بليديا تشدّ على ذراعه وتسحبه إلى الخلف قائلة: «علينا الهروب! أين منقار الغراب؟».

لكن كاو لم يبعد عينيه عن المنظر المريع أمامه. كانت ذراعا الرجل الدوّام وساقاه تتمدد تحت ملابسه لتصبح أرفع. وظهرت أوردة سوداء تحت بشرته الشاحبة، ثم انفجرت ونشرت اللون الأسود في كل جلده. ظهرت طبقة ناعمة من الفرو على أصابعه التي التحمت ببعضها لتصبح على شكل رِجل شبيهة بالمغدف. كانت عظام جسمه تنسحق معاً وتتخذ أشكالاً جديدة وغريبة. وضاق خصره، فيما انتفخ القسم العلوي من جسمه.

على ظهره وجانبيه تمزق الرداء، فيما ظهرت أربع أرجل إضافية على كل جانب من عموده الفقري، وتمددت حتى وصلت إلى الأرض. وعندما لامست الأرجل أرض الغابة، ارتفع رأس الرجل الدوّام إلى الأعلى، وأصبح وجهه أكبر وأطول فيما تبدّل شكل عظام جمجمته. تناثر شعره على شكل كتل حول أرجله الأمامية، فيما انفتح فكّاه بشكل واسع. اندفعت سنان إلى الأمام على شكل

نابين مستدقين، ثم انشطرت وجنتاه للكشف عن عينين إضافيتين، ومن ثم أربع، وبعدها ست. وعندما انتهى التحول، تحركت ثماني عيون سوداء لتنظر إلى كاو بعد أن انطلقت من الفرو الداكن في رأس العنكبوت. إنه عنكبوت عملاق وطويل بقدر كاو نفسه.

كانت ليديا تتحرك عبثاً داخل كتلة من الشباك العنكبوتية على الأرض وهي تقول: «لا بد أنه هنا في مكان ما».

قال العنكبوت العملاق بصوت الرجل الدوّام: «ما رأيك يا خارق الغربان؟».

وقبل أن يتمكن كاو من الإجابة، ظهر سيل من العناكب خلف العنكبوت العملاق الذي كان سيدها. تدفقت في الغابة، وزحفت على الغربان، فاندفعت الطيور جانباً وصرخت ألماً.

صرخ ميلكي من مكان ما تحت كتلة الريش المتشابكة: «اهرب كاو!».

استدار كاو وأمسك بيد ليديا التي صرخت: «انتظر! ماذا عن منقار الغراب؟».

جرّها خلفه، وخرجا من عمق الغابة. لم يكن يعرف إلى أين يذهب، وإنما يعرف فقط أن البقاء في ذلك المكان مع ذلك الشيء خطأ مريع. وفيما ركضا بين الأشجار، ابتعدت الظلال عن مسارهما. أحسّ بالألم حتى مرّ بها وأصواتها تلحق به: اركض أيها الإنسان! إنه يلحق بك!

نظر كاو إلى الخلف وأدرك أنها محقة. ارتطمت أرجل العنكبوت العملاق بالأرض، ثم ارتطمت بشجرة، فاهتزّ الجذع، وتلوّت أغصانها السفلية.

قال العنكبوت العملاق: «لا يمكنك الفرار مني».

طارت قدما كاو فوق الأرض في خطوات طويلة، ولحقت به ليديا. لا يوجد شيء أمامهما باستثناء أشجار تالفة، وغابة مظلمة لامتناهية.

قالت ليديا: «يجدر بنا الانتقال إلى العالم الحقيقي!». وأفلتت يدها من قبضته، ثم انعطفت إلى اليسار. ركض كاو مباشرة إلى الأمام، فيما النَفَس الذي مزّق رئتيه كان مشحوناً بالخوف. نظر حوله باحثاً عن غربانه، لكن الأغصان الميتة كانت فارغة. وعندما بحث عن ليديا مجدداً، كانت قد اختفت أيضاً.

ارتطم بجذع شجرة، وكاد يقع، لكنه سيطر على توازنه. اختبأ وراء جذع الشجرة، وضغط بظهره على لحائها، وحاول أن يبقى من دون حراك.

بدا صوت الرجل الدوّام بعيداً عندما كسر الصمت.

قال: «إنها مملكتي جاك. وأنا أسيطر عليها حسب مشيئتي. لا جدوى من الهروب؛ لأن كل الطرقات تؤدي إليّ».

حبس كاو أنفاسه، لكن قلبه خفق في صدره بقوة وبشكل مؤلم.

قال الرجل الدوّام وقد أصبح أكثر قرباً منه الآن: «أستطيع شمّ رائحة خوفك أيها الصغير».

تساءل كاو عمّا إذا كان يجدر به الهروب بسرعة. كلما أبعد الرجل الدوّام عن غابته، امتلك المزيد من الوقت لإنقاذ ليديا. لكنه أحسّ أنه مشلول؛ كما لو أن قدميه منغرزتان في الأرض مثل جذور الأشجار حوله. تحرّك ظلّ طويل إلى يساره، ومن طريقة تقوّسه عرف أنه ظلّ رجل عنكبوت. ثم ظهرت الرِّجل على مسافة أقدام قليلة، وكانت تتحرك بخفة. كان الهواء بارداً، لذا أجبر جسمه على التحرك والركض.

صرخ الصوت: «ها أنت إذاً».

بدت قدما كاو وكأنهما معوّقتان، ووقع على الأرض. ارتطم وجهه بالوحل، ودخل بعضه فمه. تدحرج كاو على ظهره، وأدرك أن ساقيه ملتصقتان ببعضهما بنوع من مادة لزجة. جعله الرعب منقطع الأنفاس؛ إنها شبكة عنكبوت. أقحم الرجل العنكبوت جسمه بين الأشجار.

«لن تذهب إلى أي مكان يا خارق الغربان».

مزّق كاو الشبكة بيديه المغطاتين بالمادة اللزجة، ونجح في تحرير إحدى قدميه. حاول الوقوف منتصباً، لكن العنكبوت الأسود العملاق قوّس ظهره، وخرج خيط جديد من الحرير من شيء ناتئ في قاعدة بطنه. التفت تلك المادة اللزجة حول كاحلي كاو، وجعلته يقع أرضاً مجدداً.

أحسّ بجسمه يُجرّ على الأرض، فيما سحبه الرجل الدوّام صوب الغابة القاحلة. ارتطمت الجذور العملاقة بظهره، لكن العنكبوت العملاق سحبه من دون أي عناء.

تدحرج كاو على الأرض، وحاول إبطاء تقدّمه بيديه. لكن، ما من شيء ليتشبث به. ارتطمت ضلوعه بإحدى الأشجار فصرخ متألماً. رفع ذراعيه للحؤول دون حصول ارتطام آخر، ونجح في الإمساك بجذع شجرة، فحاول تحرير نفسه من الشبكة. أحس بأظافره تنغرز في اللحاء، ثم شعر بألم كبير فيما اقتلع أحد أظافره.

انزلق مجدداً على أرض الغابة القاحلة وهو يشعر بالعجز؛ حيث الغربان البيضاء لا تزال تناضل في وجه انقضاض العناكب. عندما أصبح ظل الرجل الدوّام فوقه، استدار كاو وشاهد الوجه المشوّه لعدوه على مسافة إنشات قليلة فقط من وجهه. انغرزت رجلان في

الأرض على جانبي رأسه، وتحركت القطع السوداء لجسم العنكبوت صعوداً ونزولاً.

حاول التنفس بعمق للحفاظ على هدوئه. أغمض عينيه، وعرف أنه قد لا يملك أية فرصة جدية للنجاة. إنه ليس مستعداً للنهاية بعد.

صرخت ليديا: «اتركه، أنا أملك منقار الغراب».

برم كاو عنقه، فرأى ليديا تقف قربه وهي تحمل السيف في يدها.

لماذا عادت؟ لماذا لم تهرب؟ عليه أن يفعل شيئاً. يملك فقط فرصة واحدة.

فجأة، تراكمت القوة داخل كاو مثل الماء المتدفق وراء السدّ. وأحسّ برياح تعصف داخله وتحرّك أطراف سترته الممزقة. أطلق تلك الرياح، وأطلق أوامره في الوقت نفسه. أحسّ بها تنتشر في الغابة القاحلة وما بعدها. نادى كل غراب موجود في الغابة.

ضحك الرجل الدوّام، وأحسّ كاو بالسائل الأبيض يدغدغ عنقه.

قال الرجل العنكبوت: «لقد انتهى زمن المقايضات أيتها الفتاة الصغيرة. سأحصل على ما أريده في النهاية، لكن عليه أولاً أن يدفع ثمن وقاحته. وعندما أنتهي، سيتوسّل إليّ لأسمح له باستخدام منقار الغراب. ولا تقلقي أيتها الصغيرة، سيأتي دورك بعده!».

صرخ كاو في عقله: تعالي إليّ أرجوكِ! أحتاج إليكِ. وصلت رسالته إلى كل واحد من الغربان. لقد منحته نفسها، وأحسّ بقوة أجنحتها الخافقة وغضب مناقيرها المنقضة التي كادت تدمره أيضاً. لكن القوة قوته. بدا وكأن وعيه قد تحرر من القيود في عقله أيضاً. أصبح مكان الغربان، وأصبحت الغربان مكانه. شاهد الغابة الداكنة تحت الخفقان الجماعي للأجنحة، وشاهد الغابة القاحلة والشكل ثمانيّ الأرجل في وسطها.

قال الرجل الدوّام: «هل أنت جاهز للمعاناة؟».

فتح كاو عينيه، ورأى فكي الرجل الدوّام مفتوحين فوق وجهه. خلفه، امتلأت السماء البيضاء بآلاف الغربان.

قال كاو: «الآن!».

هبط الغربان دفعة واحدة.

الفصل العشرون

اتسعت الأعين الثماني للرجل الدوّام حين انقضّت الغربان على أرجله وظهره. لا بدّ أن أحد الغربان قد قطع الخيط الذي كان يثبّت كاو في مكانه؛ لأن كاحليه تحررا فجأة. تدحرج للابتعاد عن البطن الأسود، فيما اهتزّت أرجل العنكبوت. جاء المزيد من الغربان التي غرزت مخالبها ومناقيرها في قشرة العنكبوت الجلدية، وقد حفّزها غضب كاو. وفي كل مرة انقضّ فيها غراب على جسم العنكبوت، أحسّ وكأنه يسحق الرجل الدوّام بقبضتي يديه.

صدح في الأجواء مزيج من الأصوات الحيوانية والصراخ الوحشي، وامتلأ الهواء برائحة كريهة، فيما تحلل جسم العنكبوت أمام عيني كاو. كانت الأرجل أول شيء اختفى، وتحوّلت إلى لا شيء، ثم تفسّخ البطن وانهار على نفسه. انتشر سائل أسود مثل النفط المراق تحت الجمجمة المكسورة للعنكبوت. تراجع كاو إلى الخلف، وأحسّ لجزء من الثانية أنه رأى شكل الرجل الدوّام، ببشرته الشاحبة وملابسه الممزقة. كانت ليديا تقف إلى جانبه مشمئزة.

خفت حماسة الغربان، وأصبح هجومها أقل وحشية، فرفع كاو يده. أطاعته الطيور، وحلّقت مبتعدة نحو الأشجار المحيطة، وقد تلطخت أجنحتها باللون الأسود نتيجة المادة السائلة السوداء التي نزفها العنكبوت.

لم يبقَ على الأرض أي شيء؛ باستثناء خاتم ذهبي لماع. حدّق كاو فيه بتعجب، عاجزاً عن التصديق أنه آخر ما تبقى من الوحش الذي واجهه منذ قليل. وبحذر شديد، جلس القرفصاء لرفعه، فوجده بارداً مثل الثلج.

انضمت ليديا إليه وقالت: «هذا لا يصدّق! كيف فعلت هذا؟».

نظر كاو إلى الغربان التي وقفت مثل الحراس في أرجاء الغابة القاحلة، ولمح ميلكي بينها، فقال: «لم أفعل شيئاً، بل هي التي فعلت». وأومأ في اتجاه الطيور.

قالت ليديا: «شكراً لكِ جميعاً!». أطلقت الغربان مجموعة من الأصوات الناعمة، فيما همست ليديا في أذن كاو: «ولكن، خصوصاً لك أنت. لا أصدق أنك جئت من أجلي».

ابتسم كاو بخجل، متمنياً نوعاً ما أن تمرّ اللحظة بسرعة، ومتمنياً في الوقت نفسه أن تستمر إلى الأبد.

أجاب كاو: «هذا لا يقارن بما فعلته أنت؛ القفز عبر الباب الفاصل. عرفتُ أنه توجد طريقة لكي أعود إلى مكاني، بصفتي خارق الغربان. لكن، أنت... جئتِ إلى هنا وأنت تعرفين أنه لا مجال للعودة أبداً».

قضمت ليديا شفتها. «كان هذا تصرّفاً غبياً قليلاً، أليس كذلك؟».

قال كاو: «كان مذهلاً». ثم أضاف مع ابتسامة عريضة: «لكن، لا تفعلي ذلك مجدداً. اتفقنا؟».

حملت ليديا منقار الغراب وقالت: «فلنعد إلى أرضنا».

أخذ كاو السيف المقوّس منها، ثم أومأ برأسه لميلكي. «وداعاً ميلكي».

حنى ميلكي رأسه وقال: وداعاً يا خارق الغربان.

طار الغراب الشاحب، ولحقت به الغربان الأخرى؛ الواحد تلو الآخر، تاركة كاو وليديا بمفردهما.

أحسّ كاو بإرهاق شديد، وكانت أعصابه منهكة، لكنه رفع السيف بإحساس بالنصر. قطع السيف في الهواء، فظهرت فتحة سوداء أمامهما، تؤدي إلى سواد أعمق من أي ليل بلا نجوم. مدّ يده لليديا فأمسكت بها.

قال لها: «هل أنت جاهزة؟».

أومأت برأسها، وقفزا في الفراغ معاً. طوّقت العتمة كاو مع صوت شبيه بالماء المتدفق، وأحسّ فجأة أنه بات عديم الوزن، وكأن روحه قد انفصلت عن جسمه. طاف في العدم، كما لو أنه في حلم، لكنه أحسّ طوال الوقت بليديا إلى جانبه.

ظهر خيط رفيع من الضوء في البعيد، فأسرعا صوبه أكثر فأكثر. أصبح الضوء قوياً جداً، وفتح كاو فمه بهدف الصراخ، لكن لم يخرج أي صوت منه. وفيما طوّق الضوء كل عالمه، سلّم كاو نفسه له وأغمض عينيه.

أحسّ بموجة صدمات تعبر جسمه، وشعر بأرض صلبة تحت قدميه. اندفع إلى الأمام ونظر حوله، وتكيفت عيناه ببطء مع العتمة المحيطة به.

وجد نفسه واقفاً في الطابق السفلي من مصنع الخياطة، ممسكاً بيد ليديا.

توقع كاو الوصول إلى المدفن قرب قبر والديه، فأحسّ الآن بخيبة الأمل. لم يرَ فقط كرامب، وإنما السيدة ستريكهام أيضاً. كانا راكعين على ركبهما، وأيديهما مربوطة خلف ظهريهما، والأفاعي ملتفة حول عنقيهما. وخلفهما وقف كل من سكاتل ومامبا.

قالت المرأة الشريرة: انظروا من هنا! يا للروعة! لم يكن إلقاء القبض على خارقة الثعالب أمراً سهلاً، لكنك أتيت إلينا بنفسك».

قالت السيدة ستريكهام: «ليديا!». وكان معطفها ممزقاً، وبدت مرهقة جداً.

صرخت ليديا: «ماما».

وقعت عينا سكاتل على منقار الغراب، ثم نظر إلى وجه كاو. «أين هو؟ أين الرجل الدوّام؟».

أجاب كاو: «الرجل الدوّام انتهى أمره. لقد تدمر».

اختفى الدم من وجه سكاتل، فيما تجمدت قسمات مامبا وصرخت: «أنت تكذب».

مدّ كاو يده إلى جيبه وسحب الخاتم الذهبي.

قالت ليديا: «إنه يقول الحقيقة. ولذلك من الأفضل أن تستسلما أيضاً».

حدّق سكاتل في الخاتم، واتقدت عيناه غضباً وقال: «سنقتلكم جميعاً». وحرّك رأسه. فجأة، تسلق صرصور ساق كاو، ووصل إلى ذراعه، ونزل إلى يده وعضّه بقوة في لحمه. صرخ كاو متألماً، ووقع الخاتم على الأرض وتدحرج، واختفى في العتمة. حاول نفض الصرصور عنه، لكنه رأى جيشاً من الصراصير الزاحفة من زوايا الغرفة يقترب منه.

أطلقت مامبا هسيساً، وصرخ كل من والدة ليديا وكرامب، فيما التفت الأفاعي بقوة أكبر حول عنقيهما.

ثم رأى كاو شيئاً غريباً. فقد ظهرت فأرتان من تحت الباب. والفئران تعني شيئاً واحداً فقط...

اندفع بيب إلى داخل الغرفة لاهثاً، مع عينين واسعتين، وصرخ:

«اتركاهم وشأنهم!».

ضحك سكاتل، ووجّه نظرة سريعة إلى مامبا. «أوه، أنا خائف الآن».

قال بيب: «يجدر بك ذلك».

صدر صوت طنين كهربائي من مكان ما في الجدران.

تساءلت مامبا وهي تتراجع خطوة إلى الخلف: «ما هذا؟».

فوق السقف، وفي فتحات مكيفات الهواء المعلقة، سُمعت سلسلة من الصدمات. ثمة شيء يتحرك فيها. أصبح الطنين أعلى، وتحول إلى أزيز قوي. وفجأة، أدرك كاو مصدر الصوت.

قال: «انخفضوا».

مدّد نفسه على الأرض، وجعل ليديا تنخفض معه، فيما اندفعت سحابة داكنة من النحل عبر الباب خلف بيب، وهاجمت مامبا وسكاتل. تلويا وأطلقا صيحات ألم، فيما غطت الحشرات بشرة كل منهما.

صرخت مامبا: «ساعدوني!». ونظراً لتشتت سيّدتها، تركت الأفاعي عنقي كرامب وفيلما ستريكهام.

وقع سكاتل على الأرض وتدحرج، ونجح في التخلص من بعض النحلات. تمدد للإمساك بمطفأة حريق متكئة على جدار ووجهها صوب مامبا، فأبعد عنها النحلات بواسطة الرغوة البيضاء. اندفعت موجة من الصراصير على الأرض في كل الاتجاهات، لكن أشكالاً رمادية هبطت من السقف، وحطّت بخفة على الأرض. إنها سناجب! انقضّت على الصراصير بمخالبها وأسنانها، وسحقت الحشرات الصغيرة. انسحب كاو من المعركة، ممسكاً ليديا بيده.

كانت مامبا مغطاة بالرغوة البيضاء، وتلوّح بذراعيها يائسة.

قاتلنا للخير، أتذكر؟ هم الذين قتلوا من دون رحمة».

أخيراً، تراجعت الذئبة إلى الخلف.

قالت فيلما: «فعلتَ الشيء الصحيح. كانت زوجتك ستفتخر بك راكلن».

فجأة، استدار الجميع عند سماعهم أصوات خطوات مفاجئة. وانبعث الضوء من الممر.

صرخ صوت: «تجمدوا في مكانكم. الشرطة!».

قالت فيلما: «اذهبوا. اخرجوا من هنا!».

أمسك آلي بمقبضي الكرسي المتحرك لمادلين ودفعها عبر الغرفة، فيما استدار راكلن ومشت ذئبته قبله. وانتظر خارق الذئاب عند الباب إلى أن خرجت إميلي أيضاً. كان كرامب وبيب آخر المغادرين.

بعدها، انبهرت عينا كاو بالمصابيح الوامضة، ولم يرَ إلا أشكالاً غامضة، بعضها يركض وبعضها الآخر يجلس القرفصاء.

«الشرطة! اركعوا!».

شاهد كاو الأسطوانات المعدنية للمسدسات.

«ارموا أسلحتكم!».

أدرك أنهم يتحدثون إليه، فأوقع منقار الغراب على الأرض، وركع على ركبتيه، ورفع يديه. وفعلت ليديا الشيء نفسه.

قال شرطي: «إنه الصبي من المكتبة!». وبعد قليل، أحسّ كاو بتكبيل يديه خلف ظهره وتثبيتهما بالأغلال المعدنية.

«ابتعدوا!». تعرّف كاو إلى صوت السيد ستريكهام. «ليديا! فيلما! ابتعدوا عنهما. إنهما زوجتي وابنتي!».

«بابا!».

أحسّ كاو بأن أحداً ما يسحبه للوقوف منتصباً. نظر إلى منقار الغراب بتعاسة، لكن لا مجال أبداً لكي يصل إليه.

قال السيد ستريكهام: «ليديا! فيلما! ظننت أنكما... ظننت... شكراً لك يا الله!».

قام شرطيان بمرافقة كاو إلى خارج الغرفة، وصعوداً صوب السلالم. سمع صوت ليديا خلفه. كانت تقول: «بابا، لقد ألقوا القبض على كاو». كان هناك المزيد من رجال الشرطة في الممر أمامه، وسمع أحدهم يصرخ: «... عشرات الثعالب هنا! لم أرَ شيئاً كهذا من قبل».

صرخت ليديا مجدداً: «بابا! إلى أين يأخذونه؟ لقد أنقذني!».

كان كاو نصف مسحوب ونصف مدفوع عبر الغرفة المليئة بآلات الخياطة، ثم خرج عبر الباب، وأصبح في عتمة الليل. رأى على الطريق أربع سيارات شرطة، وعربتين مصفحتين. أحسّ كاو بأغلاله ترتخي في أحد معصميه. وقال أحد رجال الشرطة، وهو يثبّت أغلال اليد الأخرى بدرابزون فولاذي: «ابقَ هنا!». وصدح صوت من جهازه اللاسلكي، فتمتم: «هل قلت نحلاً؟». كاد كاو يبتسم. لقد اختبأ الخارقون الآخرون طوال أعوام عدة، ولن يسمحوا بأن يتم إلقاء القبض عليهم الآن.

بعد قليل، خرج سكاتل ومامبا عبر الباب، وكانا كلاهما مقيدين بالأغلال، ومحاطين برجال شرطة يرتدون ملابس مكافحة الشغب. كان الخارقان صامتين وشاحبين، فيما تمت مرافقتهما إلى عربة مقفلة ودفعهما إلى داخلها.

همس صوت خلفه: «اجمد مكانك ولا تلتفت».

قال كاو: «بيب؟».

«هسس. سأحاول فتح القفل».

وبعد ثـوانٍ قليلـة، اختفـى الضغط عن معصمـي كاو. فبـرم يديه ببطء، ثم استدار. لقد اختفى بيب، وتدلّت الأغلال على الدرابزون.

خرج السـيد والسـيدة سـتريكهام من باب المصنع وليديا بينهما، وعانقوا بعضهـم بعضاً بشـدّة. أحسّ كاو بفـرح كبير لـدى رؤيته هذا المشهد.

قال السـيد سـتريكهام: «حضرة الشـرطي فرانكو، علينا التحدث بشأن الصبي».

أحد رجـال الشـرطة الذيـن رافقـوا كاو مـن المبنى جـاء راكضاً صوب آمر السـجن وقال: «ألقينا القبض عليه يا سـيدي. إنـه مقيد إلى الدرابزون هناك...».

لكـن كاو كان قد قفـز فـوق الدرابـزون، واختفى فـي العتمة بين المباني.

عرف أنه لا يسـتطيع العودة إلـى العش. فذاك هـو المكان الأول الذي سيبحثون فيه عنه.

وهذا ما ترك له احتمالاً واحداً.

اسـتيقظ على رائحة اللحم المقدد تحت إفريز دار العبادة. انحنى كرامب فوق موقده، وحـرّك محتوى مقلاة كبيرة. تسـلل ضوء الصباح الشاحب عبر النوافذ والفتحة في السقف.

قال: «صباح الخير أيها الكسول».

جلس كاو بسـرعة، وتمنـى فوراً لـو أنه لـم يفعل؛ فقـد آلمه كل جسمه، من أخمص قدميه وحتى أعلى رأسه، فتأوّه ألماً.

قال كرامب مقهقهاً: «التحول إلى غراب سبب كل ذلك». أعطى

كاو طبقاً فيه شطيرة دسمة من اللحم المقدد وكوباً بلاستيكياً ساخناً، ثم استرخى على الأرض في الجهة المقابلة وغرز أسنانه في شطيرته. «الأمر صحيح إذاً؟ هل مات؟».

قضم كاو قضمة كبيرة وأومأ برأسه، متذكراً العينين المجنونتين للرجل الدوّام في لحظاته الأخيرة.

قال كرامب: «أتمنى أن يبقى هكذا لوقت طويل. تعلم يا كاو أنك تستطيع البقاء هنا إلى الأبد إذا رغبت». ومضغ شطيرته على مهل.

ابتسم كاو وقال: «شكراً، لكنك لست مجبراً على قول هذا».

هزّ كرامب كتفه وأجاب: «بلى». فتش في أحد جيوبه العديدة وأخرج قصاصة جريدة مطوية وقدّمها إلى كاو.

بدت الورقة مهمة جداً، ففتحها كاو بعناية. إنها صورة لرجل وامرأة بالأسود والأبيض. تعرّف كاو إلى وجهيهما من كابوسه. إنهما أمه وأبوه. وعلى كتفي الرجل، جلس صبي في الثالثة أو الرابعة من عمره، وتدلت ساقاه بحرية. أحسّ كاو بانقباض في حنجرته، فيما حدّق في شكله عندما كان صغيراً قبل أن ينظر مجدداً إلى والديه. كانا كلاهما يبتسمان بسعادة.

قال كرامب: «رأيت أنه يجدر بك الحصول على هذه».

نجح كاو في التحدث أخيراً: «من أين جئت بها؟».

أجاب: «كوايكر. أعطاني إياها في الليلة الماضية. إنها من مقال جرى نشره بعد موتهما. أعرف معنى خسارتك والديك، كاو. لذا، إن مساعدتك هي أقل ما يمكنني فعله».

طوى كاو الورقة مجدداً، ووضعها داخل جيب معطفه وقال: «شكراً لك».

جلس في وضعية أكثر انتصاباً عند سماعه صوت خطوات على

السلالم، لكن كرامب استمرّ في تناول شطيرته، وقال: «مرحباً بيب!».

دخل الصبي أشقر الشعر الغرفة وقال: «وجدتُ اثنين من أصدقائك كاو». وأومأ في اتجاه النافذة الزجاجية المكسورة عند الطرف البعيد. دخل غلام وسكريتش عبر النافذة، وأرجعا أجنحتهما إلى الخلف عندما جثما قرب كاو.

سأل غلام: إلى أين ذهبت؟ انتظرناك عند المدفن لساعات طويلة!

أجاب كاو: «إنها قصة طويلة».

سأل سكريتش: الأمور المهمة أولاً. هل هذا لحم مقدد؟

أخذ كاو لقمة من الشطيرة وقدّمها إلى الغراب الذي رماها إلى الأعلى وأرجع رأسه إلى الخلف لالتقاطها.

قال بيب: «واحزر ماذا؟ أحضرت لك شيئاً آخر أيضاً». رفع بطانية ممزقة عن جانب الموقد وفتحها بعناية. في الداخل، ظهر سيف أسود طويل ولامع؛ إنه منقار الغراب.

قال بيب: «سرقته من شرطي نائم». أضاف بخجل: «إذاً يا كاو، هل ستبقى هنا معنا؟».

ارتشف كاو شرابه، وتلذّذ بطعم الشوكولا الساخنة. خطر في باله وجه الآنسة والاس، وأحسّ بالحزن. نظر إلى وجه بيب المترقب.

أجاب: «لا أعرف. أعتقد... أعتقد أني أحتاج لأن أكون بمفردي لبعض الوقت».

قال كرامب: «طبعاً. هل من شيء تحتاج إليه؟».

كان كاو على وشك قول لا، ثم خطرت فكرة في باله، فقال: «ثمة أمر ينبغي لي القيام به».

بعد ظهر ذلك اليوم، استقل كاو الباص للمرة الأولى في حياته، مرتدياً ملابس استعارها من كرامب. لفّ وشاحاً حول وجهه، وأنزل قبعة بايسبول على رأسه قدر الإمكان ليحول دون تعرّف أحد إليه من صورته في الجرائد. هذه المرة، وافق الغرابان على عدم مرافقته. فقد عرفا أن هذا أمر يحتاج كاو إلى فعله بمفرده.

أخذه الباص خارج بلاكستون إلى بلدة صغيرة اسمها فالستون. هناك، نزل منه، ودخل عبر بوابة دار العبادة، ومشى صوب الممر الفاصل بين المدافن. أخرج وردة بيضاء واحدة من جيبه، ووضعها قرب قبر والديه، ثم مرر أصابعه على أحرف اسميهما. ذات يوم ربما سيتمكن من قراءة ما هو مكتوب.

أخرج كاو الصورة الفوتوغرافية من سترته، وسطّحها على اللوح الرخامي.

هل يمكن أن يحلّ كرامب مكانهما؟ طبعاً لا يستطيع. لكنه سيكون رفيقاً له، مثل الأخ الأكبر، ولا يشك كاو أبداً في أن خارق الحمام يمكن أن يعلّمه أمراً أو أمرين بشأن العيش والصمود في بلاكستون. لا يعرف كيف سيتمكن سكريتش وغلام من العيش مع طيور الحمام، لكنه يعتقد أنهما سيتعلمان التكيف. الغربان قادرة على الصمود، مثلما قال غلام غالباً.

أو يستطيع ربما بناء عش جديد لنفسه، في مكان أكثر أماناً من الحديقة العامة. فمع مئات الغربان الخاضعة لأمرته، سيحتاج الأمر إلى وقت قصير جداً. إلا أن شيئاً أنبأه أنه لن يفعل ذلك؛ فقد عاش بمفرده طويلاً. لقد حان الوقت ربما لبعض الصحبة الإنسانية.

قالت ليديا: «ظننتُ أنك قد تكون هنا».

كاد كاو يوقع الصورة الفوتوغرافية، ووقف بسرعة. كانت واقفة

على مسافة أمتار قليلة، ترتدي معطفاً أخضر سميكاً، مع قبعة ووشاح باللون الأخضر، وقد وضعت يديها في جيبيها.

سألها: «كيف وجدتني؟».

ابتسمت ليديا، وسحبت يداً مغلفة بقفاز، وأشارت صوب فناء دار العبادة. رأى كاو السيدة ستريكهام جالسة على مقعد السائق في سيارتهما، ولوّحت له بيدها.

قالت: «تعرف أمي أين دفن والداك. يبدو أن ثعالبها تملك عيوناً ثاقبة». نظرت إلى القبر. «كارميكايل. اسم جميل».

عرض عليها كاو الصورة، وقال بفخر: «ها هما - والداي».

قالت ليديا: «يبدوان لطيفين». ثم قطّبت وجهها. «هل هذا أنت؟ كنت ظريفاً!».

تورّد كاو خجلاً.

ضحكت ليديا، ثم أصبحت فجأة جدية. «لماذا غادرت في الليلة الماضية من دون أن تقول وداعاً؟».

أجاب كاو: «أنا آسف. اضطررتُ لفعل لذلك. ألهذا السبب جئتِ إلى هنا؟ للقول وداعاً؟».

وجّهت ليديا نظرة سريعة إلى أمها وقالت: «لا. جئت لأسألك إذا كنت تريد العيش معنا؛ لبعض الوقت على الأقل».

«لكن...».

قالت: «اسمعني جيداً. نملك غرفة احتياطية. وقد وافق والدي على الأمر. لن نخبره طبعاً بأنك خارق حيوانات. فهو لا يعرف حتى بأمر أمي! تحتاج آداب المائدة لديك إلى بعض التمرين طبعاً، ولن يضرّك قضاء بضعة أيام في الحمام. هناك أيضاً مسألة ملابسك التي تحتاج صراحة...».

قال كاو وهو يرفع يده: «حسناً، حسناً، فهمت الفكرة».

قالت ليديا، وقد أشرق وجهها: «إذاً هل ستأتي؟».

تـردد كاو. منـزل حقيقـي، مـع سـرير حقيقـي، وعائلـة حقيقية، ووجبـات حقيقيـة يتـم تناولها حـول الطاولـة... «علـيّ التحـدث مع الغربان، ولكـن... انتظري...». توقف حين لمح شـيئاً على شـعرها - شيئاً زغباً - ومدّ يده لإزالته.

تراجعت يده إلـى الخلف حين وقع الشـيء الزغب على الأرض وزحف بعيداً على أرجله الثماني، وتجمّد الدم في عروقه.

قالت ليديا، وهي تمرر يدها فوق شعرها: «ما هذا؟».

أجاب كاو بسرعة: «لا شيء. مجرد عثّ».

لكنه لم يكن كذلك. إنه عنكبوت؛ عنكبوت أبيض مثل الثلج.

«إذاً، كنت تقول إنك ستسوّي المسألة مع الغربان، أليس كذلك؟ أنا واثقة من أنها ستحب امتلاك مساحة عش أكبر، أو يمكنها بناء عش جديد لها في الحديقة!».

العنكبـوت قـد لا يعنـي شـيئاً. الرجـل الـدوّام قـد مـات، أليس كذلك؟ لكن ماذا لو لم يمت...

قال فجأة: «لا أستطيع. أنا آسف. أعتقد أن مكاني مع كرامب في الوقت الحاضر. وأنت محقة بشأن آداب المائدة لديّ...».

قالت ليديا: «كنت أمزح».

أجاب كاو: «أعرف، لكني جـدّي. لا أعتقد أني جاهز الآن. ليس لهذا النوع من الحياة».

بدا الحزن على وجه ليديا وقالت: «لا بأس إذا كان هذا ما تريده. لكن العرض يبقى سارياً دوماً».

قال كاو: «وأنا ممتن فعلاً».

صدح صوت زمور سيارة من أسفل الهضبة، فنظرت ليديا صوب أمها وقالت: «عليّ الذهاب». ومن دون إنذار، انحنت إلى الأمام وعانقت كاو بشدة. أحس أن الدم تدفق بسرعة إلى وجهه، فيما تراجعت ليديا ببطء إلى الخلف في الممر وقالت: «إلى اللقاء جاك كارميكايل. في الوقت الحاضر على الأقل. تذكر أني وعدتك بتعليمك القراءة. لن تفلت مني!».

ابتسم كاو ابتسامة عريضة، ونظر إلى قبر والديه، في انتظار اختفاء تورّد وجنتيه قليلاً.

إليزابيت وريتشارد كارميكايل. اسمان لا يخبران نصف القصة.

لم يكن يعرف مطلقاً اسمه الحقيقي قبل أن يخبره فيليكس كوايكر. لم يناده أحد باسم جاك منذ أن كان عمره خمسة أعوام، ولن يبدأ الآن باستعمال هذا الاسم.

نادى ليديا من مكان وجوده قرب القبر فيما كانت على وشك فتح باب السيارة: «اسمي ليس جاك. اسمي كاو».

ابتسمت ليديا. «إذاً إلى اللقاء كاو». ولوّحت له بيدها.

كاو، خارق الغربان... كاو، آخر واحد في سلالة تعود بالزمن إلى مئات الأعوام. ماذا ستجلب له الأيام المقبلة؟

أخذ نفساً عميقاً من الهواء البارد، وأحسّ أن الهواء ينقيه في الداخل. عرف نوعاً ما أن الخطر لم يختفِ إلى الأبد. هناك خارقون آخرون؛ أشرار وجيدون على حد سواء. لقد هُزِم عدو واحد، لكن هناك المزيد من الأعداء.

وسيكون كاو مستعداً.

في مدينة دمرها الفساد والجرائم، لا يملك اليتيم كاو، ابن الثلاثة عشر عاماً، أي أصدقاء باستثناء مجموعة الغربان التي عاش معها منذ أن تخلى عنه والداه وهو في الخامسة من عمره فقط... يعيش كاو في عشّ في أعلى شجرة في حديقة عامة مهجورة، ويقتات من فتات الطعام، ويتواصل فقط مع غربانه الثلاثة. إلا أن فرار بعض المساجين يجبره على التواصل مع بشر آخرين؛ ولاسيما فتاة تدعى ليديا تتعرض للاعتداء من قبل السجناء الفارين وينقذها كاو. يدرك كاو أن هؤلاء السجناء الفارين متوحشون يملكون قواسم مشتركة معه أكثر مما يريد... فهم أيضاً خارقون مثله؛ أي إنهم بشر قادرون على التواصل مع بعض أجناس الحيوانات وعلى السيطرة عليها. وهم يريدون إعادة سيدهم المتوحش الشرير، الرجل الدوام، من أرض الموتى. وعندما تتّحد قوة كاو مع قوى خارقين آخرين طيبين يختبئون في المدينة، يملك كاو الفرصة لإلحاق الهزيمة بأولئك المتوحشين الخارقين.

جاكوب غراي

لا يُعرف سوى القليل عن الكاتب الغامض جاكوب غراي. يقال إنه يعيش في مدينة كبيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يجوب الشوارع ليلاً حالماً ومفكراً في حكاياته الغامضة والغريبة. ويقال أيضاً إنه يكنّ حباً عميقاً للحيوانات، حتى إنه هو نفسه يحادث الغُربان؛ على الرغم من أن أحداً لا يمكنه الجزم ما إذا كان يفهم ردودها.

ISBN 978-614-01-1354-1
9 786140 113541

نيل وفرات كوم
بيع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات كوم
www.nwf.com